الصحابة

مجمع أديان حول الرسول صلى الله عليه وسلم

عندما أصبح المسيحيون واليهود صحابة للنبي صلى الله عليه وسلم

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

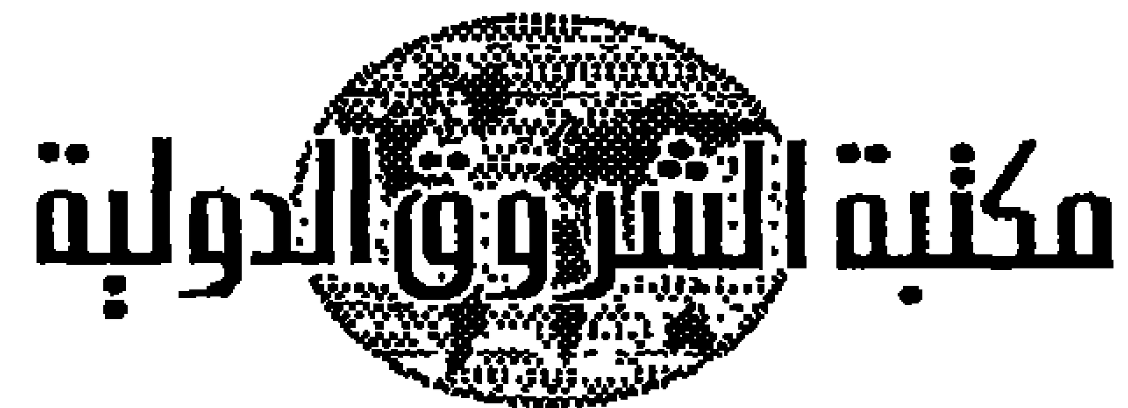
مكتبة الشروق الدولية

الصَّحَابة

مُجَمَّع أديان حَول الرسول ﷺ

الطبعـــة الأولى

١٤٢٨ هـ ـ يناير ٢٠٠٧ م



٩ شارع السعادة ـ أبراج عثمان ـ روكسى ـ القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٠١٢٢٨ ـ ٤٥٠١٢٢٩ ـ ٢٥٦٥٩٣٩

Email: < shoroukintl@hotmail.com >

< shoroukintl@yahoo.com >

الصَّحَابة

مُجَمَّع أديان حَول الرسول ﷺ

عندما أصبح المسيحيون واليهود صحابة للنبى ﷺ

د. عبد الرحمن عبد الله الشيخ

مكتبة الشروق الدولية

البرنامج الوطنى لدار الكتب المصرية
الفهرسة أثناء النشر
(بطاقة فهرسة)
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية (إدارة الشئون الفنية)

الشيخ ، عبد الرحمن عبد الله
الصحابة مجمع أديان حول الرسول عندما أصبح المسيحيون واليهود صحابة للنبى
تأليف : عبد الرحمن عبد الله الشيخ
ط١ ـ القاهرة : مكتبة الشروق الدولية ، ٢٠٠٦م
٢٥٢ ص ؛ ١٧ × ٢٤سم
تدمك : 1- 1938-09 -977
١ـ الإسلام والمسيحية ٢ـ الإسلام واليهودية
٣ـ الديانات المقارنة
أ ـ العنوان ٢١٤,٢٧

رقم الإيداع ٢٤٧٦٢/ ٢٠٠٦م
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977- 09-1938 -1

الفهرس

الموضـــــــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

مقدمة عامة

[صحابة الرسول ﷺ فى أغلبيتهم من المسيحيين واليهود - الهجرة الأولى إلى أرض مسيحية - سرجيس - تماضر النصرانية - الإصبع الكلبى النصرانى ابن أنس الراهب - الهجرة إلى يهود - الإسلام دين المستقبل - الإسلام عالمى النزعة - رأى منتجمرى وات - رأى وِل ديورانت - كل الأجناس حول الرسول - أم أيمن - بلال - أسامة الحِب - عمار بن ياسر- صالح شقران - سلمى القابلة - صهيب الرومى - الأزرق الرومى - أبو كبشة الفارسى - أفكار من المسيحية واليهودية ترددت عند موت النبى ﷺ - أبوبكر يصحح - عادات إفريقية - مارية - سيرين - مينا - مابور - بعد جديد للأوثان - حقيقة حروب المرتدين]

لسبب غير واضح بشكل كاف جرى التركيز عند كتابة السيرة النبوية، وحركة الهداية الإسلاميَّة على تحوُّل عبَّاد اللات والعزى وغيرهما من الأصنام إلى الإسلام، وربما كان هذا لرغبة لا شعوريَّة لدى الكتَّاب المسلمين لتبيان الفارق الحاد والتباين الصارخ بين العقائد التى كانت سائدة قبل الإسلام، وتلك التى سادت بعده، ليكون التقابل صارخًا بين النّور والظلام أو بين الهداية والضلال.

ولا شكَّ أنَّ الإسلام كان نوراً غَمَر العالم، لكن هذا لا يمنع من تقرير الحقيقة الواضحة تمام الوضوح وهى أنَّ معظم الذين تحولوا للإسلام ورحَّبوا به منذ البداية الباكرة للإسلام أى على عهد النبى ﷺ كانوا يهوداً ونصارى أو فيهم كثير من اليهودية والنصرانية، ومن هنا فقد كان عدد كبير من صحابة النبى ﷺ من اليهود والمسيحيين، ولعلَّ المثل الصارخ الذى يؤيد هذا أنَّ اليمن التى تمركزت فيها اليهوديَّة والمسيحية دخلت الإسلام دون مشاكل على عهد النبى ﷺ ودون غزوات بالمعنى الحرفى للكلمة.

هذه الحقائق التى تبدو غريبةً، واضحةٌ تمام الوضوح فى أوَّل سيرتين وصلتا إلينا عن حياة النبى ﷺ وعَصْر النبوَّة، ونعنى بهما «السيرة النبوية لابن إسحاق» (ت١٥٢هـ) والتى هذَّبها ابن هشام، و«السيرة النبوية» التى كتبها ابن سعد (ت ٢٣٠هـ) فى الأجزاء الأولى من كتابه المهم «الطبقات الكبرى». وهما كتابان مُتداولان من اليسير أن يراجعهما القارئ العام والمتخصص على حد سواء، وقد عرضنا ما أورداه من أخبار ببساطة ووضوح ليُطالعها القارئ المسلم والمسيحي واليهودى على حد سواء. ونظراً لدقة الأفكار الواردة فى هذه السياقات وعدم تداولها فقد أوردنا مصدر الأخبار التاريخية التى تؤيِّدها فى سياق الكتاب نفسه، بمعنى أننا أوردنا اسم المرجع التراثى الأصلى، ورقم الصفحة بين قوسين داخل سياق كتابنا نفسه، وليس فى قائمة مراجع منفصلة فى آخر الكتاب مُقتدين بذلك بالطريقة المتَّبعة فى بعض الدوريات العلمية المحكمة التى تتناول موضوعات أكاديمية دقيقة، ومُقتدين أيضًا بكتب التراث التى تورد مصدر الخبر أو المعلومة فى السياق نفسه.

فى رحاب المسيحية واليهودية ـ إذن ـ ترعرع الإسلام ووجد الحماية، منذ البداية الأولى وعلى عهد نبيه ﷺ. لقد ظهر الإسلام مُصدِّقًا لما بين أيديهم من التوراة والأناجيل ومهيمنًا عليها. لقد ظهر ليُكملِ لا ليهدم وظهر ليُصحح ما أفسده تطاول العهد، وما لحق بها من تجاوزات وأباطيل، ليعيدها إلى الأصول الأولى ممثلة فى دين إبراهيم عليه السَّلام. ألم تكن هجرة المسلمين الأولى بعد بعثة النبى ﷺ بعامين إلى ديار مسيحية هى الحبشة؟! ألم يُزمع حتى أبوبكر الصِّديق نفسه الهجرةَ إلى الحبشة؟! ألم يتأخر عدد من المسلمين ـ منهم جعفر بن أبى طَالب ـ فى الرجوع من الحبشة حتى

بعد هجرة النبى ﷺ للمدينة المنورَّة بل حتى سنة ٧هـ ؟ وأسلم عدد كبير من النصارى العرب وصاروا صحابة ذكرت لنا كتب التراث بعضهم، نذكر منهم لدواعى الإيجاز ثلاثة:

ـ الصحابى الإصبع بن عمرو الكلبى، كان نصرانيًا فأسلم، وتزوج عبد الرحمن بن عوف ابنته تماضر (النصرانية) التى لم تجد صعوبةً فى التحوّل للإسلام [ابن سعد، الطبقات الكبرى، مج١، ص٨٠٤].

ـ والصحابى رافع بن أبى رافع الطائى (رافع بن عميرة) كان نصرانيًا اسمه سرْجيس وقد حضر غزو عمرو بن العاص لذات السلاسل وكان سرْجيس رضي الله عنه صديقًا لأبى بكر الصِّديق. [ابن هشام، السيرة النبوية، ج٦، ص٣٥]

ـ كان أبو قيس بن أبى أنس (من بنى عدى بن النجار) قد ترهْبن قبل الإسلام. . . واغتسل من الجنابة وهمَّ بالنصرانية ثم قال أعبُد رب إبراهيم، لذلك لم يجد صعوبة فى دخول الإسلام حين قدم النبى ﷺ للمدينة [ابن هشام، ج٢، ص٤٣].

ثم ألم تكن الهجرة الثانية، التى كان فيها النبى ﷺ إلى المدينة حيث (موال يهود) أو حلفاء يهود، وحيث يهود أنفسهم ؟ ومن هؤلاء كان الأنصار الذين نصروا الله ورسوله. ومن هؤلاء أيضًا كان من عادى الله ورسوله.

وكما بدأ الإسلام على عهد النبى ﷺ دينًا عالميًا لكلٍّ أصحاب الديانات السابقة عليه، خاصة المسيحية واليهودية، فإنَّ أفكاره ظلَّت تتغلغل فاعلةً مؤثرة فى المسيحيين واليهود حتَّى يومنا هذا.

يقول المستشرق منتجمرى وات فى كتابه «الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر» [نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ سلسلة الألف كتاب الثانى، وهو من ترجمة ودراسة مؤلِّف الكتاب الذى بين يدى القارئ]: إنَّ الإسلام ـ بشكل أو بآخر ـ هو دين المستقبل، سواء كان هذا بشكل مباشر، أو بإجراء تحوُّلات فى اليهودية والمسيحية تجعلهما قريبتين ـ إن لم تكونا متطابقتين ـ مع الإسلام، وإنه لم يعد هناك كبير شك لدى بعض المسيحيين فى أنَّ محمدًا نبى ـ بشكل أو بآخر ـ أرسله الله لإبلاغ كلمته ـ بطريقة خاصة ـ لشعوب كان يصعب عليها فهم كلمة الله إلاَّ بطريقته ـ أى طريقة محمد ﷺ ـ، وإنَّ الشَّريعة

الإسلامية فى مجملها لا تُناقض ما سبقتها من شرائع يهودية . وقد اتَّهمه زملاؤه بأنه خرج عن المسيحية باعترافه بنبوَّة محمد ﷺ ، فارتعد الرجلُ وقال : إنَّه مسيحى رغم إيمانه بأنّ محمداً نبى . [راجع المقدمة فى الكتاب آنف الذكر] .

ونجد مؤلّفًا شهيراً آخر هو ول ديورانت يذكر بوضوح كامل أنَّ «فكرة التثليث» لم تعُد راسخةً فى الضَّمير الأوروبِى ، وإنما اهتزّت اهتزازاً شديداً [قصة الحضارة - عصر نابليون . نشر المجمع الثقافى فى أبوظبى ، المجلد الأول ، والكتاب ترجمه وقدَّم له د . عبدالرحمن عبدالله الشيخ] ، بل إن ول ديورانت يرى أنَّ الثورة الفرنسية هى فى الأساس حركة إصلاح دينى وأنها استبدلت بالثالوث (الأب والابن والروح القدس) ثالوثًا آخر هو (حرية وإخاء ومساواة) . ويذكر تفاصيل مُرْعبة عن إهانة الثوار للكتاب المقدس المسيحى ، لكن الثورة - على أيَّة حال - اكتشفت بعد ذلك أنَّه يستحيل ضبط الجماهير دون دين ، فكان إحياء الكاثوليكية ، لكن على أسس أقل تطرفًا وأكثر اعتدالاً .

والمستشرق چورچ بوش (القرن ١٩) ، يؤكِّد أنَّ محمداً ﷺ هو رسول من عند الله ، وأنّ الله - سبحانه - أرسله سَوْطَ عذاب يَهْوى به على الكنائس الضَّالة ، لكنه - على أية حال - يعود فيقول : إن المسيحيين إذا ما أصلحوا مسيحيتهم ارتفع عنهم سَوْط العذاب هذا ، فالرجل يتوقع أن يعود المسلمون للمسيحية فى مطلع الألفية . [چورچ بوش ، محمد مؤسس الدين الإسلامى ، القاهرة ، الرياض ، دار المريخ ، ٢٠٠٤م - ط٥] .

الإسلام إذن هو دين المستقبل لأنَّه يضم كلَّ ما هو خير فى الديانتين السَّابقتين له . وكما شهد المجتمع المحيط بنبى الإسلام ﷺ منذ بدايته جماعة (صحابة) يهوداً ومسيحيين ، فقد كان هذا المجتمع يمثِّل أيضًا كلَّ أجناس البشر ، فقد نشأ النَّبىُّ ﷺ بعد وفاة أمه فى أحضان إفريقية حنون ، كانت له أمّا بعد أمِّه . لقد رَعَتْه هذه الإفريقية واهتمت به ، فكان ﷺ يُكن لها حبّا شديداً ، بل لقد امتد هذا الحب إلى بنيها الذين جَنَحوا إلى لَوْنها فكانوا سوداً مثل أمِّهم ، لكن هذا لم يمنع النبى ﷺ من تنصيبهم أمراء للجيوش ، وتبويئهم مكانًا سامياً . إنَّها «بَرَكة» التى عرفت بعد ذلك بأم أيمن .

ويبدو أنَّ أم أيمن لم تصل للحجاز - بشكل أو بآخر - إلاَّ وهى كبيرة السن نسبيّا أو بتعبير آخر إلاَّ بعد أن تجاوزت مرحلة الطفولة ، لأنَّ لسانها لم يكن فصيحًا عندما تنطق العربية ، فقد كانت لا تُجيد نطق «حرف العين» ؛ إذ كانت تقلبه «ألفًا» ، كما كانت لا

تجيد نطق «حرف الثاء»؛ إذ كانت تقلبه «سينًا» . . . وظل هذا حالها حتى آخر عمرها. وليس فى «السيرة النبوية» التى وصفها ابن إسحاق وهذبها ابن هشام، ولا فى «الطبقات الكبرى» لابن سعد ما يُفيد أنها حبشيّة، «فبركة» إذن إفريقية سوداء وصلت إلى «مكة» بعد تجاوزها سنَّ الطفولة بزمان. يروى لنا ابن سعد هذه الأخبار التى تؤكد ما ذهبنا إليه:

ـ «كانت أم أيمن لا تنطق حرف العين»، وتحيله إلى «ألف» فتقول: أليكم السلام، وهى تقصد: عليكم السلام، أو السلام أليكم، وهى تقصد: السلام عليكم، فسمح لها النبى ﷺ أن تكتفى بكلمة «السلام». [الطبقات الكبرى، ج٦، ص١٦٧ـ ١٦٨].

ـ كانت أم أيمن لا تجيد أيضًا نطق «حرف الثاء»، فقالت يوم حنين: سَبَّت الله أقدامكم وهى تقصد ثبَّت الله أقدامكم، فقال لها النبى ﷺ: اسكُتى يا أم أيمن فإنَّك عسراء اللّسان. [الطبقات الكبرى، ج٦، ص١٦٨].

وكانت أم أيمن تعتنى بالنبى وتخدمه، فقال النبى ﷺ: من سرَّه أن يتزوج امرأة من أهل الجنّة فليتزوج أم أيمن، فتزوجها زيد بن حارثة فولدت له أسامة، وحضرت أم أيمن غزوة أحد فكانت تسقى العطشى وتداوى الجرحى. [الطبقات الكبرى، ج٦، ص١٦٨]. وأم أيمن(اسمها بركة) مولاة رسول الله ﷺ وحاضنته، كان النبى ﷺ قد ورثها من أبيه. عندما تزوّج النبى ﷺ من خديجة بنت خويلد أعْتَقَها فتزوَّجها عبيد بن زيد . . . بن الخزرجِ فولدت له أيمن. ولما مات زَوْجُها أعتق النبى ﷺ زيد بن حارثة بن شراحبيل وزوَّجه أم أيمن بعد النبوة فولدت له أسامة بن زيد.

وكان النبى ﷺ يناديها: يا أمَّه (يا أمى) وكان إذا نظر إليها قال: هذه بقية أهل بيتى. [الطبقات الكبرى، ج٦، ص١٦٧]

وكان أسامة الحب بن زيد بن حارثة من زوجته بركة (أم أيمن) قد وُلد بمكة ونشأ فيها حتى أدرك ولَم يعرف إلا الإسلام ولم يدن بغيره، وهاجر مع النبى ﷺ إلى المدينة وكان النبى يحبه حبّا شديداً، وكان عنده كبعض أهله. وكان أسامة أسود أفطس الأنف لكن هذا لم يَعِبْه عند النبى ﷺ. فقد أخَّر النبى ﷺ الإفاضة من عرفة من

أجل أسامة بن زيد ينتظره، فجاء غلام أفطس أسود (أى أسامة) فقال أهل اليمن: إنّما حُبسنا من أجل هذا. [الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٤٤].

ودخل النبى ﷺ مكة يوم الفتح ورديفه أسامة بن زيد فأناخ فى ظل الكعبة. [الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٤٥].

وبعث النبى ﷺ سريّة فيها أبوبكر وعمر، فاستعمل عليهم أسامة بن زيد، وقد كانوا طعنوا فيه أى فى صغر سنّه، فبلغ رسول الله ﷺ ذلك فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وقال: «إنّ الناس قد طعنوا فى إمارة أسامة بن زيد، وقد كانوا طعنوا فى إمارة أبيه من قبله، وإنهما لخليقان لها، أو كانا خليقين لذلك، فإنّه لمن أحب الناس إلىّ إلاّ فاطمة، فأوصيكم بأسامة خيراً». [الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٤٦].

ومرض رسول الله ﷺ فجعل يقول فى مرضه: أنفذوا جيش أسامة. أنفذوا جيش أسامة. وخرج بالفعل جيش أسامة حتى بلغ الجُرْف، فأرسلت إليه امرأته فاطمة بنت قيس، فقالت له: لا تعْجَل فإنّ رسول الله ﷺ ثَقيل (اشتد عليه المرض) فلم يبرح حتى مات رسول الله ﷺ، فلمّا قُبض رجع إلى أبى بكر فقال له: إنّ رسول الله ﷺ بعثنى وأنا على غير حالكم هذه وأنا أتخوّف أن تكفر العرب فإن كفرت كانوا أول من يُقاتَل (بضم الياء) وإن لم تكفر مضيتُ فإنّ معى سروات الناس وخيارهم. فخطب أبو بكر الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «والله لأن تخطّفنى الطير أحبّ إلىّ من أن أبدأ بشيء قبل أمر رسول الله ﷺ» فبعثه أبو بكر. [الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٤٧].

وكان أسامة براً بأمه، فعندما بلغت النخلة على عهد عثمان بن عفان ألف درهم عمد أسامة إلى نخلة فنقرها وأخرج جُمَّارها فأطعمها أمّه، فقالوا له: ما يحملك على هذا وأنتَ ترى النخلة قد بلغت ألف درهم؟ فقال: إنّ أمّى« سألتنيه ولا تسألنى شيئًا أقدر عليه إلا أعطيتها. [الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٤٩].

وعُرف عن أسامة التقوى والتقشّف فقد كان صوّامًا قوّامًا، يروى لنا ابن سعد: كان أسامة يركب إلى مال له بوادى القرى فيصوم يوم الإثنين ويوم الخميس، فقيل له: أتصوم فى السّفر وقد كبرت ورفعت؟ (هزلت) فقال: : رأيت رسول الله ﷺ يصوم

يوم الإثنين ويوم الخميس؛ لأنه كما قال: «إنَّ الأعمال تُعرض يوم الإثنين ويوم الخميس». [الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٥٠].

***

وإذا كانت هذه الإفريقية السوداء قد رعت نبينا ﷺ طفلاً واعتنت به شابًا وآمنت به رسولاً، وأنجبت للإسلام أبطالاً، فإن بركة (أم أيمن) لم تكن هى الإفريقية الوحيدة فى بواكير الإسلام، ولنخصِّص بعض السطور لسُميَّة الشهيرة وابنها عمار بن ياسر.

وعمّار بن ياسر (حليف بنى مخزوم) قحطانى (من اليمن). كان أبوه ياسر قد قدم مكة مع أخوين له من اليمن يطلبون أخًا لهم فرجع الأخوان وبقى ياسر، وزوَّجه حلفاؤه أمَةً لهم يقال لها سُميّة بنت خياط، ولما جاء الإسلام أسلم ياسر وابنه عمّار وزوجته سمية.

وقد جَنَحَ عمّار فى لونه وملامحه إلى أمه فقد كان آدم طويلاً أشْهل العينين، بعيد ما بين المنكبين. أى أنَّه كان إفريقى الملامح والسمات.

قال عمّار بن ياسر: لقيت صهيب بن سنان على باب دار الأرقم ورسول الله ﷺ فيها، فقلت له: ما تريد؟ قال لى: ما تريد أنت؟ فقلتُ: أردتُ أن أدخل على محمد ﷺ فأسمع كلامه. قال: وأنا أريد ذلك. فدخلنا فعرض علينا الإسلام فأسلمنا، ثم مكثنا يومنا على ذلك حتى أمسينا، ثم خرجنا ونحن مُسْتخفون. [الطبقات الكبرى، ج٢، ص٢١٨].

وأخذ المشركون عمَّار بن ياسر فلم يتركوه حتى نال من رسول الله ﷺ: (قال فيه قولاً سيئًا)، وذكر آلهة المشركين بخير، فلما أتى عمار رسول الله ﷺ: قال له: «ما وراءك؟» قال عمّار: شرّ يا رسول الله ما تُركت حتى نلتُ منك وذكرتُ آلهتهم بخير قال: «فكيف تجد قلبك؟» قال عمار: «مطمئن بالإيمان». قال النبى ﷺ: «إنْ عادوا فَعُد». [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٠].

وأول من بنى مسجداً فى بيته يُصلّى فيه عمار بن ياسر. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٢٠].

وكان عمّار ممن هاجر إلى الحبشة فى الهجرة الثانية. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٢٠].

وشهد عمار المشاهد كلها (الغزوات كلها) مع رسول الله ﷺ. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٢٠]

فقال النبى ﷺ لعمار بن ياسر أثناء بناء المسجد النبوى بعد أن وجده مجتهداً فى العمل إذ كان يحمل لَبِنَتَيْن لَبِنَتَيْن لا لَبِنَةً واحدة: « ويحك ابن سميّة تقتلك الفئة الباغية، وراح النبى يمسَح عَنَ رأسه التراَب». [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٢٢].

وفى يوم اليمامة وقف عمّار على صخرة وراح يصيح: يا معشر المسلمين، أمنَ الجنَّة تفرّون؟ أنا عمار بن ياسر هلموا إلىَّ، يقول الراوى وأنا أنظر إلى أذنه قد قُطعت فما تذبذب وهو يُقاتل أشد قتال [جـ٢، ص٢٢٤].

وفى عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - تولَّى عمار إمارة الكوفة، فأرسل عمر إلى أهل الكوفة خطابًا يقول فيه: أمَّا بعد، فإنى بعثت إليكم عمَّار بن ياسر أميراً، وابن مسعود معلِّمًا ووزيراً، وقد جعلتُ ابن مسعود على بيت مالكم، وإنهما لمن النُّجباء من أصحاب محمد من أهل بدر، فاسمعوا لهما وأطيعوا واقتدوا بهما. وقد آثرتُكم بابن أم عبْد على نفسى، وبعثتُ عثمان بن حنيف على السَّواد، ورزقتكم كل يوم شاةً فأجعلُ شطرها وبطنها لعمَّار والشطر الباقى بين هؤلاء الثلاثة. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٢٤].

كان عمّار يقرأ كل يوم جمعة على المنبر سورة يس [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٢٤] واشترى عمار قثاء وهو أمير على الكوفة فاستزاد حَبْلاً فأبى بائع القثاء، فقسمه قسمين وحمله على ظهره. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٢٤].

يقول الرواة: إنه كان آدم (أسود) طويل القامة. [الطبقات الكبرى، ج٢، ص٢٢٥] وقُتل عمار وهو ابن أربعة وتسعين. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٢٧].

كان عمار رجلاً آدم طُوالاً، أشهل العينين، بعيد ما بين المنكبين، وكان لا يُغيِّر شيبه (لا يصبغ شعره). [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٣٠] والكلمة آدم تعنى شديد السواد، أما أشْهل فتعنى أنَّ فى عينيه شيئًا من الحمرة [المعجم الوجيز/ مجمع اللغة العربية/ المادتان: (أدم) و (شهل)].

وكـان بلال بن رباح، مـولى أبى بكر، ويُكنّى أبا عـبـد الله وكـان من مـولَّدى السّراه، واسم أمه حـمامة، وكانت لبعض بنى جمح. يقـال إن النبى ﷺ قـال: بلال سابق الحبشة. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٠٦] وكـان من المستضعفين فى مكّة وكان يعذّب بسبب إسلامه ليرجع عن دينه فأبى، وكان أميّة بن خلف هو القائم على تعذيبه.

وكان بلال إذا اشتدّ عليه العذاب قال: أحَدٌ أحَد.

فيقولون له: قل كما نقول، فيرد: إنّ لسانى لا يُحسنه.

يقولون: ربك اللات والعزّى.

فيرد بلال: أحَد أحَد.

فاشتراه أبوبكر وأعتقه.

وكان عمر بن الخطاب يقول: أبو بكر سيدنا وأعتق سيِّدنا (يعنى بلالاً).

ولمّا تُوفِّى رسول الله ﷺ جاء بلال إلى أبى بكر الصِّديق فقال له: يا خليفة رسول الله إنى سـمعتُ رسـول الله ﷺ يقول: «أفضل عمل المؤمن الجهاد فى سبيل الله». فقال أبو بكر: « فما تشاء يا بلال؟». قال: «أردتُ أن أرابط (أتفرغ للجهاد) فى سبيل الله». فقال أبو بكر: «أنشدُكَ الله يا بلال وحُرمتى وحقّى فقد كبرتُ وضعفتُ واقترب أجلى» (والمعنى أنه يرجوه المكوث معه). فأقام بلال مع أبى بكر حتى توفّى أبو بكر. جاء بلال إلى عمر فقال مثل ما قال لأبى بكر، فقال له عمر مثل ما قال أبو بكر، فأبى بلال عليه فقال له عمر: فإلى من ترى أجعل النداء؟ (أى الأذان). فقال بلال: إلى سعد فإنه قد أذّن لرسول الله، فدعا عمر سعداً فجعل الأذان إليه وإلى عقبه من بعده.

وفى رواية أخرى أنه لما تُوفّى رسول الله ﷺ أذّن بلال ورسول الله ﷺ لم يُقبر، فكان إذا قال أشهد أنّ محمداً رسول الله انتحب الناس فى المسجد. فلما دُفن رسول الله ﷺ، قال له أبو بكر أذّن، فقال: إنْ كنتَ إنما أعتقتنى لأن أكون معك فسبيل ذلك (أى لا بأس أكون لك تبعًا)، وإن كنت أعتقتنى للّه فخلّنى ومن أعتقتنى له (أى لله). قال أبو بكر: ما أعتقتك إلا للّه. قال بلال: فإنى لا أؤذّن لأحد بعد رسول الله

ﷺ فوافق أبو بكر قائلاً: ذاك لك. فأقام بلال - رضى الله عنه - حتى خرجت بعوث الشام فسار حتى انتهى إليها. وفى الشام مات بلال. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٠٧ - ٢١٠] وخطب بلال وأخوه إلى أهل بيت من اليمن فقال: أنا بلال وهذا أخى، عبدان من الحبشة كنّا ضالين فهدانا الله، وكنا عبدين فأعتقنا الله، إنْ تُنكحونا فالحمد لله، وإن تمنعونا فاللهُ أكبر. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢١٠].

وجاء بنو أبى البُكير إلى رسول الله ﷺ فقالوا: زوّج أختنا فلانًا (وسمّوا شخصًا)، فقال النبى: أين أنتم عن بلال؟ فانصرفوا وعادوا فكرروا الطلب وكرّر النبى الإجابة نفسها، وفى المرة الثالثة قال لهم: «أين أنتم من بلال؟ أين أنتم من رجل من أهل الجنّة؟» فوافقوا على تزويجه. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢١١] وكان بلال رجلاً آدمَ شديد الأدمة، نحيفًا طوالاً، أجنًا، له شعر كثير، خفيف العارضين، به شمط كثير لا يغيِّر [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢١٢] وهذه الصفات تنطبق على الحبشى النمطى فهو أسود طويل كثيف الشعر. أما كلمة (أجنأ) فتعنى أنه به شىء من الانحناء، وكان لا يغيِّر (أى لا يصبغ شعره)، ويوصف الرجل بأنه أشمط إذا اختلط سواد شعره ببياض.

ومن الأحباش الذين كان لهم دور مهم حول النبى ﷺ صالح شُقران، غلام رسول الله ﷺ، وكان عبداً حبشيًا. شهد بدراً وهو مملوك فاستعمله الرسول ﷺ على الأسرى، ورغم أنه كان مملوكًا (لم يُعتق) فقد كافأه النبى ﷺ عوضًا عن نصيبه من الغنائم. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٧٥ - ٧٦].

وكان صالح فيمن حضر غُسْل رسول الله مع أهل بيته. وكان الرسول ﷺ قد أوصى له قبل وفاته.

وهناك أيضًا سلمى القابلة مولاة النبى ﷺ وهى امرأة أبى رافع مولى رسول الله ﷺ وأم أولاده، وهى التى كانت تُقبِّل (أى تقوم بعمل القابلة أو المولدة) لخديجة بنت خويلد، كما أنَّ مارية القبطية ولدت إبراهيم ابن النبى ﷺ على يديها فأخبرت زوجها (أبا رافع) فزفَّ البشرى للنبى ﷺ [الطبقات الكبرى، جـ٦، ص١٦٩].

ولا شك أنّ هذه البيئة الإفريقية القريبة من رسول الله ﷺ قد تركت بعض الأثر من حيث نقل بعض العادات الإفريقية التى لا تتعارض مع جوهر الإسلام. لنقرأ هذا الخبر: «تنازع على وجعفر وزيد بن حارثة فى أمر ما حتى ارتفعت أصواتهم، فأيقظوا النبيَّ من نومه ليقضى بينهم فقضى لجعفر بن أبىّ طالب، فسُرّ جعفر «فقام وحَجَل حول النبى ﷺ أى دار حوله» فقال النبى ﷺ: «ما هذا؟» قال جعفر: «شىء رأيت الحبشة يصنعونه بملوكهم» ومعروف أن جعفر بن أبى طالب كان قد هاجر إلى الحبشة ولم يعد إلا سنة ٧ هـ، أى بعد هجرة النبى وصحبه للمدينة بفترة طويلة». [الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٢٥]

وفى هذا السياق أيضًا نذكر أنه ليس أدلَّ على عالمية البيئة المحيطة بالنبى ﷺ أعراقًا وديانات من أن النبى ﷺ عندما توفّاه الله أنكر عمر بن الخطاب على القائلين بموت النبى ﷺ، مقالتهم، بل هدَّدهم، فهل حقيقة لم يكن عمر القريب جدّا من رسول الله مكانًا ومكانةً ونسبًا، يعرف أنَّ النبى مات بالمعنى المادى للكلمة أو لنستخدم تعبيراً معاصراً لنقول بالمعنى البيولوجى للكلمة. كلا، لقد كان عمر يعرف أنّه مات، فقد عاين مرضه، وشهد صلاة أبى بكر بالناس، وسمع قول الناس: إن النبى قد (ثَقُل) أى اشتد عليه المرض. لم يكن عمر إذن يجهل كل هذا، وإنما كان يقصد بإنكاره موت النبى ﷺ إنكاره أنه لن يعود أو لن يرجع بعد موته لإكمال مهمته، وفكرة الرَّجعة كانت فكرة تتردَّد بين المسيحيين واليهود، وكان منهم كما رأينا أعداد كبيرة فى شبه الجزيرة العربية. من أين أتينا بهذا التحليل غير المتداول؟ إننا لم نتعدّ السيرة النبوية لابن هشام: «لمّا توفّى رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب، فقال: إنَّ رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد تُوفّى، وإنّ رسول الله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران»، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم... والله ليرجعن رسول الله ﷺ ...». [ابن هشام، جـ ٦، ص٧٥] لكن أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - أعاد الأمور إلى نصابها.

يهمنا بعرض هذه الواقعة أن نؤكّد على أننا كنّا إزاء مجتمع تمور فيه الأفكار المسيحية واليهودية وغيرها، ولم نكن إزاء مجتمع مُغلق مقتصر على من تحولوا للإسلام من الوثنية الخاصة.

لقد كان مجتمع صحابة رسول الله ـ إذن ـ مجتمعًا عالميًا بكل معانى الكلمة تتردد فيه أفكار من مختلف الديانات ومن مختلف الحضارات . . . أفكار حسمها الإسلام، فكان هو الاختيار الأصح والاختيار الأعظم والاختيار الأبقى .

* * *

نكتفى بالنماذج التى ذكرناها من الصحابة الإفريقيين المحيطين بالنبى ، وإن كانت هناك نماذج أخرى كثيرة، لننتقل الآن إلى الأفارقة البيض .

بعث المقوقس صاحب الإسكندرية إلى النبى فى سنة ٧ هـ، مارية وأختها سيرين ومعهما الخَصى مابور القبطى وهو شيخ كبير كان أخًا لمارية، فصحبهم حاطب بن أبى بلتعة للنبى، وأسلمت مارية وأختها على يد حاطب الذى شرح لهما الإسلام، أما مابور فلم يُسلم إلاَّ فى وقت لاحق، لكن فى عهد الرسول ﷺ أيضًا وليس بعد وفاته . [الطبقات الكبرى، جـ٦ ، ص١٥٨ ـ١٥٩] وقد كان النبى ﷺ معجبًا بمارية؛ لدخولها فى الإسلام فأنزلها فى العالية (اسم موضع) وتُسمَّى الآن مَشْربة أم إبراهيم . وضَرَبَ عليها الحجاب وكانت نسوة النبى ﷺ يَغَرْنَ منها لجمالها وكثرة مكوث النبى عندها . [الطبقات الكبرى، جـ٦ ، ص١٦٠ ـ ١٦١] أما سيرين أخت مارية فزُوِّجت لشاعر الرسول ﷺ حسَّان بن ثابت . [الطبقات الكبرى، جـ٦ ، ص ١٦١] . وتُوفيت مارية فى المحرم سنة ١٦هـ فصلَّى عليها عمر بن الخطاب ودفنها فى البقيع . [الطبقات الكبرى، جـ٦ ، ص١٦٢] .

ولا ندرى لماذا أغفلت كتب التراجم ذكر تفاصيل عن مينا النجار القبطى الذى أشار إليه ابن هشام نقلاً عن ابن إسحاق والذى ساعد فى ترميم الكعبة وأعاد بناءها ووصفه عرب مكة بأنَّه نجار« رفيق » .

* * *

وثمة عِرْق بشرى آخر كان محيطًا بالنبى ﷺ إنّه العِرْق الفارسى، الذى لعب دورًا مهمًا فى نشر الإسلام، بل والقضاء على حركة المرتدينَ فى عهد النبى ﷺ ، كما سنبيِّن فى القسم الأول من هذا الكتاب . لقد كان منهم أبو كبشة مولى رسول الله ﷺ ، واسمه سُليم من مولَّدى أرض دوس . وشهد أبو كبشة مع النبى بدرًا وأحدًا

والمشاهد كلها، وتُوفي في أول يوم استُخلف فيه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أي في سنة ١٣هـ. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص١٠٥].

وسالم مولى أبي حذيفة وهو سالم بن معقل من أهل اصْطَخْر، وكان مولى لامرأة أنصارية. تبنَّاه أبو حذيفة بعد أن تزوج من هذه المرأة، وزوّجه أبو حذيفة بنت أخيه فاطمة بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة. قُتل سالم يوم اليمامة. وكان يُقال «سالم من الصالحين» وكان يؤم المهاجرين في مكة لأنّه كان أقرأهم للقرآن. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص١٠١ - ١٠٢].

هذا بالإضافة طبعًا إلى الصحابي الشهير سلمان الفارسي، الذي خصَّصنا له الباب الأول كله من هذا الكتاب؛ لأنَّه نموذج فريد يبين لنا أسباب التحول للإسلام، ولأنه كان مجوسيّا بل ذا رتبة كهنوتية فيها، وتحول للمسيحية بل كان راهبًا، وعايش اليهود ودرس توراتهم، وفي النهاية دخل الإسلام مخلِّفًا كلَّ هذا وراءه.

* * *

فإذا ما انتقلنا إلى عرق آخر من أعراق البشر وجدنا الروم أو إن شئتَ فقل وجدنا الأوروبيين. لدينَا مثالان وهما ليسا المثالين الوحيدين: الأزرق الرومي، وصهيب الرومي.

كان الأزرق غلامًا للحارث بن كلدة الثقفي، وقد تزوَّج سمية أم عمار بن ياسر، والأزرق الرومي هو ممن خرج مع عبيد أهل الطائف يوم حاصرها النبي ﷺ وفيهم أبو بكْرة فأعتقهم رسول الله ﷺ فولدت سميّة للأزرق سلمة بن الأزرق فهو أخو عمّار لأمّه، ثم ادَّعى ولد سلمة أنهم عرب من غسّان وأنهم حُلفاء لبني أمية. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢١٧] وادعوا أحيانًا أنهم من بني تغلب [المصدر نفسه ص٢١٨].

توجه بنو الأزرق بعد ذلك إلى اليمن محاولة منهم للتبرؤ من نسبهم الرومي؛ إذ قال لهم أهل اليمن: أنتم لا يُغسل عنكم اسم الروم إلا أنْ تدَّعوا أنكم من غسّان فانتموا إلى غسَّان بعد. ومن مثل هذه الأخبار نعرف لماذا ضاعت الأصول المسيحية واليهودية والعرقية لمن دخلوا الإسلام.

أما صهيب فكان أبوه سنان أو عمّه عاملاً لكسرى على الأبلَّة وكانت منازلهم بأرض الموصل. ويقال كانوا فى قرية على شط الفرات ممّا يلى الجزيرة والموصل فأغارت الروم على تلك الناحية فسبت صهيبًا وهو غلام صغير. فقال عمّه: أنشدُ الله الغلام النَّمرى دجّ وأهلى بالثَّنى (اسم قرية) فنشأ صهيب فى الروم فصار ألْكن فابتاعته قبيلة كَلب منهم، ثم وصلت به إلى مكّة فاشتراه عبد الله بن جدعان التيْمى منهم فأعتقه فأقام معه بمكة إلى أن مات ـ أى ابن جدعان ـ وبعث الله نبيّه ﷺ لما أراد الله به الكرامة والمنَّ عليه بالإسلام. هذه رواية، أما أهل صهيب ووالده فيقولون: بل هرب من الروم عندما بلغ، وقدم مكة فحالف عبد الله بن جُدعان وأقام معه. وكان صهيب رجلاً أحمر شديد الحمرة ليس بالطويل ولا بالقصير، وكان كثير شعر الرأس.

وقالوا: صهيب من العرب من النمر بن قاسط وهذه رواية ثالثة، لكن النبى ﷺ حسم كل هذا بقوله: «صهيب سابق الروم» كما غلب على صهيب اسم صهيب الرومى.

وقد لقى صهيب عمار بن ياسر عند باب الأرقم بن أبى الأرقم، فدخلا على النبى ﷺ الذى شرح لهما الإسلام فأسلما، وكان صهيب من المستضعفين الذين يُعذّبون فى مكة، فلما أراد الهجرة إلى المدينة قال له أهل مكة: أتيتنا ها هنا صَعْلوكًا حقيرًا فكثُر مالك عندنا، وبلغتَ ما بلغت ثم تنطلق بنفسك ومالك؟ والله لا يكون ذلك.

قال صهيب: أرأيتم إن تركتُ مالى، تُخْلون أنتم سبيلى؟!

قال أهل مكة: نعم.

فترك لهم ماله أجمع، فبلغ ذلك النبى فقال: «رَبِح صُهيب... رَبِح صُهيب».

وكان من المقرر أن يكون صهيب مصاحبًا لرسول الله ﷺ فى الهجرة إلى المدينة مع أبى بكر الصديق لكن الظروف حالت دون ذلك. [الطبقات الكبرى، جـ٢، ص٢٠٢ ـ ٢٠٤].

وكان صهيب ـ تحوّطًا منه ـ يرفض الرواية عن النبى ﷺ أى رفض أن يكون محدِّثًا، وإنما كان يروى تفاصيل الغزوات التى شارك فيها مع النبى ﷺ.

وصهيب الرومى هو الذى أمَّ المسلمين بعد وفاة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بناء على توصية من عمر قبل مماته . وصهيب أيضًا هو الذى صلّى على عمر بعد مماته . وتوفى صهيب سنة ٣٨هـ بالمدينة وهو ابن سبعين سنة . [الطبقات الكبرى ، جـ٢ ، ص ٢٠٧] .

بقى أن نذكر أنَّه لم يحدث أبدًا ارتداد جماعى عن الإسلام سواء فى مطلع الألفية الأولى أو الألفية الثانية التى نعيشها الآن ، بل إنه لم يحدث أبدًا وطوال مراحل التاريخ حركة ردَّة أو حركة تحوّل جماعى أو حتى شبه جماعى عن الإسلام . والحركة المشهورة التى سمّيت اصطلاحًا بحروب الردَّة بعد وفاة النبى ﷺ لم تكن أبدًا حركة ردّة بالمعنى الدينى للكلمة ، فلم يشرع اليهود الذين أسلموا بالعودة لليهودية ، ولم يشرع المسيحيون الذين أسلموا بالعودة للمسيحية ، ولم يُعد العرب تماثيل اللاَّت والعزَّى ويعوق ونسًرا . . . إلخ ، وإنما كانت هذه الحركة فى الأساس حركة خروج على الدولة ورغبة فى إقامة كيانات قبلية بعيدة عن الدولة الأم ، كما كانت حركة لها أبعادها المالية ، والأدلة واضحة تمام الوضوح على كلّ هذا من كتب التراث التى تناولت هذه الحروب . فأبو بكر الصدِّيق يقول : «والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدّونه لرسول الله لقاتلتهم عليه» . المسألة إذًا مسألة «عقالَ» وليست إيمانًا بالوحدانية وشهادة لنبى الله ﷺ بالنبوة .

بل وأكثر من هذا ، لقد قال أحد هؤلاء الخارجين على الدولة (المرتدين) ساخرًا : «أنُعطى الزكاة لابن أبى قحافة ؟ !» الرجل إذًا ـ جازاه الله ـ يريد أن يدفع الزكاة ، لكن ليس لابن أبى قحافة وإنما لحاكم آخر من قبيلة أقوى أو من عشيرة أقوى ، ربما كانت عشيرة هذا المعترض [راجع الفصل الخاص بحروب الرِّدَّة فى كتاب فتوح البلدان] . لم يَرِدْ إذًا فى أى كتاب تراثى أنَّ هؤلاء المتمردين بعد وفاة النبى ﷺ قد تركوا الإسلام وعَادوا لما كانوا عليه من عقائد .

ومسيرة التاريخ تؤكد العكس تمامًا وهو التحوّل الجماعى إلى الإسلام ، أو الاقتراب الجماعى من عقائده . تحوّل المغول إلى الإسلام تحولاً جماعيًا وهم فى ذروة انتصارهم ، بعد أن أسقطوا بغداد ليجدوا أنفسهم وبسرعة عجيبة يتحولون للإسلام عقب أول هزيمة حاقت بهم على يد مماليك مصر .

وكانت حركة مارتن لوثر (الحركة البروتستانتية) اقترابًا فى بعض جوانبها من الإسلام. والمسيحية الأصولية الآن تقترب كثيراً من عقائد المسلمين وإن ابتعدت عنهم سياسيًا.

والحركة الاستعمارية الأوروبية للعالم الإسلامى لم تُسفر عن ارتداد جماعى عن الإسلام ولا حتى ارتداد فردى يُعوَّل عليه ويدخل فى إحصاء حقيقى. كل ما استطاعت هذه الحركة الاستعمارية أن تفعله هى أنها هزت الحياة الاجتماعية من الداخل، وتحاول الولايات المتحدة فى هذه الألفية حَجْب العلوم البحتة والتطبيقية عن المسلمين، سواء فى بلادهم (بلاد المسلمين) أو خارج بلادهم، فهى تريد أن تَشْغلهم تمامًا بدراسة الشعر والفن والأدب، ورغم أهمية هذه المجالات لأىّ حضارة إلا أنها تُمثِّل جناحًا واحداً للطائر، وهل يطيرُ الطائر بجناح واحد؟ كما تريد أن تشغلهم بالجوانب الطقسية فى الإسلام دون مراعاة روحه الحافزة على الكد لتطوير العلوم والسَّعى فى طلب الرزق والاستقلال الاقتصادى والالتزام بروح الفضائل.

وهل للشريعة ـ أى شريعة ـ قيمة إذا نُزعت منها روحها؟!.

كان الخطاب الدينى الذى يريد الحثّ على تقديم الزكاة واعتبار مانعها كافراً، وراء المبالغة فى جُرْم هؤلاء الذين خرجوا على الدولة بعد وفاة النبى ﷺ إنّه جُرْم حقيقى، لكن المبالغة وإغفال التفاصيل لهما مضارهما أيضًا فالتناول المتوازن هو المطلوب دائمًا.

وهذا الكتاب الذى بين يدى القارئ وإن كان يتناول صحابة رسول الله ﷺ ذوى الأصول المسيحية واليهودية، وذوى الأصول العرقية الفارسية والرومية (الأوروبية) والإفريقية ليثبت عالمية الإسلام منذ بدايته الباكرة، إلاَّ أنَّه أيضًا دراسة جادة فى إستراتيجية الدَّعوة بتركيزه على العمليات الفكرية والإيمانية للتحول من اليهودية إلى الإسلام وللتحول من المسيحية إلى الإسلام، كما ركزنا على أنَّ الإسلام هو دين المستقبل باعتباره يضُم بين جنبيه فحوى الرسالتين السابقتين عليه.

وقد قسمت هذا الكتاب إلى قسمين أو بابين، كرَّست الأول منهما لسلمان الفارسى ذى الحياة الخصبة؛ إذ اعتنق سلمان كل الديانات وعايشها وخبرها واختار منها ـ فى نهاية المطاف ـ الدين الإسلامى، مما أتاح لنا فرصة المقارنة والتحليل.

أما القسم الثانى أو الباب الثانى فجعلته للصحابة ذوى الأصول اليهودية وهم كثيرون، واعتمدنا مصادر متأخرة زمنًا كتبها يهود أسلموا ودعوا اليهود إلى التحول الجماعى للإسلام، لتوضيح العملية الفكرية والإيمانية الكامنة وراء التحوّل إلى الإسلام.

وأشرنا إشارات عابرة للظروف الاجتماعية والسياسية المؤدية للتحوّل من دين إلى دين.

أمّا هذه المقدمة العامة التى يُطالعها القارئ الآن، فكان من مهامها سدّ الثغرات فى هذين البابين؛ إذ أشرتُ فيها بشىء من التفصيل إلى الأعراق (الأجناس) المختلفة للصحابة الذين أحاطوا بالداعى الرسول ﷺ منذ بداية الدعوة لتوضيح عالمية الإسلام، فأشرنا لصحابة أفارقة وصحابة روم.. إلخ.

وقد أعقبنا كلّ فصل من فصول الباب الأول بتسابيح وابتهالات مستوحاة من الأفكار التى تناولها كل فصل من هذه الفصول، وتلك التسابيح والابتهالات موجّهة فى الأساس للذين لا يريدون على دينهم برهانًا أو دليلا عقليًا وإنما شغّهم الوجد حبًا فى الإسلام ورسوله ﷺ فأغناهم عمّا سواهما.

كما أعقبنا ذلك ببحوث موجزة كتبها علماء اللاهوت فى الأديان المختلفة حتى لا تكون المصطلحات الدينية خواء أو مجرَّد ألفاظ خالية من المضمون.

وقد تعمّدت أن تكون هذه المباحث الموجزة التى تمّ إلحاقها بكل فصل من فصول الباب الأول بأقلام علماء لاهوت من أصحاب الديانات التى يتحدثون عنها، وذلك فيما عدا الزرادشتية (المجوسية) فقد اعتمدنا لها مبحثًا كتبه المستشرق الأشهر زينر، ومما يذكر أنَّ المجوسية فيما يعتبرها كثيرون من المسيحيين قدَّمت البشارات بقدوم المسيح عليه السلام. لم يكن معقولاً أن نقول: إن سلمان كان مجوسيًا ثم مسيحيًا دون أن نعرف شيئًا عن مجوسيته ومسيحيته.

وننبه القارئ إلى أنَّ أرقام الصفحات التى أشرنا إليها بالنسبة للسيرة النبوية لابن هشام هى الخاصة بطبعة دار الجيل البيروتية. أما بالنسبة للطبقات الكبرى لابن سعد فطبعة دار الفكر البيروتية.

وكـان من رأى الأخ الأسـتـاذ عـادل المعلّم ـ وهو نـاشـر مـثـقف يُوضـع رأيه مـوضـع الحسبـان ـ ألا يكون الكتاب كـبير الحجم جدّاً، حـتى يكون مقروءاً وفى مـتناول كلّ القـراء، فوجدتُ هذا أمراً معقـولاً ؛ لذا يجد كل القراء أننى عـالجتُ مـادته بإيجاز غير مُخلٍّ، وبأسلوب مقروء مفهوم.

وعلى الله قصد السبيل .

د.عبدالرحمن عبد الله الشيخ

الباب الأول

سَلمان الفارسى

الصّحابى الجليل وعالم مقارنة الأديان

بين الأفِستَا والتوراة

والأناجيل والقرآن

- مقدمة الباب.
- الفصل الأول: دين سلمان بالمولد؛ المجوسية دين ضاعت شريعته.
- الفصل الثانى: سلمان فى مرحلته المسيحية؛ سلمان فى صحبة الرهبان.
- الفصل الثالث: سلمان واليهود.
- الفصل الرابع: الاختيار الأخير؛ سلمان فى رحاب الإسلام، وسلمان وتراث الرؤى.
- الفصل الخامس: براءة سلمان؛ حوارات عبّر الزمان وتسابيح النجاة.

مقدمة الباب

- أهمية إسلام سلمان
- الفرس والعرب
- محاولات تعميق التفرقة بين الفرس والعرب
- الفرس فى اليمن
- الأبناء ودورهم فى القضاء على حركة الأسود العنسى
- من مصادر البحث.

سلمان الفارسى ﵁ صحابى جليل لعب دوراً مهمًا فى بعض غزوات النبى ﷺ ، ونحن نقول فارسيًا تجاوزاً وعلى وفق ما جرت عليه الألسن ، لكن سلمان ﵁ تعرَّب وصحب الرسول ﷺ فأصبح عربىَّ اللِّسان عربىَّ الهوى قارئًا للقرآن فقيهًا .

كان رقيقًا فحرره الإسلام ، وكان تائهًا بين كل الأديان السماوية فرست سفينته على برِّ الإسلام . سلمان إذًا حلقة وصل بين العرب والفرس ، فالتناقض بينهما ليس حتميًا كما يجرى التخطيط فى هذا القرن الواحد والعشرين .

وتاريخ شبه الجزيرة العربية حتى قبل الإسلام تلاحم فيه العرب والفرس ولم يكن الانفصال بينهما حاداً .

المطالع لكتب السيرة النبوية ، وأهمها السيرة التى كتبها ابن إسحاق (ت ١٥٢هـ) ولخَّصها وهذَّبها ابن هشام (ت ٢١٣هـ) يلاحظ أنَّ الفُرس تفاعلوا مع التاريخ العربى قبل الإسلام وأثناء الدعوة إليه ، تفاعلاً حقيقيًا ، وتعرَّبوا تعرّبًا حقيقيًا فكانوا ـ بالفعل ـ جزءاً من عرب شبه الجزيرة العربية .

لم يبدأ - إذًا - تفاعل الفُرس مع العرب والإسلام منذ حركة الفتوح الإسلامية التى طالت العراق وما وراءه، وإنما كان للفرس العرب تاريخ أعمق من هذا بكثير داخل شبه الجزيرة العربيّة نفسها، بل أصبحوا بالفعل من خيوط النسيج العربى.

ولتوضيح هذا نعود لابن هشام فنجده يحدثنا بعد عرضه لشيوع اليهوديَّة فى اليمن شيوعًا كبيرًا، وانتشار المسيحية فى نجران وما حولها، وما قام به ذو نواس اليمنى اليهودى من اضطهاد المسيحيين، يحدِّثنا عن دخول الأحباش لليمن بتحريض من الرومان لحماية المسيحيين الذين اشتكوا الاضطهاد وسوء المعاملة ولإجبار يهود اليمن على التحوّل إلى المسيحية، مما دفع سيف بن ذى يزن الحمْيرى (من حمْير / بكسر الحاء وتسكين الميم) إلى اللجوء إلى قيصر طالبًا إخراج الأحباش على أن يُصبح قيصر حاكمًا لليمن بدلاً من الأحباش، إلاّ أنّ قيصر رفض تقديم المساعدة هذه المرَّة بحجة أنّ اليمن منطقة بعيدة عن مُلكه (وربما أيضًا لم يُرد محاربة الأحباش وهم على دينه)؛ ومن هنا توجَّه ابن ذى يزن إلى فارس طالبًا العون، فلم تخذُلْه فارس، ومن هنا بدأ تاريخ الفرس العرب أو العرب الفرس الطويل فى شبه الجزيرة العربية، وكان لهم دورٌ مهم فى نشر الإسلام والتفاعل معه. ولأنّ هذه المرحلة تمثل جزءًا محوريًا من بحثنا هذا نعرضها بالتفصيل على نحو ما أوردها ابن هشام مع تعليقات شارحة. [ابن هشام، طبعة دار الجيل، جـ١، ص١٨٢ وما بعدها].

خرج سيف بن ذى يزن من اليمن حتى وصل إلى النعمان بن المنذر (والى) كسرى أنو شروان على الحيرة وما يليها من أرض العراق (والنعمان بن المنذر من أصول يمنية) فشكا إليه أمر الحبشة. . . فأدخله معه على كسرى. . فقال سيف بن ذى يزن لكسرى: أيها الملك غَلَبَتْنا على بلادنا الأغربة. فقال له كسرى: أىُّ أغربة: الحبشة أم السند؟ فقال سيف: بل الحبشة، فجئتك لتنصرنى، ويكون مُلك بلادي لك. قال كسرى: بَعُدت بلادك مع قلة خيرها، فلم أكن لأورِّط جيشًا من فارس بأرض العرب. لا حاجةَ لى بذلك، ثم أجازه بعشرة آلاف درهم واف وكساه كسوة حسنة. فلمَّا خرج سيف من عنده نثر الوَرِق (الفضة) التى أعطاه إيَّاها كسرى على الناس. فاستدعاه كسرى واستفسر منه عَمَّا فعله فقال: وما أصنع بهذا؟ ما جبال أرضى (بلدى) إلاّ ذهب وفضة. فجمع كسرى مرازبته (وزراءه وذوى المكانة فى دولته)، فقال له واحد منهم: إنَّ فى سجونك رجالاً قد حبستهم للقتل، فلو أنَّك بعثتهم

معه، فإن يهلكوا كان ذلك الذى أردتَ بهم، وإن ظفروا كان مُلْكًا ازْدَدْته، فأمر كسرى بإرسال من كانوا فى سجونه (٨٠٠ رجل) مع سيف بن ذى يزن، وجعل على رأسهم رجلاً يقال له وَهْرَز فوصلوا إلى ساحل عدن حيث جمع سيف إلى قوَّات وَهْرَز من استطاع من قومه، وحارب سيف مع وَهْرَز (قال له: رِجْلى مع رِجْلك حتى نموت جميعًا أو نظفر جميعًا).

وخرج مسروق بن أبرهة لمواجهة هذا الجيش إلاَّ أنَّ وَهْرَز رماه فأرداه قتيلاً، فحمل الفُرس على جيشه وهزمه ودخل صنعاء (أو أوال بفتح الهمزة وكسرها).

وأقام هؤلاء فى اليمن وتَعرَّبوا أو تيمَّنوا، وظلَّ أبناؤهم فى اليمن وشبه الجزيرة العربية حتى ظهور الإسلام، وبعده ظلَّ نسلهم يمنيًا عربيًا حتى الآن. ويُعدد ابن هشام أمراء الفرس فى اليمن حتى إسلام آخرهم (نقول الفرس لكن الحقيقة أنهم أصبحوا الآن عربًا) منهم:

١- وَهْرَز (فاتح صنعاء).

٢- المرزُبان بن وهرز.

٣- التِّينجان بن المرزبان بن هرمز.

٤- ابن التينجان (عزله كسرى).

٥- باذان (أسلم وأسلم من معه من الأبناء).

وعندما أتى وفد الفرس (الفُرس العرب أو الأبناء) إلى رسول الله ﷺ قالوا له:

- «إلى مَنْ نحن يا رسول الله؟».

- فقال النبى ﷺ: «أنتم منَّا وإلينا أهل البيت».

هنا نتوقَّف لتقرأ تعليق ابن هشام:

« فبلغنى عن الزهرى أنّه قال: فمن ثمَّ قال رسول الله ﷺ: سلمان منّا أهل البيت».

وحتّى بعد ظهور الإسلام، لعب الأبناء (الفرس الذين تعرَّبوا) فى اليمن دورًا حاسمًا - لم يُلقَ عليه الضوء الكافى - فى القضاء على الأنبياء الكذَّابين الذين ادَّعوا النبوَّة حتى أثناء حياة سيدنا محمد ﷺ، فقد كان دور اليمنيين من أصول فارسيّة هو

الدور الحاسم فى القضاء على حركة الأسود العنسى الكذاب بعد أن كان أمره قد علا أو على حد تعبير المؤرخ ابن مسكويه بعد أن أصبح أمره «يعلو ويستطير استطارةَ الحريق» فلما فزع الأبناء (الفرس اليمنيون أو اليمنيون من أصول فارسية) إلى النبى ﷺ تلقَّوا توجيهات بأن «ينهضوا فى الحرب والعمل فى الأسود (العنسى) إمَّا غيلة وإمَّا مصادمة» فقتلوه، وأقاموا الأذان، وهتفوا: «نشهد أنَّ محمدًا رسول الله وأنَّ عَبْهلة كذاب». وكان من بين أسمائه عبهلة. [ابن مسكويه، تجارب الأمم، جـ١، ص١٧٨].

ونكتفى بهذا القدر لتأكيد ما ذكرناه عن ضرورة تلاحم الفرس والعرب، فالإسلام يجمعهم جميعًا، لننتقل إلى عنصر أهم، هو جوهر هذا الكتاب ولُحمته، وهو أننا عندما نقول أسلم سلمان، فإنَّ لإسلامه معنى كبيرًا لأن سلمان كان قَطْنًا للنار فى المجوسية ثم أصبح راهبًا فى المسيحية، ثم عمل لفترة عند يهود بنى قريظة وعند امرأة من المدينة، لكنه فى النهاية وجد أنه إذا أسلم ما فقد خيرًا وجَدَه فى الأديان السابقة، وإنما وجد تصحيحًا وتصويبًا وتوحيدًا خالصًا وَعَدْلاً.

سلمان يقول لكم بعد رحلته بين الأديان، إنه استراح إلى الإسلام، وإن كان حال المسلمين بعد ذلك فى أىِّ وقت من الأوقات لا يَسُر؛ فذلكم لأنهم لا يعيشون كمسلمين حقّا، أو ذلك لأنهم سطّحوا الإسلام وجعلوه شكلاً بلا مضمون، فتصويب الإسلام وإعادته لصورته النقية الأصلية هما الحل الوحيد، والله فعَّال لما يريد.

ورغم جِدَّة الأفكار التى يحويها كتابى هذا فإنَّ مصادره معروفة متداولة بين أيدى القراء والباحثين ولم أقُم إلاَّ بالتحليل والتعليل وإعادة ترتيب الأوراق. اعتمدت على السيرة النبوية لابن هشام [طبعة دار الجيل]، والطبقات الكبرى لابن سعد [طبعة دار الفكر البيروتية]. ولم أشأ الرجوع لمراجع تراثية لاحقة. وعندما أردتُ إكمال الرواية وشرحها رجعتُ لمراجع عن الأديان التى سبقت الإسلام والتى اعتنقها سلمان. مبحث المستشرق زينر عن الزرادشتية وقد ترجمته كاملا وجعلته ملحقًا للفصل الأول. ولخَّصتُ مبحث اللاهوتى المسيحى ج. ديفز وجعلتُه ملحقًا للفصل الثانى، ورجعت أيضًا لمعرفة بعض تفاصيل المسيحية فى الشام والعراق وفارس فى الفترة التى عاش فيها

سلمان قبل الإسلام لكتاب الدولة البيزنطية للدكتور السيد الباز العريني وهو كتاب مهم، وكتاب الدولة الساسانية لكريستنسن الذى ترجمهُ د. يحيى الخشاب وراجعه د. عبد الوهاب عزام، بالإضافة للموسوعة الكتابية التى ألَّفها مسيحيون مصريون. وعن معايشة سلمان لليهود قبل أن يُسلم خصَّصت له ملحقًا عن اليهود والأغيار (غير اليهود) من تأليف ألان أنترمان. وأخيرًا خصصتُ فصلاً لإسلام سلمان ودوره المهم.

***

الفصل الأول

دين سَلمان بالمولد
المجـوسيـة (دينُ زرادشت)
دين ضـاعت شـريعتـه

- رتبة سلمان رضي الله عنه في المجوسية
- التوحيد في المجوسية
- على بن أبى طالب ورأيه فى المجوسية
- تدهور الزرادشتية ودخول البدع
- دخول عبادة النار
- ضياع الشريعة الزرادشتية
- رأى الشهرستانى
- سلمان ييأس من المجوسية ويشمئز من عبادة النيران
- تبادل التأثير والتأثر بين الزرادشتية والمسيحية
- أمثلة على ضياع الشريعة فى الديانة المجوسية (الزرادشتية)
- سلمان مع الرهبان
- تسابيح
- ملحق الفصل: ترجمة البحث الذى كتبه زينر عن الزرادشتية.

كان سلْمان رضي الله عنه يعتقد فى الديانة المجوسية (الزرادشتية) وكان مجتهداً فيها متعمقًا حتى أنّه وصل فيها إلى رُتبة دينية عالية أو بتعبير آخر أصبح رجل دين مجوسى عالى الرتبة أو على حد تعبيره «واجتهدتُ فى المجوسية حتى كنتُ قَطْن النار التى يوقدونها لا يتركونها تَخْبو ساعة». [ابن هشام، جـ٢، ص٤١].

والمجوسيَّة فى أصلها من أديان التوحيد الخالص، وقد قال مسلمون كثيرون بنبوَّة زرادشت [الفصل بين الملل لابن حزم الظاهرى، جـ١، ص١٣٤].

أما عدم ورود ذكر هذا النبى (زرادشت) فى القرآن الكريم، فيبرّره ابن حزم الظاهرى بالآيتين القرآنيتين الكريمتين:

١ـ (وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ) [فاطر / ٢٤].

٢ـ (وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ) [النساء/ ١٦٤].

ومن الذين قالوا إنَّ المجوس (الزرادشت) أهل كتاب أى أن لهم نبيًا تلقَّى الوحىَ من الله سبحانه: على بن أبى طالب رضي الله عنه، وسعيد بن المسيِّب (ت ٩٣هـ تقريبًا) وغيرهما [ابن حزم، جـ١، ص١٣٥].

لكن المجوسية (الزرادشتية) رغم أنَّها فى الأصل ديانة توحيد خالص، حَصَرت نفسها فأصبحت كاليهودية ديانةً خاصةً بشعب بعيْنه أو كانت أقرب ما تكون إلى ذلك، فمن القرن الثالث إلى القرن الخامس للميلاد كانت الزرادشتيَّة (المجوسية) هى ديانة الإمبراطورية الفارسية لكنها كانت قد وَهَنَت قبل اجتياح المسلمين للإمبراطورية الفارسية وأصبحت ديانة الأقلية بالكاد [Zaehner:The Concise Ency. of living faiths,London, 1959,P.209].

كانت المجوسية (الزرادشتية) إذًا قد تدهورت وتلبَّستها الخرافات والبدع وابتعدت عن التوحيد الخالص الذى كان هو جوهرها الأساسى، فهاجرت القلَّة التى تمسّكت

بالأصول الدينية خارج بلاد فارس، خاصّة الهند، وكوّنوا مجتمعًا زرادشتيًا يحظى بالرخاء والاحترام [Zaehner,P.209].

أمّا سلمان الفارسي ففضل ترك المجوسية التي اعتراها الفساد ليهاجر غربًا، ولأنه كان أحد رجال الدين المجوس، فقد فضّل أن يبحث عن دين جديد عالمي، فربما لم يَرُق له أن تكون المجوسية دين شعب بعينه وأن يكون الله إلهًا لشعب بعينه دون الشعوب الأخرى. وربما كان أهم سبب لهجر سلمان للمجوسية هو أنّها دين ضاعت شريعته، كيف؟ يُحدثنا ابن حزم الظاهرى (ت ٤٥٦هـ) وهو باحث متبحّر في تاريخ الأديان أنّ كتاب المجوس وشريعتهم إنما كانا طول فترة دولتهم عند المؤبَذْ (أو الموبذان وهو حافظ الشريعة وقاضى القضاة) وعند ثلاثة وعشرين هربذًا (والهربذ مفرد هرابذة وهو عالم الدين المجوسى) لكلّ هربذ سفْر قد أفرد به وحده لا يشاركه فيه غيره من الهرابذة ولا من غيرهم (ربما كان كل هربذ منهم متخصصًا في أحد جوانب الشريعة لا يعدوها) ولا يُباح بشيء من ذلك لأحد سواهم، لكن الإسكندر الأكبر أحْرق من بين ما أحرق جانبًا كبيرًا من كتبهم. وما دامتْ النصوص محدودة العدد وما دام اقتناؤها كان مقتصرًا على عدد محدود منهم، فمن الطبيعى أن يضيع جزء كبير من شريعتهم خاصّةً أنّ إطلاع العامّة على نصوص الشريعة كان ممنوعًا وإنما كانوا يتلقّونها ـ من خلال العظات شفاهة من رجال دينهم ـ ويقول رجال الدين المجوسى! إنه قد ضاع أكثر من ثُلُثَيْ كتابهم الحاوى شريعتهم ويُقال له الأفستا ولم يبق منه إلاّ أقل من الثلث. ولم يكن تعلّم فقه المجوسية مُتاحًا للعامة وإنما لا يكون «إلاّ لقومٍ خصائص». [ابن حزم، جـ١، ص١٢٧ طبعة دار الكتب العلمية بيروت]

لذلك وجدنا الشهرستانى (ت ٥٤٨هـ) العالم المشهور في دراسة الأديان يضعُ المجوسية (الزرادشتية) في القسم الذى جعل له عنوانًا هو (مَنْ له شُبْهة كتاب) وهو الباب الثالث من كتابه الملل والنحل [طبعة دار المعرفة، بيروت]

ومع كل هذا فقد بقيت في المجوسية (الزرادشتية) بقايا تُنبئ عن أنّها كانت في الأصل دينًا سماويًا ينادى بالتوحيد والعدالة الاجتماعية، ومن ذلك:

ـ قول زرادشت: إنّ للعالم قوّة إلهية وهى المدبِّرة لجميع ما في العالم.

ـ الدين أفضل من الكلام؛ إذ العمل أفضل من القول.

ـ لما بلغ زرادشت مبلغ الكمال بأربعين سنة . . . أكمل فيها معرفة شرائع دين الله وفرائضه وسُنَنه أمره الله بالمسير إلى كشتاسب الملك . . . وانتهى الأمر بإيمان كشتاسب «وأمر بجمع علماء أهل زمانه من بابل وإيران . . . وأمرهم بمحاورة زرادشت فناظروه فاعترفوا له بالفَضيلة» .

ـ لا بد من يوم يقوم فيه الناس «للحساب» بعد الموت .

ـ ومن المجوس سيسان وهو من رستاق نيسابور فأعلن رفضه لعبادة النيران (وكان عبَّاد النيران يُسمون بالزمزمية) وحرَّم الأمّهات والبنات والأخوات كما حرّم الخمر وأكل الميْتَة . [الشهرستانى ، جـ١ ، ص ص ٢٣٨ ـ ٢٤٤]

لكن المجوسية التى كانت فى الأساس من أديان التوحيد والعدل الاجتماعى والدعوة للعمل (العمل خير من الكلام) دخلتها الوثنية وأفسدها نظام الحكم أكثر فأكثر فاستبد الدهاقون (أصحاب الأراضى الشاسعة) ويلاحظ أنَّ والد سلمان الفارسى كان دهقانًا من الدهاقين [ابن هشام ، جـ٢ ، ص٤١] .

ومن مظاهر الخروج عن أصل الدين . وتدهور المجوسية واختلاطها اختلاطًا صارخًا بالوثنية ما نذكره بإيجاز فيما يلى :

ـ كان المجوس يتوجَّهون فى صلاتهم ناحية الشمس (لاحظ أنَّ المسيحيين الأرثوذكس والكاثوليك يتوجَّهون فى صلاتهم ناحية الشرق باعتباره مطلع النور) وشيئًا فشيئًا عبدوا (الشىء) ونسوْا ربَّ الشىء .

ـ كانت النار رمزًا للنور فتركوا المعنى (النور) وعبدوا الشىء (النار) .

ـ عبد بعضهم الشيطان (أهريمن) أو إبليس باعتبار أنَّ الله (النور) خَيْر خالص لا يأتى منه شر ، وبالتالى فالأولى بالتقرب إليه اتِّقاء لشرِّه هو الشيطان (أهريمن) .

* * *

لقد اعترى المجوسية (الزرادشتية) ـ إذًا ـ ما اعترى دين إبراهيم عليه السلام ، لقد فسدت بمرور الوقت ، وكانت فى حاجة إلى مصلح دينى يعيدها إلى جادَّة الطريق ، لكن ذلك لم يكن سهلاً ، ففى كثيرٍ من الحالات يعُم الفساد فى مؤسسة من

المؤسسات، ويجد من هم داخل هذه المؤسسة أنَّ مصلحتهم تقتضى إبقاء الحال كما هو عليه؛ لذا لا يكون الإصلاح إلاَّ فرضًا وقَسْرًا ومن خارج المؤسَّسة نفسها. يقول سلمان معبِّرًا عن يأسه من فساد الدين المجوسي والحياة الاجتماعية: «كُنت رجلاً فارسيًا من أهل أصبهان من أهل قرية يُقال لها جَيٌّ وكان أبي دهقان قريته، وكُنتُ أحبَّ خلق الله إليه، لم يزل حُبُّه إيَّاى حتى حبسنى فى بيته كما تُحبس الجارية. . . وكانت لأبى ضَيْعة عظيمة. . .» [ابن هشام، جـ٢، ص٤١].

إنَّ هذا النص رغم براءته فسلمان يتحدَّث عن حُب أبيه له، يبين لنا مدى البطالة التى كان يغطّ فيها أبناء الأثرياء، كما يُبيّن لنا على نحوٍ ما حال الدهاقين (مالكى زمام القرى).

وكان فى النصوص الدينية المجوسية كما هو الحال فى النصوص اليهودية والمسيحية إشارات إلى نبى آخر الزمان، ولاشكَّ أنَّ هذه النصوص قد استهوت عالم الدين المجوسى ـ فى ذلك الوقت ـ سلمان الفارسى. يقول الشهرستانى: «ومما أخبر به زرادشت فى كتاب «زند أوڤستا» أنَّه سيظهر فى آخر الزمان رجل اسمه أشيزريكا ومعناه الرجل العالم، يُزّين العالم بالدين والعدل، ثم يظهر فى زمانه بتياره فيوقع الآفة فى أمره وملكه عشرين سنة، ثم يظهر بعد ذلك أشيزريكا على أهل العالم ويُحيى العدل ويُميت الجور ويردُ السنن المغيّرة إلى أوضاعها الأولى وتنقاد له الملوك وتتيسَّر له الأمور وينصر الدين والحق ويحصل فى زمانه الأمن والدعة وسكون الفتن وزوال المحن. [الملل والنحل، جـ١، ص٢٣٩]. إنَّ مثل هذه النصوص لابد أن تَسْتهوى أىَّ رجل دين، وكان سلمان قد وصل فى سلك الكهنوت المجوسى إلى مرتبة كبيرة.

لم تسترح نفسُ سلمان ـ رغم ما كان ينعمُ به من رغد العيش وحب الأب ـ إلى المجوسية التى حوَّلها أتباعها إلى ديانة تعدّد فيها الأرباب يعبدونها لتقرِّبهم إلى الله (أهورا مزدا) وانتهى بها الأمر إلى ديانة ثَنْوية أى تقول بإلهين، وقد انتقلت هذه الفكرة إلى يهودية تلك الأيام. يقول الباحث زينَر فى موسوعة الأديان الحيّة: «لقد أثَّرت الزرادشتية بعمق فى العقيدة اليهودية كما ظهرت فى وثائق البحر الميِّت . . . إذ وجدنا فى اليهودية نوعًا من الثَّنْويّة يكاد يكون مطابقًا على نحو ما لفكر الزرادشتيين (المجوس) المتأخِّرين. ففى وَثائق البحر الميت أنَّ الله خلق الإنسان ليُسيطر على العالم

وجعل له روحين هما روح الحق truth وروح الضلال أو الخطأ error ، ففى مسكن النور توجد أصول الحق ، ومن منبع الظلام توجد أصول الخطأ أو الضلال . . . ويفعل مَلَك angel الظلام يكون ضلال كل أبناء الصلاح . . . لكن رب إسرائيل ومَلَك الحق angel of truth ساعدا كلَّ أبناء النور . . . » [pp.212-213] .

وفى الزرادشتية (المجوسية) فكرة الروح القُدُس أيضًا ، وفكرة البعث وفكرة الثواب والعقاب ، وأهم ما يميزها فكرة حرية الإرادة البشريّة ومسئولية الإنسان عن عمله ، وفكرة عَدْل الله حيث وقف زرادشت بحسم إلى جانب حرية الإرادة البشرية بشكل مطلق ، وإن تسربت أفكار جبرية بعد ذلك ليست من صُلْب الزرادشتية الأصولية التى يوضحها النص التالى : "تنقسم الأشياء فى هذا العالم إلى خمسة وعشرين قسمًا : خمسة من خلال القَدَر ، وخمسة من خلال العمل ، وخمسة من خلال الطبيعة ، وخمسة من خلال الشخصية ، وخمسة من خلال الوراثة . فالحياة والزوجة والأطفال والسلطة والثروة قدر . والعضوية فى إحدى طبقات رجال الدين والمقاتلين (الجند) والمزارعين والفضيلة والرذيلة عمل ، ومباشرة الزوجة وإرضاء الحاجات الغريزية والأكل والشرب والمشى والنوم طبيعة ، والصداقة والاحترام والكرم والصلاح والتواضع شخصية ، والجسم والمكانة والفهم والذكاء والقوة **وراثة** . [Zaehner,p.220]

لكن هذه الفكرة ـ كما سبق القول ـ قد جرى مَسْخها ونَسْخها بمثل هذا النص «عندما يساعد القدر الرجل الشِّرير الكسول ذا العقل غير المستقيم فإن كسله يُصبح كالطاقة ويُصبح عدم استقامته حكمة ويُصبح شرّه كالخير . وعندما يُعاند القدرُ الحكيمَ المهذَّب ذا العقل الراجح تنقلب حكمته إلى بلاهة وغباء وينقلب أدبه إلى سَفَه ولا يُجدى علمه وأدبه ورجولته» . [Zaehner,p.220] .

ونكتفى لإثبات أنّ الشريعة الزرادشتية قد مُسِخَت ودخل فيها ما ليس منها مما مهّد لزوال دولة الفرس بإيراد نُتَف مما أورده الباحث المدقق آرثر كريستنسن فى كتابه «إيران فى عهد الساسانيين» : «وقد اقتضت العناية بنقاء دم الأسرة . . أن ظهر جواز الزواج بين المحارم : بين الأب والبنت ، والأم والابن ، والأخ والأخت ، بل وتمّ إقحامه على نص الأفستا ، وقيل إن الزواج بين الأخ وأخته منوَّر بمجد إلهى وله فَضيلة طَرْد الشيطان بل إنه يمحو الكبائر . . ويمدنا تاريخ العصر بكثير من أمثلة هذا النوع من الزواج» وكان

المسيحيون فى إيران يجدون هذا شيئًا نَجسًا . يقول البطريق مادبها الذى عاش فى عهد كسرى الأول: «إنَّ العدالة العجيبة عند عبَّاد أهورامزدا (يقصد الزرادشتيين أو المجوس على أيامه) تقضى أن يكون للرجل صلات شهوانية مع أمه وابنته وأخته . وهى عادة قبيحة نجسة يُبيحها هؤلاء الضّالون» [ص ص ٣١٠ـ ٣١١ ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨ ، وقد ترجمه د. يحيى الخشاب العالم القدير فى الدراسات الشرقية وراجعه د. عبد الوهاب عزّام]

من مثل هذا هرب سَلْمان الفارسى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بحثًا عن دين آخر .

وكما تأثرت اليهودية بالمجوسية كما ألمحنا، وجدنا الكتب المقدسة المسيحية تشير إلى صلة ما للمجوس بالمسيحية، نقرأ فى إنجيل متّى (كتب إنجيله فى حوالى الفترة من ٦٠ إلى ٦٥م) «وبعدما وُلد يسوع فى بيت لحم . . على عهد الملك هيرودس، جاء إلى أورشليم بعض المجوس القادمون من الشرق يسألون: أين هو المولود ملك اليهود؟ فقد رأينا نجمًا طالعًا فى الشرق، فجئنا لنسجد له . . . فاستدعى هيرودس المجوس سرًا، وتحقَّق منهم ومن ظهور النجم، ثم أرسلهم إلى بيت لحم، وقال : اذهبوا وابحثوا جيدًا عن الصبى، وعندما تجدونه أخبرونى لأذهب أنا أيضًا وأسجد له ، فلما سمعوا ما قاله الملك مضوا فى سبيلهم، وإذا النجم الذى سبق أن رأوه فى الشرق يتقدمهم حتى توقَف فوق المكان الذى كان الصبى فيه، فلما رأوا النجم فرحوا فرحًا عظيمًا جدًا، ودخلوا البيت فوجدوا الصبى مع أمه مريم، فجثوْا وسجدوا له ، ثم فتحوا كنوزهم وقدَّموا له الهدايا؛ ذهبًا وبخورًا ومُرًا، ثم أوحى إليهم فى حُلم ألاَّ يرجعوا إلى هيرودس (عدو يسوع) فانصرفوا إلى بلادهم فى طريق أخرى». [إنجيل متّى ٢/ ١ـ١٢].

فى مثل هذا الجوّ راح سلمان رجل الدين المجوسى يُعمل عقله وقلبه، فاضطرب عقله وقلبه خاصة أنَّ المجوسية كانت منذ زمن طويل مضطربةً بين التوحيد والثَّنْوية، وقد أفسدتها أكثر فأكثر الحياةُ الاجتماعية والاقتصادية السَّيِّئة، فترك سلمان ما كان فيه من رغد العَيْش ليلْحقَ بدين آخر: «وكانت لأبى ضيعة عظيمة فشُغل فى بنيان له يوما ، فقال لى: يا بُنى، إنى قد شُغلت فى بنيانى هذا اليوم ، عن ضَيْعتى، فاذهب إليها ، فاطَّلعها (أشرف عليها) وأمرنى فيها ببعض ما يريد. . . فخرجتُ

أريد ضيعته التى بعثنى إليها، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى فسمعت أصواتهم فيها وهم يُصلّون ، وكنتُ لا أدرى ما أمرُ الناس لحبس أبى إيّاى فى بيته، فلما سمعتُ أصواتهم دخلتُ عليهم أنظر ما يصنعون ، فلما رأيتهم أعجبتنى صلاتهم ورغبتُ فى أمرهم، وقلتُ: هذا والله خير من الدين الذى نحن عليه (المجوسية) فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعةَ أبى فلم آتها ثم قلتُ لهم: أين أصلُ هذا الدين ؟ قالوا: بالشام، فرجعت إلى أبى وقد بعثَ فىَّ طلبى، وشغلتُه عن عمله كله فلما جئته قال: أىْ بُنى أين كنت؟ أوَلَم أكُن عهدتُ إليك ما عهدت؟ قلتُ له : يا أبت، مررتُ بأناس يصلون فى كنيسة لهم، فأعجبنى ما رأيت من دينهم ، فوالله ما زلتُ عندهم حتى غربت الشمس ، قال : أى بنى، ليس فى ذلك الدين خير . دينك ودين آبائك خير منه .

قلتُ له : كلاَّ والله، إنَّه لخير من ديننا (المجوسية) فخافنى أبى فجعل فى رجْلىَّ قيداً ثم حبسنى فى بيته .

وبعثتُ إلى النصارى فقلت لهم : إذا قَدِم عليكم ركْب من الشام فأخبرونى بهم .

فقدم عليهم ركب من الشام تجَّار من النصارى، فأخبرونى بهم، فقلتُ لهم: إذا قضوا حوائجهم وأرادوا الرَّجعة إلى بلادهم، فآذنونى بهم (أى أخبرونى). فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم، أخبرونى بهم، فألقيتُ الحديد من رجلىَّ ثم خرجتُ معهم حتى قدمتُ الشام فلما قدمتها قلت : من أفضل أهل هذا الدين علمًا؟ قالوا: الأسقف فى الكنيسة . فجئته فقلت له: إنى قد رغبتُ فى هذا الدين ، فأحببتُ أن أكون معك ، وأخدمك فى كنيستك ، فأتعلم منك وأصلى معك .

وهكذا دخل سلمان المسيحية، فماذا كان؟ ، وكيف وازن وقارن حتى انتهى به المطاف إلى الإسلام لتقرَّ به عينه وينعقد عليه قلبه ؟

***

تسابيح وابتهالات

سبحانك،

أنتَ واحد أحد فرد صمد،

لك صفاتٌ تليق بجلالك،

تعاليتَ وتساميت،

وأنت مع هذا قريب .

قريبٌ تجيب الداعى إذا دعاك .

كيف تكون متعاليًا متساميًا وقريبًا فى آن ؟

علم ذلك عندك .

لكنه فى قلبى يقين

يقين يتجلى العلم عن نُتفٍ منه شيئًا فشيئًا . . ولم يُدركه عقلى إدراكًا كاملاً حتى الآن

الأمثلة كثيرة

ولك ـ يا ربّ ـ المثل الأعلى

يقولون أصبح عالمنا فى هذا القرن قرية واحدة . . .

يخاطب الصديق صديقه ويراه،

وبينهما آلاف الأميال

بل ملايين الأميال أحيانًا.

فهما متباعدان، لكنهما قريبان .

هذا مثال، ولك ـ ياربّ ـ المثل الأعلى .

كيف أقول يا ربّ،

إنك شققت بطنَك ـ سبحانك وتعاليت ـ لتَلِدَ نورًا وظلمة .

وإنَّ الظلمة كانت ولدًا لك عصاك ،
أيعصيك ويخلق خلقًا دون إذنك . . . !
أيخلقُ وأنت الخالق؟
عبد المجوس ـ وقد ضلُّوا بعد زرادشت ـ النار .
مع أن النار يُطفئها الماء
لمَّا علموا هذا بعد لأى ،
عبدوا الماء ،
قدّسه منهم خلق كثير ،
فحرموا الاستحمام والاغتسال ،
وجعلوه للشرب والزرع والطبخ لا غير .
صار الواحد منهم قَذِراً مُنتِن الرائحة ،
وجدوا الشمس نارًا .
فعبدوا الشمس ،
ألم يروا الشمس غاربةً ؟
ألم يروها ؟
فلمَ لم يقولوا : لا نحب الغاربين؟ .
سبحانك يا ربّ العالمين .
يارب كل الناس ،
فالناس ـ إذًا ـ سواسية كأسنان المشط ،
وإن كان لكلّ صاحب فضل فضله .
فلا يصلح الناس فوضى لا سُرَاةَ لهم ، لكنهم ـ مع هذا ـ سواء
ما أعْدَلك يا ربَّ العالمين .
أصابت خزانة الملك عَجْزًا .
تقدَّم صانع أحذية بعون للخزانة
ولم يطلب إلاَّ أمرًا يسيرًا .
طلب أن يُعيَّن ابنُه الذكى فى ديوان الملك .

ردَّ الملكُ المالَ لصانع الأحذية
فطبقةُ الحذَّائين ملوَّثة ،
ولا يجوز أن يكون فردٌ منها فى الديوان .
فمن كان فى الديوان لا بد أن يكون أزرق الدم . . .
يا سبحان الله !
هذا الضيِّق فرّجه دينى الحنيف
فرَّجه دينك الرَّحب يا ربّ العالمين .
دين اعتلى فيه بلال الحبشى الكعبة ليعلن :
الله أكبر . . الله أكبر
الله أكبر . . الله أكبر
اللهُ إلهُ الناس كلهم
ونبيى نبى الناس كلهم
ليس قَصْرًا على جنس
ليس لبنى إسرائيل فحسب كما فهم اليهود (يهوه)
وليس للفرس فحسب ، كما حَرَّف ، الفرس أهورا مزدا .
سَلْمان استعبده الظَّلَمة ،
وأعتق سَلْمان فى رحاب الإسلام
مع النبى المصطفى ، وعرف حريته
وأصبح أخًا لبلال وصهيب وعلىٍّ وعُمر .
اللهم احشرنى معهم يا رب العالمين .
فتلك ثُلَّة تمثل كلَّ أجناس البشر .
لا فضل لعربى على أعجمى إلاَّ بالتقوى
ضلَّ المجوس بعد زرادشت
ضاعت شريعتهم ،
نكحوا المحارم ،
تزوَّج الواحد منهم أمه ، وأخته وابنته

نعوذ بالله . . نعوذ بالله

فالمحارم من شرع الله

والله أعلم بما حرَّم

وجاء الدين الحنيف ليصحّح الشريعة

اللهم احفظ شَرْعك من الزوال

واجعل له رجالاً يدافعون عنه ويذكُرون .

واجعل لهم أرواحًا يَقِظة

واجعل لهم قلوبًا واعية فالفريسيّون أماتوا الشريعة

احتفظوا بالكلمات

تغاضوْا عن الروح

فقال لهم المسيح : يا أولاد الأفاعى . .

احفظ شرعك يا ربنا

فأنت على كل شىء قدير

آمين .

آمين .

* * *

ملحق الفصل الأول

دراسة أعدّها المستشرق زينر عن الزرادشتية (المجوسية) نشرها في «موسوعة الأديان الحية - Encyclopedia living faiths» ترجمها مؤلف هذا الكتاب وعلق عليها.

تكاد ديانة زرادشت Zoroaster تتلاشى الآن من فوق ظهر البسيطة (الأرض). وربما لا يزيد عدد معتنقيها الآن على ١٢٠,٠٠٠ نفس. فلماذا - إذًا - كان يجب إدراجها في مجلدنا هذا المخصص لأديان العالم الكبرى الحيّة؟

إن الزرادشتية - مثلها في ذلك مثل اليهودية - كانت ديانة وطنية (خاصة بشعب بعينه)، أو كانت أقرب ما تكون إلى ذلك : فمن القرن الثالث إلى القرن الخامس للميلاد كانت الزرادشتية هي ديانة الإمبراطورية الفارسية. وعلى أية حال فعندما وهنت هذه الإمبراطورية قبل اجتياح المسلمين لها، فقدت الزرادشتية وضعها المميّز في بلادها الأصلية وأصبحت ديانة الأقلية بالكاد، وعبر القرون هاجر عدد من معتنقي الديانة القديمة إلى الهند المتسامحة وكونوا مجتمعًا من الفرس يحظى بالرخاء والاحترام، وتقلّصت الزرادشتية بالتدريج من حيث عدد معتنقيها إلى قلة، كما كان وضعها عندما بدأت.

وعلى أية حال فأهمية الزرادشتية - مثلها في ذلك مثل اليهودية. . ليست في عدد معتنقيها، وإنما الأكثر أهمية هو في تأثيرها على الأديان الأخرى - خاصة تأثيرها على المسيحية، من خلال وسيط نعني به اليهود الذين تم نفيهم في بابل Babylonia، أولئك اليهود الذين بدوا متشرّبين للأفكار الزرادشتية، والمسيحية تدعى أنها الوارث لأنبياء

إسرائيل، فإذا كانت هناك أية صحّة فى هذا الزعم، فالمسيحية أيضًا وارثة لنبى إيران القديم بدرجة لا تقل عن إرثها لأنبياء إسرائيل، رغم أن عددًا قليلاً من المسيحيين هم المدركون لهذه الحقيقة.

النبى

الزرادشتية من أديان النبوّات، ومؤسسها هو زرادشت Zaroaster ويُكتب أحيانًا Zarathushtra وكان نبيّا أو على الأقل ادَّعى هو ذلك. لقد تحدث إلى الله وجهًا لوجه، ولم يستطع الباحثون حتى وقت قريب، أن يحددوا الزمان والمكان اللذين بث فيهما زرادشت دعوته، وعلى أية حال، فحديثًا، بدا أن الباحثين توصلوا إلى اتفاق مؤداه أنه ليس هناك من سبب يجعلنا نرفض التاريخ الذى حدده الزرادشتيون أنفسهم وتناقلوه - تقليديّا - جيلاً بعد جيل، فالزرادشتيون يحددون أن نبيهم ظهر قبل ٢٥٨ سنة من الإسكندر» «والإسكندر» بالنسبة للفرس (الإيرانيين) يعنى انتهاء الإمبراطورية الفارسية الأولى وموت آخر إمبراطور (ملك الملوك) وهو داريوس الثالث. وقد حدث هذا فى سنة ٣٣٠ قبل الميلاد؛ لذا فإن فترة زرادشت لا بد أن تكون فى سنة ٥٨٨ قبل الميلاد، وهذا التاريخ الآنف ذكره يمكن استخدامه للإشارة إلى بداية البعثة النبوية لزرادشت، عندما كان فى سن الثلاثين وهى السن التى قيل إنه تلقى فيها الوحى للمرَّة الأولى. والرواية التقليدية تذهب إلى أنه عاش سبعًا وسبعين عامًا، فلا بد إذًا أنه كان موجودًا فى الفترة من٦٢٨ إلى ٥٥١ ق. م، والمنطقة التى أعلن فيها رسالته ربما كانت هى منطقة كورازميا أو خورازميا Chorasmia القديمة - وهى منطقة تكوّن الآن ما هو معروف بخُراسان الفارسية وأفغانستان الغربية وجمهورية تركمانستان (التى كانت تابعة للاتحاد السوڤيتى السَّابق).

أما عن النبى زرادشت نفسه فلا نكاد نعرف عنه شيئًا موثقًا، فهو لم يحقق نجاحًا فى بلده وأجبر على الفرار (yasna 46,1) بحثًا عن أمير قد يحميه ويقبل دينه. وقد وجد هذا الأمير بالفعل فى ڤشتاسبا Vishtaspa، وربما كان حاكمًا ذا سلطة عليا فى خورازميا، وفى ظل حماية هذا الحاكم أصبحت الزرادشتية قادرة على ترسيخ نفسها .

ويسمّى الكتاب المقدس للزرادشتية بكتاب «الأفستا ـ Avesta » ولم يبق منه إلا أجزاء في يومنا هذا. وبصرف النظر عن الشذرات، فإن هذا القسم الباقي يضم ثلاثة أجزاء رئيسية ـ «الياسنا ـ yasna » التي تضم الطقوس (الليتورجية) و «الياشتس ـ yashts » أو ترانيم الأضاحي المقدمة لبعض الآلهة deities أو الملائكة، و«الفيديفادات ـ Videvdat» أو «الشريعة ضد الشياطين ـ Demons » المخصصة أساسًا لأمور الطهارة الطقسيّة. وفي الياسنا ـ النص الطقسي الكبير ـ أدرجت سلسلة من (الجاثاس ـ Gathas) ـ الأغاني أو الترنيمات أو التراتيل ـ وما دامت هذه قد كتبها زرادشت نفسه، فهي ـ بالتالي ـ مصدرنا الرئيسي أو بالأحرى الوحيد للعقائد التي دعا إليها.

كل الأديان الحية عرضة للتغير والتوسع والنمو، لكن القليل من الأديان هي التي عرفت تقلبات كالتي عرفتها الديانة الزرادشتية. إنه ليبدو أن الإنجاز الكبير لهذ النبي الإيراني أنه أزال كل الآلهة القديمة من الهياكل المكرسة للآلهة الفارسية، ولم يبق إلاّ على أهورا مزدا Ahura Maz dah « الرب الحكيم ـ Wise Lord» كإله واحد حق، وكان هذا التوحيد هو محور عقيدته، مع أنه بعد موته بوقت غير بعيد ظهرت كثير من الآلهة أو الأبواب القديمة متَسللة إلى نظامه الديني، ومع أن هذه الآلهة عندما عادت لم تَتَحدَّ أبدًا تفوق أهورا مزدا وسيادته، إلاّ أنها ـ مع ذلك ـ سادت كموجودات معبودة yazatas ـ كالملائكة ـ إن أردت ـ التي غالبًا ما وصلت إلى درجة كادت فيها تحل محل الإله وتسلبه مهامه. ومرة أخرى، عندما أصبحت الزرادشتية هي الديانة الرسمية للإمبراطورية الفارسية الكبرى الثانية (الإمبراطورية الساسانية)، وجدنا نوعين من الزرادشتية جنبًا إلى جنب، زرادشتية ثنويّة تمامًا neatly dualist ترى أن مبدأ الشر منفصل عن أهورا مزدا، لكنه ـ أي مبدأ الشر ـ مشارك لأهورا مزدا في الأزلية Co- eternal ، والزرادشتية الثانية توحيدية متردّدة tentatively monotheistic ظهر فيها زمن لا نهائي كانت فيه الأصول الغامضة لكل الأشياء، ومن هذا الهيولى الغامض انبثق مبدآ الخير والشر. وربما لم يكن أي من هذين النظامين الدينيين يمثل التعاليم الموثقة أو المعتمدة التي نادى بها زرادشت، فما هي إذًا تعاليم زرادشت الأصلية؟.

تعاليم زرادشت فيما يتعلق بالله

كان زرادشت نبيّا - يتحدث إلى الله، ويصغى بانتباه إلى إجاباته. إنه «النبى الذى رفع صوته فى مهابة ووقار، إنه صديق الحق the friend of truth » (yasna,50,6) «صديق الله» (yasna,46,2) «العدو الحقيقى لأتباع الكذب Lie، القوى الذى يؤيد أتباع الحق» (yasna,43,8) وباعتباره مختاراً؛ لذا فهو يعمل ما يختاره الله له. فقد راح زرادشت يهتف «آه يا ربى الحكيم، زاراتوشترا» Zarathushra هنا يختار المرء لنفسه روحك the spirit التى هى الأكثر قداسة»، فالعلاقة إذًا بين الله وهذا النبى علاقة فيها حرية، فزرادشت لم يكن مجبراً، على نحو ما كان أنبياء العبرانيين فى بعض الأحيان، فالأقرب إلى الفهم أنه رأى قداسة ربه، وحالما رآها، اختارها. فى هذا التبادل الحُر بين الله ونبيه تنعكس العلاقة العامة بين الله والجنس البشرى. فالإنسان فى الزرادشتية ليس كما هو الحال فى اليهودية والإسلام خادمًا لله أو عبداً له servant or a slave، وإنما هو إنسان حُر، سيد ذو حرية عظيمة يختار بمقتضاها بين الخير والشر. هذا هو الموقف الدينى الذى واجه به زرادشت مستمعيه. وعلى هذا، فإذا كان الإنسان واعيًا بحريته فى أن يختار، وواعيًا بمسئوليته الكبيرة الناتجه عن حريته فماذا فعل النبى (زرادشت) ليطرح فهمه للخير والشر؟ الإجابة الموجزة عن هذا هى أنه فهم (الخير) على أنه ما أوحاه الله إليه - دين جديد - لا يعترف إلاَّ بإله واحد هو أهورا مزدا - أما بالنسبة للشر، فالدين الفارسى القديم الذى اعترف بتعدد الآلهة التى استمرت فيما بعد فى الزرادشتية رغم تحذير نبيها، وكذلك استمرت الممارسات الدموية (المقصود تقديم الأضاحى) التى يبدو أن هذا الدين (القديم) كان يشجعها. ولا نعرف عن هذا الدين القديم (السابق على الزرادشتية) إلا من خلال التّهم التى كالها زرادشت له، وذلك من خلال نصوص البيج ڤيدا Big Veda (p,226) التى كانت هى الكتاب المقدس للفرع الهندى للأسرة الهندية الإيرانية، وأيضًا من قسم الياشتس yashts فى الأڤستا (كتاب الزرادشتية المقدس) نفسها التى ورد فيها أن بعض الآلهة الهندية الإيرانية القديمة قد استثيرت بسبب الحقيقة التى مؤداها أن النبى (زرادشت) إما أدانها وإما أطاح بها إلى عالم النسيان. ومن أقدم النصوص الهندية والإيرانية يتضح أن الشعوب الإيرانية الهندية المتحدة اعترفت بطبقتين من الآلهة: الأسورا أو الأهورا Osuras or ahuras من ناحية، والديڤا devas or daevas من

ناحية أخرى. هذان النوعان المختلفان من الآلهة لكل نوع منهما قَدَر أو مصير فى إحدى الحضارتين يختلف عن قدره أو مصيره فى الحضارة الأخرى: ففى حين نجد الأسورا asuras فى الهند قد تم تقليص دورهم بالتدريج إلى وضع الشياطين[1] demons، فإن الديڤا Devas هى وحدها التى احتفظت بألوهيتها (بقداستها)، فإننا نجد فى إيران الأهورا Ahuras قد احتفظت بشخصية إلهية (قدسية) والديڤا Devas تقلص دورها إلى الشيطنة demonhood لقد كان زرادشت نفسه - أو هكذا يجب أن نفترض - هو الذى أنزل الديڤا من فوق عرشها تمامًا، وهو الذى احتفظ من بين كل الأهوار، بأهورا مزدا وحده - أهورا مزدا الرب الحكيم Wise Lord كإله واحد حق.

وعلى هذا فالديڤا Devas خاصة التى هاجمها زرادشت ليست أهورا، فقد فضّل تجاهلها جميعًا فيما عدا فى مرة واحدة عندما قال: «الحق Truth هو الذى يجب أن نتضرع إليه، والواحد الحكيم The Wise One والأرباب الأخرى ohter (الأهورا ahuras)» (yasna,31,4)، وبناء على ذلك يمكن أن نصف زرادشت بأنه كان موحدًا رغم أنه بالتأكيد لم يزح الأرباب الأخرى بعيدًا عن الرب الحكيم، - وسنتناول ثَنْويته هذه فيما بعد. وفى كل الاحتمالات فقد كان يعتبرها من مخلوقات الله وأنها تحارب إلى جانبه - أى إلى جانب الله. وفى كل الأحوال ركز زرادشت كل ثقل هجومه على الديڤا Devás وعلى عابديها الذين يمارسون طقوس أضحيات دموية وكانوا أعداء للمجتمع الريفى المستقر الذى كان هذا النبى ينتمى إليه.

لقد كان زرادشت نبيًا، ويميل الأنبياء إلى رؤية الأشياء إمّا سوداء وإما بيضاء، فقد كان يرى الحقّ والصّلاح asha فى جانبه وليس عند الآخرين سوى الكذب Lie (druj) لقد كان مجتمعه مجتمع مزارعين مستقرين يميل إلى نظام العشيرة kine ويوقرها، وكان أعداؤه من غير المزارعين (yasna,3,10).

هذا النضال بين مجتمع ريفى يتمثل ثراؤه فى الماشية من ناحية، ومجتمع قبلى قائم على النهب يُغير على رعاة قطعان الماشية المستقرين من ناحية أخرى - كوّن الخلفية الدائمة لدعوة زرادشت. فالمستقرون (المجتمع الريفى مالك قطعان الماشية) يمثّل «الحق

(١) ديمون فى القواميس الإنجليزية الغربية تعنى شيطانًا أو روحًا حارسًا، أو نصف إله فى الميثولوچيا اليونانية.

والصلاح». والمجتمع الثانى (القبائل المغيرة) تمثل «أتباع الكذب»: ولم يكن من الممكن أن يحل السلام أو الوفاق بين الطائفتين إلاّ إذا تخلّت إحدى الطائفتين عما هى عليه «فمتّبع الكذب مدين بسبب أعماله ومُستنكَر (بفتح الكاف)، وقد يمنع مؤيدى الصلاح من جعل عشيرتهم تنعم بالرخاء فى بلادها أو أرضها، فكل من ينتزعه من سلطانه أو حياته سوف يمهد الطريق للعقيدة الطيبة» (yasna,46,4) وبالنسبة لزرادشت لا مجال لفعل خير مع واحد من الأعداء، فالأمر بالنسبة له كما هو بالنسبة لليهود عندما دخلوا «أرض الميعاد». فإذا لم يتحولوا - أى الأعداء - للزرادشتية، فلا بد من مهاجمتهم «فذلك الذى يفعل الشر بالكلمة أو بالفكر أو بيديه مهاجمًا أتباع الكذب أو يحوّل رفيقه إلى طريق الصلاح - إنما هو شخص ينفذ إرادة الرب الحكيم Wise Lord ويَسُرّه» (yasna,33,2) فلا بد من مواجهة أتباع الكذب (الضلال) بكل سلاح.

فالأشا والدروج Asha and druj، الحق والضلال، الصلاح وأتباع الشر، والنظام والفوضى - كل أولئك هى المتضادات فى جاثا زرادشت Gathas of Zoroaster. إنها تنطبق على كل مجالات النشاط سواء أكانت بشرية أم كونية أم إلهية (مقدسة). ولم يبتدع زرادشت هذا الفصل الأساسى، ما دام أنه - أى هذا الفصل - ظهر فى التراث الهندى أيضًا، ولكنه صحّحه بأن جعله فى الواجهة الأمامية لفكره وجعله أساسًا لمجمل نظرته للكون. ويَتَجلّى هذا التناقض الأساسى على الصعيد الاجتماعى الخالص فى التناقض بين المجتمعات المستقرة من ناحية، والبدو الذين لا يحكمهم قانون Lawless من ناحية أخرى. وعلى الصعيد الدينى يتجلى فى الحاجز الذى لا يمكن عبوره والذى يفصل بين دين الحق Trurh الذى أوحاه الرب الحكيم لنبيه - من ناحية - والدين التقليدى للجنس الإيرانى الذى - كما لا بد أن أتباعه يزعمون - توارثوه منذ عهود سحيقة وأسسه الجد الأعلى لجنسهم الإيرانى - ييما Yima ابن ڤيڤاهڤانت Vivahvant - وييما هذا هو ابن الشمس. فهذا الدين القديم دين فاسد، ولم يتوان زرادشت عن مهاجمة حتى هذا الجد الأعلى نفسه - ييما، الذى كان قد أدخل نظام الأضاحى بالحيوانات وما صاحبها من طقوس غير ملائمة، لذا فقد أعلن زرادشت أنه «بين هؤلاء الخطاة كان ييما بن ڤيڤاهڤانت، ييما الذى قدم لشعبنا لحم الثور ليأكلوه، ليسر بذلك الرجال الأموات، آه من هذا يا ربى الحكيم. إننى أفوض الأمر إليك» (Yasna,32,8) «فأتباع الضلال هم أولئك الذين يحطمون الحياة» و «ينهبون أقصى ما

يستطيعون ليحرموا الزوج والزوجة من ميراثهما، وقد يسلبون أتباع الحق العقل (أو النفس) الطيب «Good mind» (Yasna,32,11) . وهم من جانبهم اعترفوا بالخطر الذى يمثله هذا النبى عليهم، وعملوا جهد الطاقة لتحطيمه، ولهذا الغرض استمروا فى تقديم الأضحيات من الثيران وما صاحبها من عصير الهوما المتخمر Hoama Juice وهى شعيرة كانوا يمارسونها من عهود سحيقة. وبالنسبة لزرادشت، كانت الأضحيات الدموية والشراب الطقسى، حرامًا - إنها طقوس تقدم لآلهة زائفة وبالتالى فهى كذب (ضلال Lie) . «إلى متى يتسامح الرب الحكيم مع هذه الممارسات؟» هكذا تساءل زرادشت متعجبًا. «متى سيأتى المحاربون ليفهموا رسالتى؟» هكذا تساءل، «متى يارب ترطم أوانى هذا الشراب الذى يضل به الكهنة شعبك، كما يفعل الحكام الشريرون وهم على وعى كامل بما يفعلونه من شر؟» (Yasna,48,10) .

وعلى هذا، فعلى الصعيد الدينى نجد أن العَدُو هو الديانة الوثنية القديمة old pag-on التى يجب أن تُقتلع من جذورها تمامًا لصالح الديانة الجديدة، ديانة الحق والصلاح. ولا بد أن يختار كل إنسان لنفسه جانبًا من هذين الجانبين أو دينًا من هذين الدينين (Yasna,30,2) كما فعل النبى وحدد اختياره علنًا بالانتماء إلى أكثر الأرواح قداسة Most Holy Spirit (Yasna,43,16) روح أهورا مزدا.

فالحق والضلال (الكذب Lie) والصلاح وعكسه، والخير والشر، والاختيار الذى لا بد أن يمارسه الجميع بين كليهما - نجد أنفسنا عند الحديث عن الزرادشتية نعود دائمًا إليها فالله نفسه بروحه ذات القداسة العليا يجب أن يختار، وبهذا نصل إلى أهم قضية فى الثنوية الزرادشتية. إلى أى مدى كان زرادشت - فى الحقيقة - ثنويًا؟ وإلى أى مدى سار فى طريق تدعيم فكرته عن الرب الحكيم - أهورا مزدا - أى الحد الذى يجعل الشر لا يمكن أن يطوله؟ دعنا ندرس النصين الثنويِّين الحاسمين.

النص الأول يصف الروحين البدائيتين Primeval (اللتين وجدتا منذ البداية) واللتين لا يمكن أن تتفقا أبدًا. لقد أعلن النبى زرادشت: «إننى سوف أتكلم بوضوح فيما يتعلق بالروحيْن اللتين - منذ بداية الوجود - تحدث الأقدس Holier وذكر أيًا منهما شريرة: إنه لا أفكارنا، ولا تعاليمنا ولا إرادتنا ولا اختيارنا ولا كلماتنا ولا أفعالنا ولا إيماننا ولا حتى أرواحنا تقبل (ما هو شرير)» (Yasna,45,2) أو كما ذكر

النبى فى موضع آخر: «فى البداية كان الروحان التوْ أمان الموقوفتانwell- endowed (؟) معروفتين: روح طيبة وروح شريرة، فى الكلمة والفكر والعمل، والعقل يختار الخير أو الطيب ولا يفعل الغبى ذلك، وعندما التقت الروحان كوّنتا فى البداية الحياة والموت، وفى النهاية كان ينبغى للشر أن يلتقى بالوجود السيئ أو الأسوأ، وأن يلتقى العدل Just بأفضل النفوس The Best Mind ومن هاتين الروحين Spirits من كانت على ضلال تختار أن تفعل أسوأ الأشياء، ولكن الروح الأكثر قداسة The Most Holy Spirit المتدثّرة فى السماء المتجهمة اختارت الصلاح أو الحق كما يفعل كل أولئك الذين يعملون بحماس لفعل ما يرضى الرب الحكيم Wise Lord بإتيانهم أعمالاً صالحة»، لكن «بين هاتين الروحين فإن الآلهة القديمة (الديفا daévas) لم تختر الخيار الصحيح، فقد قهرها الضلال لذا فقد اختارت أكثر النفوس شرّاً Most Evil Mind، واتفقت النفوس الشريرة فاندفعت بحماقة فى طريق عقاب الله (فى الطريق الذى يعذب الله من سلكه) wrath وميزوا (اختاروا) distinguish (؟) وجود الإنسان الميت» (yasna,30,3-6).

إننا نجد هنا التراجيديا البدائية (الأولى) فى الزرادشتية، تقابل (أو تناظر) العقيدة المسيحية فى الخطيئة الأولى أو الأصلية Original Sin . فالزوجان الأوليان (الأساسيان) يلتقيان، الروح القدس Holy Spirit والروح الشريرة Evil ، بل إننا نرى كما هو ظاهر أن قداسة الروح القدس، وشر الروح الشريرة كانا بالاختيار choice أكثر مما كانا بحجم طبيعة nature كل منهما . فالروح القدس هى أكثر الأرواح قداسة فى أهورا مزدا (Yasna,43,16) لكنها ليست هى نفسه (ليست أهورا مزدا نفسه)، هذا يعنى أن كلتا الروحين: الروح القدس، والروح الشريرة قد انسابتا أوخرجتا من أهورا مزدا، الرب الحكيم الذى هو الله[1]. يبدو إذًا أن زرادشت مؤسس الزرادشتية التى ينظر إليها بشكل عام كنموذج تقليدى للدين الثنوى لم يكن هو نفسه ثنويّاً dualist إذا كنا نقصد بهذا المصطلح ذلك الشخص الذى يؤمن بمبدأين وُجدا منذ البداية، لا مبدأ واحد، ويجعل مبدأ الشر متداخلاً مع الله ومستقلاً عنه أو بتعبير آخر متداخلاً مع الله منذ الأزل ومستقلاً عنه فى الوقت نفسه. ومن ناحية أخرى فإن التوحيد عند زرادشت

(١) أو بالتعبير المسيحى: الأب.

لم يذهب إلى الحد الذى يُعزى (بضم الياء) فيه الشر للّه بشكل مباشر، فإله زرادشت لا يمكن أن يقال له: «أنا الرب وليس آخر مصوّر النور وخالق الظلمة صانع السلام وخالق الشر أنا الرب صانع كل هذه» [أشعياء/ ٤٥/ ٧]، كما قال يحيى لأشعياء الثانى Second Isaiah، فمثل هذه الفكرة بالنسبة لزرادشت قد تبدو كفرًا أو تجديفًا لأن الله بالنسبة له قد أظهر ذاته كموجود ذى سلطان وأنه خيْر خالص powerful and all good.

لقد رأينا الروح القدس والروح الشريرة يشار لهما كتوأمين twins وأن أهورا مزدا يسمَّى الأب the Father بالنسبة للروح القدس، وبمنطق مباشر مستقيم كان لا بد أن يكون هو أيضًا (الله أو الأب) أب الروح الشريرة، إلا أن زرادشت ـ على أية حال ـ كان نبيًا ولم يكن لاهوتيًا، والأنبياء فى فهمهم المباشر للألوهية، يعوّلون على ترك كل الأمور المرنة (غير المحدّدة) Loose ليتناولها اللاهوتيون بعد ذلك بالضبط والحبك والترتيب.

وكان اللاهوتيون ـ حقيقة ـ أكثر تعاملاً ودراسة لهذه النصوص كما سنرى، ولم يبد أنهم اتفقوا بشأنها إلاّ فى أواخر الدولة الساسانية وبداية الحكم الإسلامى. وعلى أية حال، فيبدو أن عقيدة زرادشت كانت هى الإيمان بأهورا مزدا كإله أعلى Supreme God «ولد generated» روحين.

إحدى الروحين اختارت الصلاح، والروح الأخرى اختارت «فعل الأمور المستقبحة»، فكانت الروح الثانية ـ إذًا ـ شريرة بالاختيار لا بحكم طبيعتها، ومن هنا كان تركيز زرادشت على حرية الإرادة التى لم يستطع حتى الله أن يتجنبها.

وأهورا مزدا نفسه لا بد أنه ـ بفعل الإرادة ـ اختار الخير كمناقض للشر.

«الأسرة والقرية والقبيلة، والديفا (الآلهة الصغيرة) godlets (the devas) نفسها، مثلى، تطلب البركة من الرب الحكيم قائلة: دعنا نكون رسلك لنحاصر أولئك الذين يكرهونك. فالرب الحكيم يتحد مع النفس الطيبة Good mind ويكون فى صحبة وثيقة مع الحق Truth، وقدم الإجابة من مملكته: فلنختر ما هو مقدس وطيب، وصحيح النفس، دع ذلك لنا أيها الرب الحكيم.» (Yasna,32,1-2)

هنا نجد الله نفسه ممثلاً وكأنه يقوم باختيار كبير بين الخير والشر، ويتحد مع النفس الخيّرة (الطيبة) ويكون على علاقة وثيقة بالحق أو الصّلاح، فالله يختار الطيب (الخير) ويدين تمامًا الدين القديم الذى يعتبرونه مطابقًا للشر.

وراح زرادشت يبدى دهشته: «لكنكم أنتم أيها الآلهة (غير أهورا مزدا) ومن يضاعف أضحياته من أجلكم، فأنتم جميعًا تقوّمون بذور النفس الشريرة the Evil mind، والضلال والغرور، أشاكون أنتم فى أن أعمالكم، التى أنتم مستعبدون بسببها فى سبع الأرض، أنكم قمتم بهذه الأعمال لأن المرء الذى يفعل ما هو الأسوأ لا بد أن يقول إنه فعل ذلك لإرضاء الآلهة (غير أهورا مزدا) ؟- فالناس الذين يتركون النفس الطيبة Good mind ينشقّون عن إرادة الرب الحكيم وعن الصلاح (طريق الخير)؛ ولذا أترغبون فى سلب الإنسان حياته الطيبة وخلوده، تمامًا كما سلبتكم الروح الشريرة نفوسكم الخيرة؟ وإن كنتم أربابًا (آلهة) فما ذلك إلاّ بفعل النفس الشريرة Evil mind التى تعد أتباع الضلال Lie بالهيمنة والسلطان مستخدمة كلمات شريرة» (yasna,31,3-5)

إن العلاقة بين الله، والروح الشريرة أو الشيطان تبدو هنا واضحة، لأن الآلهة القديمة daévas هى نفسها تبدو مقتربة منه متضرعة متوسّلة، وبالتالى فهى تعرف هيمنته وسلطانه supermacy، لكنها كانت قد اختارت بالفعل وحددت طريقها بأن تكون أرواحًا شريرة Evil one. لقد كان الاختيار من البداية خاطئًا. وعلى أية حال فحقيقة أن هذه الأرواح أو الآلهة الصغيرة لا بد أن تقترب من أهورا مزدا تشير إلى أنها تدرك أنه الحكم الأعظم الذى لا بد أن تتبعه حتى الروح الشريرة (الروح الشريرة هى أهريمن Ahriman بالنسبة للزرادشتية فى مرحلة متأخرة)

لقد أثرت الزرادشتية بعمق فى العقيدة اليهودية كما ظهرت فى وثائق البحر الميت Dead Sea Scrolls ويتجلّى هذا التأثير بوضوح فى دليل النظام Manual of Discipline فهنا نجد نوعًا من الثنوية يكاد يكون مطابقًا على نحو ما لفكر زرادشت، أكثر من مطابقته للثنوية الزرادشتية المتأخرة زمنًا. لكن الفكرة - بطبيعة الحال - قد ألبِسَت لبوسًا يهوديًا، لكنها مع هذا مطابقة لفكرة زرادشت.

فنحن نقرأ فى وثائق البحر الميت أن «الله خلق الإنسان ليسيطر على العالم وجعل له روحين two spirits ليسير بهما حتى الوقت المحدد لحسابه his visitation ، إنهما روح الحق truth وروح الضلال أو الخطأ error، ففى مسكن النور توجد أصول الحق، ومن منبع الظلام توجد أصول الخطأ أو الضلال error . . . وبفعل ملك angel الظلام يكون ضلال كل أبناء الصلاح . . . وكل الأرواح التى هى من نصيبه تحاول أن تكون من أبناء النور لكنها تضل الطريق stumble، لكن رب إسرائيل ومَلك الحق angel of truth ساعدا كل أبناء النور. لأنه هو خالق أرواح النور وأرواح الظلمة وأوْكل إليهما إيجاد كل عمل، ووفقًا لطريقتهما تجرى الأمور، وإحدى الروحين يحبها الله طوال العصور ومنذ الأزل، وبأعمالها «الروح» يُسر إلى الأبد، أما الروح الأخرى فهى ملتصقة به he adhors its company ، ويكره كل أعمالها إلى الأبد» (انظر : Millar Burrows, the Dead Sea Scrolls, 1956,p374).

هنا نجد فى النص أن الموقف اليهودى قد أعاد تكرار فكرة الزرادشتية عن انبثاق روحين من الله، تكرارًا حرفيّا أو بتعبير آخر تكرارًا كاملاً exact. وعلى أية حال، هناك فرق حاسم واحد، ففى الاعتبار اليهودى نجد الله قد خلق الروح الشريرة، ومع أنه خالقها فهو يكره كل أعمالها، وهذا تناقض منطقى صارخ. وعلى أية حال، فالأمر بالنسبة لزرادشت ينطوى على أن الروح الشريرة منبعثة من الله، مع عدم وجود نص واضح على ذلك، لكن عند زرادشت فكرة أخرى وهى أن الروح الشريرة كانت شريرة باختياره ولم تُخلق فى الأساس شريرة، فكما فى المسيحية أنها هبة من الله أن يكون الإنسان حُر الإرادة وأنه ـ أى الإنسان ـ بإساءته استخدام هذه الحرية جلب الشر للعالم.

كيف ـ إذًا ـ فهم زرادشت ربه؟ إنه أهورا مزدا الرب الحكيم : «خالق كل شىء بواسطة الروح القدس» فقد التقينا بهذه الروح القدس قبل ذلك. . . ورأينا كيف دخلت فى صراع مع الروح الشريرة فى بداية الزمن وعلى أية حال، فبالنسبة لزاردشت فإن الروح القدس ليست هى الرب الحكيم رغم أنها حقيقة كان تسمى فى وقت من الأوقات ابنة الرب (Yasna,47,3) وعلى هذا فالاثنتان على نحو ما واحد كما فى التثليث المسيحى، وقد أكدت الزرادشتية المتأخرة (بعد زرادشت) كونهما واحدًا.

وولادة «the generation» الروح القدس ولادة روحية أو عقلية بالضرورة؛ لأن الله روح خالص ويدير أمور العالم من خلال أرواح أخرى هي في الوقت نفسه ـ بطريقة ما ـ مماثلة له (ربما كان المعنى: من الجوهر نفسه ـ المترجم) وبالإضافة إلى الروح القدس هناك أيضًا «النفس الطيبة أو العقل الطيب ـ Good Mind» أو الصّلاح أو الحق وهذه النفس الصحيحة Right _ mindedness يُعزى أبوّتها أيضًا للرب الحكيم أي أنها ابنة الرب أو ابنة الله Yasna» (47.2 و 45.4 و 44.3 و 31.8)، وهؤلاء الأبناء لله أو للرب الحكيم هم في الوقت نفسه جوانب aspects منه، أو قوى يعمل ـ أي الرب الحكيم ـ من خلالها (دعنا نقول إنها أقانيم منه فالمعنى واحد ـ المترجم). وتشبههم ثلاث كينونات entities أخرى ـ «الملكوت ـ kingdom» و «الكلية ـ wholeness»و «الخلود ـ Immortality» والأخيرتان يُنظر إليهما على نحو أكثر باعتبارهما منحة من الله للإنسان. وفي الزرادشتية المتأخرة زمنًا صارت هذه الكينونات «رؤساء ملائكة archangels» منفصلة عن الرب الحكيم وهي من مخلوقاته، لكن في الجاثا Gathas الآنف ذكرها لا نجد الأمر كذلك، وإنما الأقرب أنها كائنات أو كينونات يعمل الرب الحكيم من خلالها أو بتعبير آخر يحقق إرادته من خلالها.

والرب الحكيم كُلّي القدرة لأنه «يحكم وفقًا لإرادته (Yasna,43,1) وهو خالق كل شيء (Yasna,44,7) وبواسطته يفكر خلقه في الخلق أو الوجود (Yasna,31.7,11) and his creation is thought by him into existence... وكما رأينا، لقد اختار الصلاح وأدان الشر تمامًا، لأن الشرّ كما رأينا، بالاختيار، فالله يعاقب مخلوقاته (البشرية والروحية) وفقًا لاختيارها السيئ ويجازي بالخير من يختار الخير (انظر على سبيل المثال Yasna,45.7) ذلك أن الله خلق الخلق حُرّ الإرادة ومسئولاً عما يعمل. وفي أسئلة متوالية يوضح لنا زرادشت صورة بهية جميلة لإلهه: «هذ ما أسألك يا إلهي، فأجبني بما هو حق: من هو الأول، أبو الصلاح الذي ولده ـ أي الأول الذي (ولد) الصلاح؟ من هو إذا لم يكن أنت الذي من خلاله يتعاظم القمر أو يصبح محاقًا؟ آه أيها الرب الحكيم الواحد Wise One، إنني أعرفك أنت، وأشياء أخرى إلى جانب ذلك. عن هذا أسألك أنت يا رب، فأجبني بما هو حق: مَنْ جعل الأرض أسفل منا والسماء أعلانا ولا تسقط؟ من جَعَل المياه والنباتات؟ who the waters and the plants? من يكبح جواد الريح والسحب؟ من يا أيها الرب الحكيم الواحد Wise One

هو خالق النفس الطيبة Good Mind ؟ هذا ما أسألك عنه يا إلهى فأجبنى بالحقيقة : من الصانع الحكيم الذى صنع النور والظلمة؟ والنوم واليقظة؟ من جعل الصبح والظهيرة والليل ليجعل الإنسان حكيمًا واعيًا بأعماله؟ هذا ما أسألك عنه يا ربٍّ فأجبنى بالحقيقة : من خلق النفس الصالحة Right _ mindedness موقرة مع الملكوت Domin-ion؟ من جعل الابن مطيعًا فى روحه لأبيه؟ فلتعترف لى يا رب بهذه العلامات أنك خالق كل شيء من خلال الروح القدس . إننى سأساعدك I go to help thee » (Yasna,44.3-5,7) .

ولنوجز ما أسلفناه، بالنسبة لزرادشت ليس هناك إلاّ إله واحد خالق السماوات والأرض وكل الأشياء، ومن حيث علاقته مع العالم فإن الله (يعمل acts) من خلال «كلياته أو كينوناته faculties» التى يجعلها ـ فى بعض الأحيان ـ تتحدث كموجودات ولدها أو بعثها engendered ـ الروح القدس، والصلاح، والنفس الطيبة Good Mind والعقل السوى أو «النفس الصالحة ـ Right-mindedness» وأكثر من هذا فهو سيد الملكوت والكلية والخلود التى تشكل أيضًا جوانب من ذاته (ذات الله)، فالصلاح أو الحق هو المعيار النمطى أو الموضوعى للسلوك الصحيح (السَّوى) الذى اختاره الله، وهو ضد الكذب Lie، أو الضلال، أو الشر، أو الغموض الذى هو ـ فى المقابل ـ المعيار الموضوعى لكل من يحارب الله، وهو الخيار الذى اختارته الروح الشريرة منذ بداية الوجود . والشر يقلد الخُلُق الطَّيب، لذا فنحن نجد الروح الشريرة تعمل ضد الروح القدس، والنفس الشريرة أو العقل الشرير Evil Mind تعمل ضد النفس الطيبة أو العقل الطيب، ونجد الكذب أو الشر يعمل ضد الصدق والصلاح ونجد الغرور يعمل ضد النفس الصالحة (المطمئنة) والشر مشتق من الاختيار الخاطئ من كائن حُر هو بمعنى من المعانى مشتق من الله، لكن بسبب شره لا يمكن أن يكون الله مسئولاً عما يفعله. فأنجرا مينيو أو أهريمن Angra Mainuo or Ahriman ـ الشيطان ـ ليس حتى أزليًا مع الله؛ إذ إنه لم يوجد إلاّ فيما بعد أى بعد وجود الله : إنه ـ أى الشيطان ـ خصم Adversary للروح القدس وحدها، وليس للّه نفسه.

تعاليم أخرى

تعكس تعاليم زرادشت الوسط الذى عمل فيه ـ ذلك الوسط الذى كان فيه

المستقرون من رعاة الماشية فى حرب دائمة ضدّ البدو الذين كانوا يقومون بغارات للسلب والنهب. وكان دين زرادشت مرتبطًا بالفئة الأولى (رعاة الماشية المستقرين)، ضد الدين التقليدى الذى قدم الأضحيات للآلهة الصغرى أو الديڤا Daévas ـ الذى اعتنقته ـ الفئة الثانية. وكان زرادشت فى الأساس مهتمّا فيما يبدو بتأسيس مملكة الصلاح والتقوى (ملكوت الصلاح والتقوى) هنا على ظهر البسيطة. ومن هنا أتى تقسيمه للمجتمع البشرى إلى «أهل الحق» و «أهل الكذب أو الضلال» يعكس ما هو موجود فعلاً من أمور المجتمع الذى عاشه، ومن هنا انطلقت أفكاره المتعلقة فيما بعد الحياة من موقف أرضى أو دنيوى متين، ولأن رأب زرادشت قد اختار الحق والصلاح منذ الأزل؛ لذا فقد اعتقد زرادشت أن ربّه لا بد أن يُعاقب على الشر ولا بد أن يجازى خيرا على الخير، بل إن زرادشت آمن أن يومًا سيأتى تقوم فيه مملكة (أو ملكوت) الصلاح والخير هنا على الأرض: «فلتعلن لى أيها الرب الحكيم الواحد، يا أفضل الكلمات والأعمال. من خلال الصلاح والنفس الطيبة Good Mind نعلن دينْ dept المديح الذى علينا لك. من خلال مملكتك (ملكوتك) اجعل ما هو ممتاز (فراشا Fra-sha) وفقًا لمشيئتك» (Yasna,34,15). هذا الاكتمال أو التمام أو تجديد الوجود، كان زرادشت هو الذى عمل على تحقيقه بنفسه لأنه راح يتضرع، ربما كنا نحن الذين سنجعل الوجود ممتازًا. . عندما ستتفق كل العقول على أن التعاليم السائدة فاسدة» (Yasna,30.9) وعلى أية حال، فإن هذا الأمل سرعان ما تلاشى وراح النبى يتطلع «لوجود ثانٍ second existence» تُقيد فيه قدرة «أتباع الضلال Lie» (Yasna,45.1).

وفى هذه الأثناء، يُكافأ الصلاح بالخلود وسينال الشر عقابًا أبديًا. وأعلن النبى بلا غموض:

«سأعلن الكلمة التى أعلنها الواحد القدوس لى Most Holy One ـ سأعلن أفضل كلمة سمعها بشر: «كل من سيصغى إليه (إلى النبى) من أجلى يصل إلى الكمال والخلود بإنجاز أعمال النفس الطيبة Good Mind (هكذا قال) الرب الحكيم. . . الذى منه كل البشر الذين هم على قيد الحياة الآن والذين كانوا قبل ذلك، والذين سيكونون فيما بعد، سيتلقون نصيبهم من الويل (أو المحنة)؛ لأنه وزع كليهما (جعل لكل واحد نصيبًا منهما). قوة الخلود ستكون لأرواح أتباع الحق، والعذاب الأبدى سيكون من

نصيب أولئك الذين يشقون طريقهم إلى الكذب (الضلال) هكذا فعل الرب الحكيم وجرى قضاؤه من خلال قوته المهيمنة» (Yasna 45,5.7) .

فالإنسان إذًا يواجه الحكم الصادر له أو عليه بعد الموت : فالصالح يكافأ بالفردوس «heaven» ؛ حيث الحياة الفُضلى وبالخلود والكمال متحدًا مع النفس الطيبة أو العقل الصالح Good Mind (Yasna28.8,46.12.14) ، حيث ينعمون فى «بيت الإنشاد House of song» (انظر على سبيل المثال Yasna 51.15) أما الأشرار - من ناحية أخرى - فسيحيق بهم «العذاب الدائم» يطعمون طعامًا كريهًا (Yasna,13.20; 49,11) فى «بيت الضلال» (Yasna,49.11; 51.14) . والحياة بعد الموت إذن تبدو امتدادًا للحياة على الأرض أى تنطوى على نوع من الجسد ، لأنه بالنسبة لزرادشت وأتباعه تعنى حياة الروح والجسد ، ولكى يكون هذا الإحياء حقيقة تطلع أتباع زرادشت لإحياء الجسد فى نهاية الزمان . وعلى أية حال ، فالمحاكمة الفردية الفعلية بعد الموت ، قد ذكرها زرادشت نفسه . وموضعها على «جسر المجازاة Bridge of Requitter»(١) (Yasna,46. 10 -11; 51.13) ؛ حيث تمتحن الأرواح بمعدن مصهور ونار (Yasna 51.9) ربما كان شكلاً من أشكال التعذيب تعرض له أتباع زرادشت الأوائل (Yasna 32.7) . وبعد المحاكمة يلاقى كل مصيره ، الأولى للنعيم الدائم والثانية للشقاء الباقى . لقد تقررت هذه المحاكمة منذ البداية ، ويبدو أن زرادشت نظر إليها باعتبارها خاتمة المطاف ؛ لأن جوهر رسالته للبشر قائم على المسئولية التى أناطها الله به ، وأن إساءة استخدام هذه الحرية والمسئولية لا يمكن أن تؤدى إلاّ إلى عذاب مقيم . ولنقتبس أخيرًا فقرة من فقرات نبينا الذى نحن بصدده :

«الآن تحقَّقْت ، أيها الرب الحكيم من أنك كنت قُدّوسًا ، عندما رأيت ذلك فى البداية عند ميلاد الوجود . فأنت قضيت أن الأعمال والكلمات المنطوقة سوف تلقى جزاءً عادلاً» .

«الشر بالشر ، والخير بالخير فى نهاية هذا العالم المخلوق وإلى حيث يمتد سلطانك» (Yasna 43.5) .

---

(١) لعله الصِّرط (؟) - المترجم .

الزرادشتية بعد زرادشت الأخرويّات (الإيشا تولوچيا) :

يبدو أن مثل هذه الأفكار هي المعتقدات الرئيسية التى أعلنها زرادشت نفسه ، فأحد التعاليم الرئيسية التى أصبحت فيما بعد جزءًا متممًا للدين الزرادشتى ، كانت عقيدة لم يشر إليها زرادشت إلاّ بكل وهن أو بتعبير آخر كان لها مجرد ظلال فى إشاراته ونعنى بها عقيدة إقامة الأجساد وإعادة الحياة إلى الأبد ، وتحلّقت هذه الفكرة حول شخص السوشيانت Soashuant - وهى كلمة عادة ما تترجم إلى الإنجليزية «Saviour أى المخلّص» لكن ربما كان من الأفضل أن نترجمها إلى «ذلك الآتى بالحظ السعيد he who will bring good fortune» وفى الجاثا Gathas ترد الكلمة عدة مرّات لكن يبدو أنها تشير إلى زرادشت نفسه (انظر على سبيل المثال Yasna 45.11,48.9) أو إلى حاكم دنيوى سيرسّخ دينه (أى دين زرادشت) على الأرض ، ومملكة أو ملكوت الحق والصلاح على الأرض لم تتحقق على أية حال ، وبالتدريج أصبحت منوطة بالمخلّص (السوشيانت) الذى تطلع الناس إلى مجيئه فى آخر الزمان عندما يتم دحر سلطان الشر نهائيًا . «عندئذ سيجعل المخلص (السوشيانت) وأتباعه العالَم أكثر امتيازًا وسيجعله دائمًا ، وغير فاسد ، لا يتعرض للفوضى وسيعيش إلى الأبد فى رخاء ، وسيعمل كل إنسان وفقًا لإرادته ، وسيقوم الأموات ، وسينعم الأحياء بالخلود . . لن ينتهى عالم المادة ، . . . وسينتهى الضلال Lie إلى غير رجعة» (Yasnaht 19.89-90) .

هذه العقيدة الأخروية التى تتطابق مع الزرادشتية ربما نشأت فى« العصر الأخيمينى - Achaemenian» - رغم أننا لا نستطيع إثبات ذلك - وتطورت تطورًا كبيرًا فى الكتابات التى أتت بعد ذلك . إنها - أى هذه الفكرة - أدخلت عنصرًا جديدًا فى تعاليم زرادشت ، حيث تنتهى القصة بإطلاق كل الخاطئين من جهنم وتقديمهم إلى حيث البركة الأبدية (The teachings of Magi, by R.Zaehner,1956 pp.139.150) .

فالفراشكارت Frashkart أو إصلاح الخلق أو إعادة تأهيلهم Rehabitation - على أية حال - لا ينطبق على يوم الحساب فى المسيحية . فالأرواح تحاسب كلٌّ على حدة عند الموت ثم يتم إرسالها إلى الجنة أو إلى جهنم وفقًا لما تستحقه .

وعندما يتم إصلاح الخلق وإعادة تأهيله أخيراً، فى نهاية العام الكونى ١٢٠٠٠ يولد المخلِّص (السوشيانت) من بذرة زرادشت بشكل إعجازى، ويظهر ويحيى أجساد الموتى، وتلتحم بها أرواحها من جديد، ويتم غمر الجميع فى بحر من معدن مصهور يطهرهم مما تبقى من خطاياهم. وبعد هذا التطهير النهائى يدخل كل البشر الفردوس وينعمون فيه إلى الأبد. «وسيصبح كل البشر وهم يمدحون بصوت جهير الرب الحكيم والخلود السخى Bounteous Immortals» (Ibid,p.148). «وسيصبح العالم المادى خالدًا إلى الأبد» (Ibid,p.150) وسيخلد أهريمن Ahriman (الشيطان) وأتباعه فى الجحيم ليهلكوا أو ليصبحوا مسلوبى القوة إلى الأبد.

اللاهوت

لقد رأينا بصدد حديثنا عن النبى زرادشت، أنه اعترف بوجود روحين، روح مقدسة، وروح شريرة، اختارت كل منهما منذ البداية اختياراً حرّاً لا نهائيّا (لا يُنْسخ أو يُغيّر) بين الخير والشر. أما أهورا مزدا الذى هو الله، فقد كان بمعنى من المعانى مطابقًا للروح القدس Holy Spirit وأعلن نفسه ضد الروح الشريرة Evil One. وعلى أية حال فعن أصل الروح الشريرة، صمت زرادشت. حقيقة أن عنصرى الثَّنوية كاملة a total dualism وجدا فى أصل أو بذرة germ فى الجاثا Gathas ما دام «أهورا مزدا» قد ارتبط دائمًا بالروح القدس والصلاح، وأعلن إدانته المطلقة للضلال (الكذب Lie) وكل ما يقترفه من أعمال. وعلى أية حال، فهذا لا يعنى أن زرادشت اعتقد فى وجود مبدأين منفصلين مسئولين عن العالم (الكون)، وإنما يعنى فيما يرى أن الله رفض الشر وأدانه فى اللحظة نفسها التى نشأ فيها (أى الشر).

وعلى هذا ففى الجاثا Gathas نجد «أهورا مزدا»، والروح القدس مرتبطين بشكل جوهرى لكنهما ليسا شيئًا واحدًا identical، ففى فقرة واحدة تمت الإشارة إلى «أهورا مزدا» كأب Father للروح القدس. فما هى علاقة الأب (أهورا مزدا) بالروح الشريرة أنجرا مانيو Angra Mainyu أو «أهريمن Ahriman» كما سُمّى فى فترة لاحقة؟ هذا هو الموضوع الذى كان على اللاهوتيين الزرادشت أن يعطوه حقه من البحث حتى الفتح

الإسلامى للإمبراطورية الفارسية وبعد ذلك بفترة طويلة . وتعقد الموقف بالحقيقة التى مؤداها أنه فى فترة باكرة تم اعتبار الروح القدس مطابقة تمام المطابقة لأهورا مزدا (الله) بل وأصبحت ببساطة اسمًا آخر له. والآن فإننا نجد فى الجاثا Gathas أن الروح القدس والروح الشريرة توأمان. وإذا كان الروح القدس مجرد اسم آخر لأهورا مزدا (الله) فهذا يعنى أن الله والشيطان أو أهورا مزدا، وأنجرا مانيو أو أهورا مزدا وأهريمن كما سميا بعد ذلك ـ كانا أخوين توأمين، وإذا كانا كذلك فلا بد أن لهما أصلاً واحداً (أبًا واحدًا) progenitor مشتركا. وعلى هذا وضع أتباع النبى فوق أهورا مزدا وأهريمن أو فى الزمن اللامتناهى Zurvan akanarak (or Infinite Time) ـ وهكذا أصبح هذا هو المبدأ الأول الذى خرج منه روح الخير وروح الشر. لكن الأمر غير ذلك ففقرات الجاثا Gathic passage إما تم تجاهلها أو أسيئت ترجمتها، ومن هنا تمت إذاعة الثنوية الخالصة (ولم تكن الزرادشتية الأصلية فى حقيقتها كذلك)، وبناء على هذه الثنوية أصبح أهورا مزدا Ohrmazd و أهريمن Ahriman أى الله والشيطان مبدأين أزليين مشتركين، أحدهما (الله) خير خالص، والآخر (الشيطان) شر خالص. وعندما تم إحياء الزرادشتية كدين للدولة الساسانية (٢٢٦ ـ ٦٥٢م) أصبحت الثنوية الخالصة فى النهاية هى العقيدة الرسمية للدولة، وأصبح ينظر إليها باعتبارها العقيدة الأصلية (الأرثوذكسية) وربما كان ذلك فى عهد خسرو الأول khusraw I (٣٥١ ـ ٥٧٨م).
وبعد الفتح الإسلامى ظلت هذه الثنوية الجامدة تمثل العقيدة الأرثوذكسية للزرادشت: إنه الدين الذى انتقل من خلال ما يسمى بالكتب البهلوية pahlavi التى رغم أنها كتبت فى غالبها فى شكلها الحالى فى القرن التاسع للميلاد، إلاّ أنه من المؤكد أنها تمثل وجهات نظر اللاهوتيين فى القرن الأخير من حكم الإمبراطورية الساسانية، وهكذا أصبحت الزرادشتية والثنوية كلمتين مترادفتين «ولم يكن الأمر كذلك كما أشار المؤلف قبل ذلك وإنما هذا من سوء فهم الرسل (الدعاة) واللاهوتيين ـ المترجم» ولم يحدث إلاّ فى خلال القرن الأخير أن تم إحياء البقايا الباقية لعقيدة النبى، فقد فكر الفرس فى الهند فى أنه من المناسب إعادة بحث هذه الثنوية الجامدة.

ولا يكاد يكون هناك إلاّ القليل من الشك فى أن هذا التغير كان بتأثير المسيحية كما فُهمت فى الهند، كما كان أيضًا نتيجة عدم شعور الزرادشت أنفسهم بعدم الارتياح

للثنوية التى بدت لهم غير محترمة كل الاحترام. وعلى نحو ما كانت الثنوية رحمة لأن الثنوية الكلاسية Classic dualism كما وردت فى الكتب البهلوية، ربما كانت هى أكثر الحلول عقلانية لمشكلة الشر.

وعلى أية حال فبالنسبة للزرادشت الأرثوذكس (الأصوليين) فى الدولة الساسانية وبداية الفترة الإسلامية كان هناك منذ البدء مبدآن لا مبدأ واحد. ففى كتبهم التى تحوى خلاصة عقيدتهم نقرأ: «لا بد ألاَّ يتطرق إلىَّ الشك فى وجود مبدأين أوليين أحدهما خالقٌ creator والآخر مدمِّر destroyer، الخالق هو «أهورا مزدا» وكله خير ونور، والمدمر أو المخرِّب هو «أهريمن» الملعون الممتلئ شراً وموتًا وضلالاً (كذبًا) وخداعًا» .(Ibid,pp.22.23)

وكان هذان المبدآن وفقًا للتصوّر السائد يوجد أحدهما فى السمو (العُلو) فى النور، ويوجد الآخر فى الدّنو (إلى الأسفل) فى الظلمة، ويفصل بينهما الفراغ void .(Ibid,pp.34-35)

«وأهورا مزدا» الذى هو «الله» أو مبدأ الخير تحقَّق من أنَّ عدوه عرف بوجوده وأنَّه سيهاجمه «لأن إرادته هى أن يؤذى ويقتل to smite» (Ibid.p.36)؛ لهذا خلق العالم الروحى والعالم المادى كوسائل لحماية نفسه، فبضربة واحدة حلّت الثنوية الزرادشتية «التقليدية Classical» تلك المشكلتين العويصتين - أصل الشر وسبب الخلق، بل وفرغتهما من كل ما فيهما من أسرار وغموض. فإذا كان الشر مبدأ منفصلاً فإن أصله لم يعد غامضًا، والخلق لم يعد - بهذا التفكير - انسيابًا غامضًا من الله، وإنما أصبح - ببساطة - وسيلة يحمى بها نفسه من عدوه الأزلى.

فالله يخلق لأنه يجب أن يفعل ذلك، أو يجب أن يخلق بصرف النظر عن اهتمامه بالخلق، وأكثر من هذا فهناك نوع من العدالة المعيَّنة ذات الطابع الشعرى poetic justice فى الأمر كله: لأن الواحد الشرير the Evil One بحكم طبيعته النزاعة للفوضى والغباء - تكمن فيه أداة تدمير نفسه، فهو يغزو العالم ويسبب الموت والمرض والخطيئة ويحلّها جميعًا فيه (أى فى العالم) ورغم قدرته على إيذاء خلق الله إيذاء عظيمًا، فإن الإجبار الداخلى (الكامن فيه) على تحطيم ذاته يظل موجوداً بشكل أكبر،

لأنه منذ أن دخل العالم أصبح سجينًا فيه، كسائمة وقعت فى شَرَك فراحت تدور مندفعة حول الخراب الناتج عن اندفاعها. وقد جرى التعبير عن هذا المأزق، أو البرهان المتناقض بالكلمات التالية:

أهورا مزدا «مثل مالك بستان، أو مثل بستانى حكيم، قصدت البهائم والطيور المؤذية والمخربة أن تلحق الضرر بأشجار بستانه وثمارها، فقام البستانى الحكيم ليقى نفسه المتاعب وليجعل هذه السوائم وتلك الطيور المضرة خارج بستانه، بتدبير وسائل لاصطيادها كالفخاخ والشَّراك.. حتى إذا ما رأت هذه الشراك والفخاخ وحاولت الإفلات منها، وقعت فيها وهى لا تعرف طبيعتها. إنه من الواضح أنه عندما وقعت البهيمة فى الشَّرك، فإن ذلك لم يكن بفعل قوَّة الشَّرك فى حد ذاته، وإنما بفعل قوَّة صانع الشرك (الذى نصبه) ويعرف مالك البستان وناصب الشرك بحكمته مدى قوّة البهيمة ومدى الفترة التى يمكن أن يظل الشرك ممسكًا بها. فالقوة والطاقة اللتان توجدان في جسد البهيمة تمت معادلتهما بالمقاومة ضد الشرك ونسبة القوة اللازمة لوطء الشرك ونزعه، وتحطيمه، وما دامت قوة البهيمة غير كافية، فإن طاقتها ستُستنفد وتُصبح قوتها غير ذات مفعول. وهنا يكون البستانى الحكيم قد وضع خطته موضع التنفيذ، ويعلم بنتائج عمله إذ يقود البهيمة خارج الشرك، فيبقى جوهر البهيمة كما هو، لكن أثرها أو فاعليتها المدمِّرة يكون بغير مفعول، ويُعيد البستانى شراكه كما كانت لم تتحطم إلى مخزنه ليعيدها بعد إصلاحها مرة أخرى» (Ibid,pp49.50).

فعملية الخلق - إذًا - هى شَرَك وقع فيه الشيطان، ويقف الإنسان فى المقدمة مواجهًا له فى المعركة. وعلى أية حال، فإن الملائكة الأقوى من الإنسان هى الأكثر اهتمامًا بهذه «المعركة الكونية - Cosmic battle»، «فالملائكة» angels و«الأرباب - Gods» مخلوقات روحية تشبه كثيرًا الملائكة فى اليهودية والمسيحية والإسلام. وستة من هذه الملائكة وردت فى الجاثا Gathas حيث نجدها - على أية حال - أقرب ما تكون إلى قُدرات faculties الله الواحد وهى: «النفس الطيبة - the Good Mind»، والصلاح Righteousness، والملكوت Kingdom، و«التفكير الصائب - Right mindedness»، والكمال والخلود. وفى الزرادشتية اللاحقة (المتأخرة زمنًا) أصبحت هذه القدرات كينونات منفصلة separate entities على نحو يمكن أن نطلق على كل

منهـا رئيس ملائكته archangels وأصبح لكل منهـا وجود شـخصى أو ذاتى كـامل. وبالإضافة لهـذا فبعض الآلهة القديمة ـ على أية حـال ـ التى كان زرادشت قد أنكرها أو جعلها شيطانية، عادت للظهـور كملائكة ذوات سلطان تحارب إلى جانب الله (أهورا مـزدا)، وأعظمـهـا هـو مترا Mithra الذى كـان يقـوم بمثل هذا الدور المدهش فى بداية الإمبراطورية الرومانية. هذه المخلوقات الروحانية تشن حربًا لا تنتهى ضد «أهريمن» وكل مـخلوقـاته الشيطانية. وكـان على الإنسـان أيضًـا أن يؤدى دورًا فى الحرب ضـد الشر، وقد أدى هذا الدور فى الأساس بالتزامه التفكير الطيب ونطقه بالكلمات الطيبة وأدائه الأعمال الطيبة بالتناسل وفلاحة الأرض؛ لتكون مثمرة لأن الحياة لكونها خلق الله (أهورامزدا Ohrmazd) لا بد من حفظها ضد الموت الذى جلبه للعالم عدو الله أهريمن Ahriman. والعالم المادى ـ أيضًا ـ هو خلق «أهورامزدا» لذا فهو طيب، ولهذا فلم يكن فى الزرادشتية فى أى وقت من الأوقات نظم نسك أو تقشف (صوفية) -ascet icism ما دام احتقار الحياة المادية يعتبر بالنسبة لهـم نوعًا من الكفر أو التجديف على الله. وبالنسبة للزرادشتيين لا يعتبر الشر مرادفًا للمادة، وليس الأمر كذلك بالنسبة لأتباع مانى (المانوية Manichees)، بل إن الزرادشتيين يعتبرون المادة خيرًا، وإن الشر مبدأ روحى معـاد للخَلْق المادى، كما أنه معـاد لله. ومن هنا جـاء احترام الزرادشت للأشياء المادية. خاصة فى شكلهـا الأكثر بساطة، كـالعناصر الأولى ومن بينهـا النار والماء على نحو خاص.

القدرة وحرية الإرادة

لقد رأينا أن حرية الإرادة البشرية ـ ربما كـانت هى العقيدة الأساسية التى أعلن عنها النبى زرادشت نفسه، وهذه العقيدة استمرت فى الأساس فى العصور «الوسطى» وهى من سـمـات هـذا الدين؛ إذ تقـضى بأن الله لـم يجـعل الإنسـان فى هذا الكون World ليحارب الشر Evil One دون أن يحصل على موافقته الحرّة his free consent، بل وأكثر من هذا فقد «تشاور مع أرواح البشر الواعية منذ الأزل وغرس فيها الحكمة الكلية قائلاً لها: أنتم وما ترونه ملائمًا أو مريحًا لكم أأعدكّم فى شكل مادى ومعنى هذا أنه يجب أن تكافحوا متجسدين ضد الضلال Lie وتحطمونه، أو أن نبعثكم (نقيمكم) فى

النهاية لتكونوا كاملين خالدين، ونعيد خلقكم فى شكل مادى لتكونوا أبديين خالدين أزليين بلا أعداء - أو أن نجعلكم محفوظين من الباغى Aggressor؟ ورأت أرواح البشر الأزلية أو الموجودة قبل الوجود بما أوتيت من حكمة العلم الكلى، أنها لا بد أن تعانى الشر من الضلال Lie وأهريمن Ahriman فى هذه الدنيا world، لكن بسبب الآخرة end التى سيُبعثون فيها أحرارًا من عداوة الضِّد Adversary - ليكونوا كاملين خالدين، فقد وافقوا أن يُجْعَلوا فى شكل مادى» (Ibid, p.41).

كل الأديان - عاجلاً أم آجلاً - لا بد أن تخوض فى الجدل حول الاختيار والجبر، أو بتعبير آخر حرية الإرادة والجبرية، أو بتعبير ثالث القضاء والقدر المفروض من الله، من ناحية وتشكيل الإنسان لقضائه وقدره بنفسه من ناحية أخرى، وقد اتخذ زرادشت موقفه بثبات إلى جانب حرية الإرادة المطلقة، لكن هذا لم يمنع تسرب الجبرية إلى دينه فى فترة الحكم الساسانى وما بعدها. والمثال الصارخ على ذلك يمكن عرضه من النص التالى: «عندما يساعد القدر الرجل الشرير الكسول ذا العقل غير المستقيم فإن كسله يصبح كالطاقة، ويُصبح عدم استقامة عقله حكمة ويصبح شره كالخير، وعندما يعاند القدر الحكيم المهذب ذا العقل الراجح تنقلب حكمته إلى بلاهة وغباء وينقلب أدبه وتهذيبه إلى سفه ولا يجدى علمه وأدبه ورجولته» (Menoke I Khrat,51).

وعلى أية حال، فهذا انحراف خطير عن تقاليد زرادشت النبى، والنظرة السلفية (الأرثوذكسية) تظهر أكثر صدقًا فى النص التالى: «تنقسم الأشياء فى هذا العالم إلى خمسة وعشرين قسمًا: خمسة من خلال القدر، وخمسة من خلال العمل، وخمسة من خلال الطبيعة، وخمسة من خلال الشخصية، وخمسة من خلال الميراث (الوراثة). فالحياة والزوجة والأطفال والسلطة والثروة **قدر**، والعضوية فى إحدى طبقات رجال الدين والمقاتلين (الجند) والمزارعين، والفضيلة والرذيلة **عمل**، ومباشرة الزوجة وإرضاء الحاجات الطبيعية، الأكل والشرب والمشى والنوم، كل ذلك من خلال **الطبيعة**، والصداقة والاحترام والكرم والصلاح والتواضع كل هذا من خلال **الشخصية**. والجسم والمكانة والفهم والذكاء والقوة، كل هذا عن طريق **الوراثة**» (Pahlavi Texts,p.82).

تلخص الكلمات الآتيات المبادئ الأخلاقية الزرادشتية : «أفكار طيبة ، وكلمات طيبة ، وأعمال طيبة» وإذا كانت الزرادشتية الباكرة قد أصبحت ثَنوية dualist فذلك راجع إلى أن إله زرادشت متطابق تمامًا مع الطيبة والصلاح لدرجة أنه لم يكن هناك مجال للتفكير فى أن يكون حتى بشكل غير مباشر مسئولاً عن الشر . لقد رأينا أن أكثر «الجوانب aspects» بروزًا أو هيمنة فى «أهورا مزدا» فى الجاثا Gathas ـ النفس الطيبة ، والصلاح والملكوت والعقل السَّوى ، والكمال والخلود ـ قد أصبحت فى زمن لاحق رؤساء ملائكة Orchangles .

وعلى أية حال فهى كصفات أو مزايا جيدة مشتركة بين الله والإنسان ، لأن الكمال والخلود هما القدر الذى من أجله قصد الله الإنسان ؛ حيث الصلاح وطيبة النفس والقصد من الصفات الإلهية التى يجب على الإنسان أن يحذو حذوها .

وعلى كل حال ففى العصور الوسطى جرى تفسير الصلاح بمعنى «التَّوسُّط the mean» ولا يمكن أن يكون هناك شك فى أن هذه الفكرة مُستعارة من أرسطو ـ Aristotle وقد تشربها الإيرانيون لدرجة زعمهم أنها فكرتهم ، فنحن نقرأ أن : «إيران كانت دائمًا مستوردًا للتوسّط the mean» تنتقد المبالغة أو الإسفاف والعجز والنقص . وفى الإمبراطورية البيزنطية وجدنا الفلاسفة ، وفى الهند وجدنا المتعلمين ، وفى أماكن أخرى وجدنا الاختصاصيين كلهم ـ بشكل عام ـ يمتدحون الشخص إذا أظهرت حجته حدةَّ ذهن وكياسة ، لكن فى مملكة إيران لا يبدون موافقة إلاَّ على الحكمة الحقيقية (Dénkart,Madan p:429) .

لقد صارت الأخلاق الزرادشتية متقنة بشكل كبير ، خلال الفترة الساسانية عندما أصبحت دين الدولة الرسمى . وليس مما يدعو للدهشة إذًا أن نجد فيها بصمة أرسطية . فالأخلاق الزرادشتية فى الأساس هى أخلاق الشخص المهذَّب (الجنتلمان) وحتى بعد انقضاء الإمبراطورية الفارسية على يد المسلمين وحلول الإسلام تدريجيًا محل الزرادشتية وانتشاره فى الأراضى الإيرانية ، ظلت الأخلاق الأرسطية (المعزوّة إلى أرسطو) مرسّخة وجودها فى المناخ الدينى الجديد وظلت باقية فترة طويلة قبل أن تتفتّت ديانة النبى (زرادشت) قبل اجتياح أتباع نبى آخر (يقصد

محمداً ﷺ) القادمين من شبه الجزيرة العربية حيث البداوة (النص : bar- Arabia barious أى شبه الجزيرة العربية المتبربرة) .

ومن المتوقع من الزرادشتى أن يتناسل reproduce himself معتبراً ذلك واجبًا دينيًا وأن يجعل الأرض خصبة ويجب أن يرضى بنصيبه وأن يعمل دائمًا ما هو طيب ولا يجازى بالشر شرًا (Ibid,p.113) والمبدأ السلوكى الأساسى الذى يجب أن يتبعه المرء هو أن «يحب للآخرين ما يحب لنفسه» وهو مبدأ صحيح أيضًا بالنسبة للمسيحى والبوذى والكونفوشيوسى (*)

فالأخلاق الزرادشتية يمكن مقارنتها بالأخلاق فى سفر الأمثال وسفر الجامعة . إنها فى الأساس أخلاق التوسط أو الاعتدال . إنها أخلاق مهذّبة مصقولة urbane فالشرب (المقصود شرب الخمر) باعتدال يلقى استحسانًا ، أما الإسراف فى هذا الشىء الطيب فمرفوض وموضع توبيخ . والعالم لا هو أسير ولا هو منفى كما فى كثير من الأديان ، إنه مسكن انتقالى فيه كثير مما هو طيب وباعث على البهجة ، ويعد تراجعًا عن الخطيئة أن يقوم المرء بعمل أفضل الأشياء على هذه الأرض «اعمل فى القداسة أى شىء ترغبه» تلك قاعدة سلوكية ذهبية . وتمقت الزرادشتية العبارات الموهمة بالتناقض ؛ لذا فلن نجد فيها أيًا من هذه العبارات المتناقضة ظاهراً paradoxes التى تزخر بها المسيحية والبوذية . وليس هناك حاجة للتضحية بالنفس على نحو بطولى أو ضرورة لأن يحب المرء عدوه وأن يبارك لاعنه ، ما دام هؤلاء الأعداء لا بد أن يكونوا على أية حال «أتباع الضلال ـ Lie» والضلال أو الكذب هو رأس كل خطيئة ، وأكثر من هذا «فلا تتخذ من عدو الأمس صديقًا لأن العدو القديم كالحية السوداء لا تنسى الجروح القديمة لمئات السنين» حقيقة أن نار النبى (زرادشت) لم تعد متوهّجة فى الأخلاق التى تطورت حاملة اسمه خلال فترة الحكم الساسانى لكن الحكمة الدنيوية التى أبداها الزرادشتيون ظلت جزءاً من الموروث الإيرانى حتى يومنا هذا ، بينما زرادشت الذى هو ابن إيران الأعظم ، لا يمثل بالنسبة للإيرانى العادى إلاّ ما يزيد عن كونه مجرّد اسم .

(*) لم يذكر الإسلام مع وجود أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ بالمعنى نفسه .

القربان المقدَّس

الطقس المحورى للزرادشتيين هو الياسنا Yasna وهى كلمة تعنى حرفيًا «تقديم الأضاحى». وكما رأينا لقد هاجم زرادشت بعنف طقس الأضحيات القديم الذى كان يعنى ذبح ثور، وتقديم شراب متخمّر من نبات يسمى الهوما Haoma، بل إن تناول شراب الهوما هذا كان منذ وقت سحيق يشكل محور الطقس الزرادشتى وسواء كان هذا الطقس ـ بشكل ما ـ قد تسامح زرادشت بشأنه حقًا، أو أنه طقس قد دخل الزرادشتيه بعد ذلك على عكس ما كان يريد، فإنه ـ أى هذا الطقس ـ لم يكن أبدًا موضع خلاف فى أى وقت من الأوقات، ومن أى جماعة زرادشتية. لقد وعد زرادشت أتباعه بالخلود، وفى طقس «عصير الهوما ـ Haoma-juice» يوجد «الإكسير ـ elixir» الذى يهبُ الخلود، والهوما ليس مجرد نبات (انظر على سبيل المثال The Indian Soma,p.226) إنه أيضًا رب god (بمعنى مَلَك كما سبق واتضح من المقال ـ المترجم).

وابن أهورا مزدا، وفى الطقس« النبات الرب ـ The plant God» يتم سحق النبات فى الهاوية، إنه بهذه الطريقة ـ كما يقال ـ يتم التضحية بالرب (النبات) ويقدم نفسه إلى أبيه السماوى، ويعتبر الهوما ـ كلاسيًا ـ كاهنًا وأضحية فى الوقت نفسه ـ ابن الله إذًا يقدم نفسه لأبيه السماوى. وبعد ذلك يقدم الشراب فيشترك الكاهن والمؤمن فى الشراب السماوى، بذلك يشترك الجميع مع الله فى الخلود. وهذا القربان المقدس هو عربون الحياة الأبدية التى سيرثها البشر روحًا وجسدًا فى الأيام الأخيرة. والفكرة شبيهة بشكل مدهش بفكرة «القدَّاس الكاثوليكى ـ Catholic Mass».

لقد تلاشت الزرادشتية عمليًا من عالم اليوم، لكن كثيرًا مما دعا إليه النبى الإيرانى لا زال يعيش اليوم فيما لا يقل عن ثلاثة أديان كبرى: اليهودية والمسيحية والإسلام. إنه يبدو من المؤكد تمامًا أن تعاليم زرادشت الأساسية كانت معروفة لليهود فى الأسر البابلى، وعلى هذا فقد حدث فى هذه القرون الحيوية ـ رغم غموضها ـ السابقة على قدوم المسيح أن تشربت اليهودية فى شرايينها وأوردتها كثيرًا من تعاليم زرادشت أكثر مما كانت ـ أى اليهودية ـ تستطيع تقديمه، ويبدو من المحتمل أن اليهود أخذوا من تعاليم زرادشت أو تعاليم أتباعه المباشرين فكرة خلود الروح وقيام الجسد، والشيطان الذى لا

يأتمر بأمر الله إنما هو عدو له. بل ربما أيضًا فكرة «المخلّص - Savioir» الذى سيظهر فى نهاية الزمان. كل هذه الأفكار - بشكل أو بآخر - قد انتقلت للمسيحية والإسلام. هناك عقيدة واحدة فى الديانة الزرادشتية تم رفضها - تقليديّا - رفضًا تامّا، إنها العقيدة التى أصبحت حجر الزاوية فى كل النظام الزرادشتى، وإن كانت فيما يبدو مُقحمة على تعاليم زرادشت نفسه أو دخيلة عليها - وهى فكرة الوجود الأزلى المشترك لمبدأى الخير والشر. هذه الفكرة رغم اتفاقها مع العقل إلاّ أنها ضد الغريزة الدينية المتعمقة فى الإنسان، ورفضها اليهود والمسيحيون والمسلمون على سواء، بل ووفقًا للفرس المحدثين الذين راحوا يوازنون الأدلة فإن هذه الفكرة كانت مرفوضة من زرادشت نفسه على الأقل بشكلها الجامد الذى ظهر فيما بعد.

لقد كان زرادشت واحدًا من أعظم العباقرة الدينيين فى كل العصور، إنه النبى الذى اعتقد أنه أجرى حديثًا مع الله. لقد غمطه من أتوا بعده حقّه. إنهم الذين لم يكتفوا بإحلال آلهة غير الإله الواحد محل الدين الذى أتى به، تلك الآلهة التى كان زرادشت قد أنزلها من فوق عروشها، وإنما حولوا دعوته النبوية إلى ثَنْوية جافة حطمت فكرته عن الله كموجود قدسى صالح وطيب. لكن الزرادشتية فى عهد الدولة الساسانية وإن كانت قد شوهت دعوة النبى (زرادشت) إلاّ أنها ارتبطت - رغم هذا - بالتعليم الأساسى للنبى (زرادشت) أعنى أن الله هو خير Good تام بكل ما فى الكلمة من معنى رغم كل الظواهر المعاكسة لهذه الفكرة.

***

الفصل الثانى

سلمان فى مرحلته المسيحية
سلمان راهب فى صحبة الرُّهبان

- سلمان والراهب الذى يأكل أموال الناس بالباطل
- سلمان ورهبان صالحون
- دمشق - الموصل - نصيبين - عمورية
- علامات النبى ﷺ
- البشارة بالنبى ﷺ
- الخلافات المذهبية فى المسيحية
- حيرة سلمان
- المسيحية فى بلاد فارس
- خروج هِرَقل على الشريعة
- تسابيح
- ملحق الفصل: عرض لدراسة أعدها ج. ديفز عالم اللاهوت عن الكنيسة الأولى.

تحوَّل سلمان إلى النصرانية كما قرأنا على لسانه فى الفصل السَّابق، ولنسمع كلماته البسيطة الموجزة ننقلها للقارئ كما رواها ابن إسحاق وقدمها لنا ابن هشام، ثم نتدبَّر معانيها شارحين ومفصِّلين: «دخلت معه (أى مع أسقف الكنيسه بالشام، ولم يذكر سلمان اسمه ولا اسم كنيسته) وكان هذا الأسقف رجل سوء، يأمرهم بالصَّدقة ويرَّغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه شيئًا منها اكتنزه لنفسه، ولم يعطه المساكين، حتى جمع سَبْع قلال من ذهب وَوَرَق (فضة) فأبغضتُه بغضًا شديدًا لما رأيته يصنع، ثم مات (أى هذا الأسقف) فاجتمَعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إنَّ هذا كان رجل سوء، يأمركم بالصّدقة ويرغّبكم فيها، فإذا جئتموه بها، اكتنزها لنفسه ولم يُعط المساكين منها شيئًا فقالوا لى: وما علمك بذلك ؟ فقلت لهم: أنا أدلكم على كنزه. قالوا فَدُلَّنا عليه. فأريتهم موضعه، فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهبًا وورَقًا (فضة) فلما رأوها قالوا: والله لاندفنه أبدًا. فصلبوه ورموه بالحجارة، وجاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه (أى جعلوه أسقفًا)، فما رأيتُ رجلاً لا يصلى الخمسَ أرى أنه كان أفضل منه وأزهد فى الدنيا ولا أرغبَ فى الآخرة، ولا أدأب ليلاً ولا نهارًا منه، فأحببتُه حبّا لم أحبه لأحد قبله. . فأقمت معه زمنًا، ثم حضرته الوفاة فقلت له: يا فلان، إنى قد كنت معك وأحببتك حبّا لم أحبه شيئًا قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى، فإلى من توصى بى ؟ وبم تأمرنى؟. قال: أى بنى، والله ما أعلم اليوم أحدًا على ما كنت عليه، فقد هلك الناس وبدَّلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلاّ رجلاً بالموصل وهو على ما كنت عليه فالحق به.

فلما مات وغُيِّب (دُفن) لحقتُ بصاحب الموصل، فقلت له يا فلان إنَّ فلانًا أوصانى عند موته أن ألحق بك، وأخبرنى أنَّك على أمْره (مذهبه أو اتجاهه الدينى). فقال لى أقم عندى، فأقمتُ عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه (على مذهب صاحبه وتقواه) فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاةُ قلتُ: يا فلان: إنَّ فلانًا أوصى بى إليك وأمرنى باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى فإلى من توصى بى؟ وبم

تأمرني؟ قال يا بني والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنَّا عليه إلاَّ رجلاً بنصيبين وهو فلان فالحَقْ به، فلما مات وغُيِّب (دفن) لحقتُ بصاحب نصيبين، فأخبرتهُ بأمرى وما أمرني به صاحباى. فقال أقم عندى، فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حُضِرَ (بدأ يحتضر) قلتُ له: يا فلان.. إلى مَنْ توصى بى؟ وبم تأمرني؟ قال يا بنى، والله ما أعلمه بقى أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلاَّ رجلاً بعمورية من أرض الروم، فإنه على مثل ما نحن عليه، فإن أحببتَ فأته، فإنه على أمرنا.

فلما مات وغُيِّب (أى دفن) لحقتُ بصاحب عموريّة، فأخبرتهُ خبرى، فقال: أقم عندى فأقمت عند خير رجل على هَدْى أصحابه وأمرهم، واكتسبت حتى كانت لى بقرات وغُنَيْمة. ثم نزل به أمر الله، فلما حضر (حضرته الوفاة)... قلت له يا فلان إلى من توصى بى؟ وبم تأمرنى؟ قال: والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه، ولكنه قد أظلَّ زمانُ نبى وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام يخرج من أرض العرب، مُهاجره (أى مكان هجرته) إلى أرض بين حرَّتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصّدقة، وبين كتفيه خاتم النبوّة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل» [ابن هشام، جـ٢، ص ص٤٢ـ ٤٤].

***

لسبب ـ ربما كان مفهومًا ـ لم تُوضح كتب السيرة أو كتب التاريخ العام، العقائد الدينية المسيحية التى عاينها سلمان قبل أن يتجه إلى تيماء فالمدينة المنورة، بحثًا عن النبى الذى أشارت إليه النبوءات الكتابية السَّابقة والتى عاينها ـ أى سلمان ـ عند مرافقته للرهبان لفترة طويلة، ومعايشته لهم وتعبّده على نَهْجهم، ومن المعروف أن حياة الرهبان لا تخلو من الدراسة اللاهوتية، فالأديرة كانت دائمًا وظلت طوال العصور الوسطى، بل وربما إلى الآن مخزنًا للكتب الدينية خاصة، ومركزًا للدراسات اللاهوتية خاصة الدينية عامة، بل وحتى مركزًا للدراسات فى بعض المجالات غير الدينية.

لا بد إذًا من تتبع المسيحية فى الأماكن التى تردَّد عليها سلمان قبل أن يدخل فى الدين الحنيف الذى بشَّرت به الديانات السابقة عليه. وهذه الأماكن هى: أصبهان (قرية جىّ) ودمشق والموصل ونصيبين وعمّورية (على وفق رواية ابن هشام)

وهذا يتطلب منا العودة إلى ما قبل القرن السادس الميلادى، لمعرفة جذور الخلافات المذهبية المسيحية وإلى أيِّ مدى أثرت فى فكر سلمان فجعلته يقبل الإسلام بلا مشاكل بعد أن هدَّته الخلافات المذهبية المسيحية. كانت حركة سلمان قبل وصوله المدينة (المنورة) فى انتظار قدوم النبى الذى بشَّرت به الكتب السماوية السَّابقة ـ فى رحاب الدولة البيزنطية، فلنرجع إذًا إلى أحد الكتب التى تناولت تاريخ هذه الدولة، وليكن رجوعنا للكتاب المهم الذى ألفه السيد الباز العرينى رحمه الله [الدولة البيزنطية ٣٢٣-١٠٨١م بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٢م].

بداية العصر البيزنطى تتمثَّل فى انتقال العاصمة السياسية للإمبراطورية إلى الشرق المتأثِّر بالحضارة اليونانية، كما تتمثل فى انتصار المسيحية على الوثنية، ولفظ (البيزنطية) نسبة إلى بيزنطة لفظ لم يكن يعرفه أهله، فالبيزنطيون كانوا يعتبرون أنفسهم لفترة طويلة رومانًا (رومًا).

وظل الإمبراطور البيزنطى محتفظًا بسلطان لا حدَّ له على الكنيسة، فقد كان الإمبراطور البيزنطى هو رأس الكنيسة أيضًا، لكن سرعان ما جرت مصادمات السُّلطتين الدينية (الكنيسة) والدنيوية (الإمبراطور وجهازه).

وكان الإمبراطور قنسطنطين قد اعتنق المسيحية لأسباب سياسية عندما وجدها تنتشر فى أنحاء الإمبراطورية، لكنه وجد الخلافات المذهبية تكاد تتطوَّر إلى نزاعات حربية فدعا إلى عَقْد مجمع فى نيقية (فى آسيا الصغرى) فى سنة ٣٢٥م. لقد ناقش المجمع مذهب آريوس السكندرى الذى أنكر أن يكون المسيح هو الله واعتبر المسيح مخلوقًا (وليس من جوهر الأب أى الله)، وقد أعلن مجمع نيقيَّة بطلان مذهب آريوس مؤكدًا على العقيدة الأقرب للوثنية وهو أن المسيح هو نفسه الله، ولأن الإمبراطور هو رأس الكنيسة فهو إذًا ممثل للَّه الذى هو المسيح المجسَّد المعروف، وكانت هذه الفكرة مريحة سياسيًّا وقتها، إذ أمدّت الاستبداد الإمبراطورى بتأييد قوى. إلاَّ أنَّ مجمع نيقية وغيره لم يستطع القضاء على الآريوسيَّة، فانتشرت الآريوسية انتشارًا كبيرًا فى الشرق (أى فى الأماكن التى كان سلمان يتردَّد عليها)، بل وتسرَّبت إلى دوائر القصر الإمبراطورى التى طالبت بالعفو عن آريوس وإعادته إلى كنيسته إلاَّ أن إثناسيوس أسقف الإسكندرية تصدَّى لذلك بحزم منذ سنة ٣٢٨م، لكن هذا لم يمنع أحد أبناء قنسطنطين وهو

قنسطنطينوس الذى اختص بحكم الجزء الشرقى من الإمبراطورية من الدفاع عن الآريوسية، وجرت محاولات غير مجدية للتوفيق بين المذاهب لكنها لم تنجح (ما زالت هذه المحاولات قائمة حتى تاريخنا الحديث هذا، وإن كان التوجُّه ينحو نحو الآريوسية). ومات قنسطنطينوس سنة ٣٦١م أثناء حملته على الفرس.

وحدث فى القرن الرابع، أن انتشرت المسيحية بين الفرس فى بابل واكتسيفون (المدائن وهى التى تولّى سلمان إمارتها بعد ذلك فى عهد عمر بن الخطاب) وجندسابور وأشور وأصبهان (وقد تردّد سلمان بعد ذلك على إحدى كنائسها كما يفيدنا ابن هشام) ونظرًا لقوة الآريوسية عُقد مجمع دينى ثان سنة ٣٨١م فى القسطنطينية أعاد إدانة الآريوسية وأكد على ألوهية المسيح وإن أضاف أن الروح القدس منبثق من الأب (وليس الابن).

وفى القرن الخامس، كانت عقيدة التثليث لاتزال مهتزة أمام مذهب آريوس، فعمدت الكنيسة إلى صياغة مذهبها الدينى على شكل قانون إيمان نصّ على الصفة الإلهية للمسيح، لكن هذا لم يوقف الاختلافات الدينية؛ إذ ظهر فى أنطاكية فى أواخر القرن الرابع الميلادى، مذهب يشير إلى أنّ الطبيعة الإلهية والبشرية لم تتحدا اتحادًا كاملاً فى المسيح. وتطوّر هذا المذهب إلى محاولة أربابه البرهنة على أنّ للمسيح طبيعة بشرية مكتملة، ونهى هذا المذهب عن تسمية مريم العذراء بوالدة الإله (والدة المسيح)؛ لأنها لم تلد إلهًا بل ولدت إنسانًا. على أنّ هذا المذهب لم يؤد أول الأمر إلى اضطراب فى الكنيسة لأنّه لم يَسُد إلاّ فى دائرة صغيرة من الناس. لكن عندما تولى بطريركية القسطنطينية البطريرك السورى (الشامى) نسطورس، فرض هذا المذهب على الكنيسة واعتبر أن القول بألوهية المسيح هرطقة.. وهاج الناس وإن كان أكثرهم تشددًا ضد نسطورس هو كيرلس بطريرك الإسكندريّة. وأيّد المجمع الكنسى المنعقد فى سنة ٤٣١م فى أفيسوس حيث أدان نسطورس وأكد عقيدة مجمع نيقية، ولم تنته المشكلة فحاول مجمع خلقدونية ٤٥١م اتخاذ موقف وسط بين النسطورية وغيرها، لكن هذا لم يحل المشكلة؛ إذ زاد الخلاف بين كنيسة القسطنطينية والكنائس الواقعة فى الجهات الشرقية من الدولة البيزنطية (حيث جال سلمان بعد ذلك)» [السيد الباز العرينى، ص ص٥٠-٥١].

وبعد ذلك اشتدت الأقاليم الشرقية فى مقاومة قرارات مجمع خلقدونية [السيد الباز العرينى ص٩٨] واعتبر جستنيان كل معارضيه الدّينيين من يهود ومسيحيين على غير مذهبه هراطقة.

وفى عصر هرَقْل (٦١٠-٧١٧م) كانت المشكلة الدينية ما زالت قائمة؛ إذ يشير بعض المؤرخين إلى أن ما ساد الشام وفلسطين من أحوال دينية مضطربة يسّر على الفرس التوغل غربًا، فالمعروف أنَّ معظم السكان لاسيما فى الشام لم يدينوا بالتثليث فى شكله الصارخ (الأرثوذكسى) الذى يجد التأييد من الحكومة المركزيّة، فآثر النساطرة حكم الفرس لتسامحهم معهم [السيد الباز العرينى، ص١١٩] ومن المعروف أنَّ المجوس (الزرادشتيين) كانوا فى الأصل دعاة توحيد، وما دخل فى عبادتهم بعد ذلك من توقير للنيران وغير ذلك، إنما كان دخيلاً مُبْتَدعًا على ديانتهم الأصلية إلا أن هرَقْل انتصر على الفرس، وكان هرَقْل والكنيسة قد حاولا عبثًا التوفيق بين المذاهب المسَيحية المختلفة، بالقول بمذهب الإرادة الواحدة للمسيح أى اتفاق إرادتَيه البشرية والإلهية إلاَّ أن الراهب صفرونيوس بطريرك بيت المقدس منذ سنة ٦٣٤م عارض هذا الاتجاه بشدَّة.

هذا الاضطراب الذى شهده سلمان هو الذى يسّر دخوله فى الإسلام، وهذا الاضطراب نفسه «هو الذى زاد الأمر تعقيدًا فبدأ استيلاء المسلمين على سوريا (الشام) وفلسطين منذ سنة ٦٣٨م» [السيد الباز العرينى، ص١٣٤] وكان هرقل قد تزوج من ابنة أخته بعد سنة ٦١٢م، وأثار هذا الزواج حنق الشعب المسيحى وحنق الكنيسة؛ إذ إن هذا النوع من الزواج يخالف القانون الكنَسى [السيد الباز العرينى، ص١٣٧] وكان هذا بلا شك مظهرًا من مظاهر الخروج عن الشريعة يهودية كانت أمْ مسيحية، وهكذا بدأ الخروج عن الشريعة بالإضافة لاضطراب العقيدة وهو ما أشرنا إليه سابقًا. لقد كان ضياع الشريعة المجوسية (الزرادشتية) أحد أسباب انهيار فارس كما أوضحنا فى الفصل الأول، وها هى ذى شريعة العهدين القديم والجديد تتحطم على يد هرقل فكان هذا إيذانًا بالسقوط.

نستطيع أن نجزم إذًا أن سلمان الفارسى ﷺ كان فى مرحلته المسيحية أقرب للآريوسية أو بتعبير آخر أقرب إلى مذهب القائلين ببشرية المسيح، لأن دينه السابق على المسيحية (الزرادشتية) لم يكن يقول بألوهية زرادشت وإنما كان يقول بنبوَّته، ولأن الزرادشتية فى بدايتها كانت من أديان التوحيد الخالص، ولأن الآريوسية كانت منتشرة

فى الشام وفلسطين والعراق، ولأن النساطرة الذين كان لهم وجود فعلى فَصلوا بين الجانب البشرى والجانب الإلهى فى المسيح، وهنا لا بد من وقفة عابرة فيما يتعلق بما ذكره الشهرستانى عن النساطرة [الملل والنحل، بيروت دار المعرفة، ١٩٨٠م] إذْ تحدث عن أصحاب نسطور الحكيم الذى ظهر زمان المأمون وتصرف فى الأناجيل بحكم رأيه، وقال إنَّ الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة هى: الوجود والعلم والحياة. . . وإن القتل وقع على المسيح من جهة ناسوته (كونه بشراً) لا على الجانب الإلهى فيه. . . إلخ [ص ص٢٢٤-٢٢٥] **ورغم ما فى أقوال نسطورية عصر المأمون من شبه مع النسطورية السابقة على ذلك والتى عاصرها سلمان الفارسى، إلاَّ أن نسطور عصر المأمون غير نسطور الذى عايش سلمان مذهبه.**

***

وقد أشار الباحث المهتم بتاريخ الأديان، ابن حزم الظاهرى (ت٤٥٦هـ) ـ وهو أندلسى من أصول فارسيّة ـ إلى طوائف مسيحية غير قليلة تُنكر أنَّ يسوع المسيح ابن إله وامرأة أو بتعبير آخر ابن الله من مريم [الفصل بين الملل والأهواء والنحَل، بيروت، دار الكتب العلمية ١٩٩٦م، جـ١، ص٢٦١ وغيرها] وهذا يشير بطَبيعة الحال إلى السبب الكامن وراء تحرى سلمان ومن صحبهم من الرهبان ورجال الدين المسيحى الدِّقة فى اختيار من يرافقهم (أى من يرافقهم سلمان) وهم من المسيحيين الموحِّدين الذين لم يتم القضاء على فكرهم فى أى وقت من الأوقات، هذا رغم تعرض مذهبهم لاضطهاد شديد [عبد الرحمن عبد الله الشيخ: الحركة الأوربية المناهضة للتثليث. الرياض، مجلة كلية الآداب جامعة الملك سعود]

غادر سلمان كل هذا باحثًا عن اليقين، فهيّا نبحث عن اليقين معه.

تسابيح وابتهالات

تركتُ النارَ، فالنار تخبو .

تركتُ النارَ، فإلهى أكبر،

لأعبد ربَّ عيسى،

رَب عيسى الذى ما اتَّخذ صاحبةً ولا وَلدا .

هذا قولُ الرَّاهب الصَّالح

قال : تعالى الله سبحانه

سبحانه ما أعظم شأنه

الراهبُ الصالحُ يخاف الله

كان الإمبراطور يريد إلهًا بشرا

حتى يكون هو الإله بعد ذلك

لا . . لا

لا إله إلاَّ الله

هذا قول الراهب الصالح

قال الراهب الصالح : ياسلمان أفقْ!

أفقتُ

قال الراهب الصالح متسائلاً :

هل أنت ياسلمان ابن الله

قلت : حاشا، فأبى صاحب أرض فى جيّ

أبى سامَ الناس خسفًا!

لكننى أعرفه . . إنه أبى .

قال الراهب الصالح متسائلاً : كيف يكون المرء ابنا لله وله نسب بشرى؟ .

هذا محال .

لكن هذا ما يريدون إجبارنا على قوله .
كانت مريم حُبلى من الروح القدُس
ولدت ابنا اسمه يسوع
يخلص الشعب من خطاياهم
يخلصهم ـ يا سلمان ـ أى يهديهم
وُلد يسوع فى بيت لحم
فى عهد هيرودوس وُلد
بشّر المجوس بمقدمه
وجدوه فى بقايا كتبهم
تمامًا كما أبشّرك بالرسول النَّقى
الذى أجده عندى فى التوراة والإنجيل
هيرودوس ـ ياسلمان ـ سعى لقتل المسيح
كما سيسعى الكفار لقتل النبى القادم
لكن اللهَ نجّى
نجّى ابن مريم
كما سينجِّى نبيك الآتى
لقد قال الملاك لراعى عيسى :
قُم واهرب بالصبى وأمه إلى مصر
هرب الصبى وهاجر إلى مصر
كما سيهاجر نبيك القادم إلى المدينة
بل كما سيهاجر أتباع نبيك الآتى إلى أرض مسيحية . . إلى الحبشة
عاد يسوع إلى فلسطين بعد موت هيرودوس .
عاد، كما سيعود نبيك الآتى إلى مكة .
عاد يسوع إلى فلسطين التى أخرج منها .
كما سيعود نبيك الآتى إلى مكة التى أخرج منها .
خشى يسوع أن يعود إلى مكان مولده
فالأعداء كُثُر

فاتجه للناصرة وفيها عاش
كان يحيى المعمدان قد بشَّر
قال يحيى: توبوا فقد اقترب ملكوت السماوات.
ويقول أتباع نبيك الآتى: طلع البدر علينا
طلع البدر، طلع النور
تظاهر الكَذَبة من أتباع الشريعة الشكلية بالطاعة
أتوا ليحيى ليعمِّدهم
قال يحيى: يا أولاد الأفاعى من أنذركم،
لتهربوا من الغضب الآتى
نعم. أولاد أفاع فالشريعة روح
الشريعة ليست مجرَّد كلمات.
ربنا ألهمنا روح الشريعة
فالأعمال يا ربنا بالنيّات
والقلبُ أصدق
استفت قلبك
ولو أفتوك
ولو أفتوك.
ولو أفتوك.
أثمروا ثمرًا يليقُ بالتوبة
فكل شجرة لا تثمر ثمرًا جيدًا،
تُقطع وتُطرح فى النار.
خذوا بالأسباب.
لم يُطع يسوعُ الشيطان.
لمْ يلقِ نفسه من فوق الجبل
قال له الشيطان: إنَّ الله يحميك.
لكن يسوع كان يعلم أن إلقاء نفسه من فوق الجبل هلاك.
تلك سنة الله.

والقمحُ يحتاج لزراعة .
والخبز يحتاج لصناعة .
ومع هذا فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان .
لم يسجد يسوع للشيطان .
رغم الوعود .
ورغم العهود .
ولن يسجد نبيك الآتى لصنم قط .
توبوا فقد اقترب ملكوت السماوات .
كان يسوع يشفى المرضى ،
بأمر الله .
وكان يبرئ الأكْمه والأبرص ،
بإذن الله .
طوبى للودعاء فإنَّهم سيرثون الأرض
طوبى للعطاش إلى البر فسيشبعون
طوبى للرحماء فإنهم سيُرحمون
طوبى للمضطهدين من أجل البر
إذا جئت للصلاة
فتذكرت أنَّ لأخيك شيئًا عليك
فاذهب أولاً وصالح أخاك
احذروا أن تعملوا برَّكم أمام الناس
لا تعلم شمالك ما قدَّمت يمينك
لا يمكن لأحد أن يكون عبدًا لاثنين ،
لأنه إما أن يبغض أحدهما فيحب الآخر ، وإما أن يَلزَم أحدهما فيهجر الآخر ،
لا يمكنكم أن تكونوا عبيدًا لله والمال معًا .
اعرفوا عيوبكم
لماذا نلاحظ القشَّة فى عيون إخواننا ،
ولا ننتبه إلى الخشبة الكبيرة فى أعيننا؟!

اسألوا الله يعطكم
واطلبوا منه تجدوا
عملكم الصالح يظهر
من ثمارهم تعرفونهم
هل يُجتَنى من الشّوك عنب
أو من العلّيق تين؟!
هكذا كل ثمرة جيدة تُثمر ثمرًا جيدًا
أما الشجرة الرديئة فتثمر ثمرًا رديئًا.
وكل شجرة لاتُثمر ثمرًا جيدًا.
تُلقى وتُطرح فى النار.
إذًا من ثمارهم تعرفونهم.
كلمة طيبة كشجرة طيبة،
أصلها ثابت وفرعها فى السماء.
روح العمل، وروح الشريعة.
فللشريعة أيضًا روح.
للشريعة روح أيها الفريسيّون.
لقد كسر داود حُرْمةَ السبت.
حين جاع مع مرافقيه.
لقد أكل خبزَ القربان.
لو فهمتم معنى القول،
لعرفتم أنّ للشريعة روحًا.
فبيتُ الله مقدّس.
وإخراج أهله منه أكبر عند الله.
ومن قال لأبيه وأمه: إنّ ما أعولك به قد قدّمته قربانًا للهيكل أو تقربًا إلى الله
من قال هذا فهو كذّاب.
رعايتك والديك لا تقل أهمية عن تقديم القربان.
لا تقتل.

لا تزن .

لا تسرق .

لا تشهد الزور .

أكرم أباك وأمك .

وأحب قريبك كنفسك .

والغنى كانزُ المال لاينفع به أحدًا ،

لن يدخل ملكوت الله

إلا إذا دخل الجمل من ثقب إبرة .

لن يدخلها ،

إلاّ كما يدخل الجمل من سمّ الخياط .

والمصلّون اللصوص ،

لن يدخلوا الجنة ،

مهما صلّوا ومهما كانت التسابيح ،

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ،

فإن لم تنه فهى ليست صلاة .

مكتوب أنّ بيتى يُدعى بيت الصلاة

أما أنتم فجعلتموه مغارة لصوص .

ليست التسابيح كلمات .

فقد كان لإنسان ولدان ،

فقصد أولهما وقال له : ياولدى اذهب اليوم واعمل فى كَرْمى .

فأجاب لا أريد .

لكنه بعد ذلك ندم وذهب .

ثم قصد الرجل ولده الثانى وقال له ماقاله للأوّل .

فأجاب : لبيك ، سمعًا وطاعة .

لكنه لم يذهب .

فأى الاثنين عمل بإرادة الله ؟!

إنه الأوّل وإن لم تدل كلماته على ذلك .

الويل لكم أيها الكتبة والفريسيّون المراؤون.
فإنكم تُغْلقون ملكوت السماوات فى وجوه الناس،
فلا أنتم تدخلون،
ولا أنتم تَدعون الداخلين يدخلون.
الويل لكم.
فإنكم تلتهمون بيوت الأرامل،
وتتذرّعون بإطالة صلواتكم.
الويل لكم.
لقد أهملتم أهم ما فى الشريعة: العدل والرحمة والأمانة.
الويل لكم.
إنكم تُدقّقون فى الأمر البسيط،
لكنكم تبلعون جملاً.
الويل لكم.
إنكم تبدون للناس أبرارًا،
لكنكم من الداخل ممتلئون رياء وفسقًا
فللشريعة روح.
للشريعة روح.
للشريعة روح.
بثّها فينا يا ربّ الشريعة.
ونجّنا من القوم الظالمين.

ملحق الفصل الثانى

دراسة أعدّها المستشرق ج. ديفز، محاضر اللأهوت فى جامعة برمنجهام عن الكنيسة الأولى عرضها مؤلف هذا الكتاب، وعلّق عليها، وقد أوردنا بعض الإضافات المقارنة والشارحة، وربطنا - عندما يتسنّى الربط - بين مسيرة سلمان ووجهة نظر الإسلام من ناحية، وتطور اللاهوت المسيحى من ناحية أخرى

حتى القرن الثانى الميلادى كان المسيحيون يواجهون اتهامًا مؤدَّاه أنَّ المسيحية دين طارئ لاجذور له بعكس الوثنية اليونانية، فكان الرد المسيحى هو التأكيد على ارتباطهم بالتوراة (العهد القديم)، فدينهم جاء ليكملها لا لينقضها. [ولاشك عندى أن اقتناع سلمان الفارسى وغيره من أصحاب الديانات السماوية السابقة بأن الإسلام دين أتى ليصحح الأديان السابقة ويعيد الحياة إلى نصابها الصحيح، كان أهم أسباب تحولهم إلى الإسلام، إنه دين أتى ليصحّح ويعيد عقيدة إبراهيم الخليل الصحيحة، وليس دينًا من ابتداع محمد، ولا هو دين بغير أساس]. وكانت هناك بشارات بقدوم المسيح فى التوراة وكانت هناك بشارة يوحنا (يحيى) بقدومه، وقد ركّز المسيحيون على هذا فى معرض الدفاع عن دينهم، وكانت الفكرة الأولى: أن المسيح مبعوث من الله وأنه يأتى بالمعجزات باسم الله وبموافقته، يقول المسيح: «لكن إن كنت بإصبع الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله» [إنجيل لوقا، الإصحاح ١١، الفقرة ٢٠]. ويقول الباحث اللاهوتى أ. ج رولنسون Rolen-son: إن المسيح لم ينخرط علنًا فى أمور لاهوتية متعلقة بشخصه، وإن كان يعتبر نفسه فى علاقة توحد مع الله، ولكنه لم يقل علنا إنه هو الله [يفهم من هذا أن اللاهوت المتعلق بشخص المسيح أتى بعده ولم يكن على لسانه].

ومن أقوال يسوع التى يعترف فيها أنه ليس الله وأن مشيئة الله فوق مشيئته «يا أبا . . كلّ شيء مُستطاع لك (أى أنت على كل شيء قدير) فأجز عنى هذه الكأس (نجّنى منها) ولكن ليكن لا ما أريد بل ما تريد أنت» [مرقس ١٤/ ٣٦] .

انشغل أتباع المسيح بعد موته بثلاث قضايا لاهوتية :

ـ القيامة ، أى قيامة المسيح بعد موته ، وصعوده للسماء (مفهوم أن الرأى الشائع بين المسلمين أنه رفع إلى السماء مباشرة ولم يصلب) .

ـ الروح القدس وتسلمها للسلطان المقدّس ، وغَمْر هذه الروح للعالم بعد صعود المسيح .

ـ عودة المسيح السريعة ، وهى أصعب القضايا فهمًا [ولم يُشر القرآن الكريم لعودة المسيح ، لكن التراث الدينى الإسلامى يؤكّد ذلك ، أما عن صعود المسيح إلى السماء فهو أمر أكّده القرآن الكريم ، ليصبح الخلاف بين المسيحية والإسلام فى هذه المسألة شكليًا فالمسيحية تقول : إنه رُفع بعد أن صُلب ، فأحياه الله ورفعه ، ويقول المسلمون : إن الله رفعه ولم يُصلب . إذًا لم يبتعد سلمان كثيرًا عن تراثه السابق ، وإنما انتقل إلى فكر دينى أوضح] . ورغم أنه يعزى إلى القديس بولس الكثير من الأقوال عن لاهوت المسيح إلا أن الباحثين انتهوا إلى أنه ـ أى القديس بولس ـ «لايذكر فى أىّ موضع أنّ المسيح هو الله إلاّ أنه يمكن القول إنه فيه ـ أى فى المسيح ـ يحل كلّ ملء اللاهوت جسديًا» [رسالة بولس إلى أهل كولوسى ، إصحاح ٤ ، فقرة٩] .

وعقيدة التثليث ليست فى صلب المسيحية ، فالباحث ديفر الذى نعرض مبحثه يقول إنه : «لم يهتم من أتى بعد الرسل (الدعاة الأوائل للمسيحية) اهتمامًا مباشرًا ببحث مسألة العلاقة بين الأب والابن والروح القدس ، وإنما اهتموا فقط بقدسية يسوع المسيح ، وقدسية الروح القدس ولم يذهبوا لأبعد من ذلك ، بل عندما طُرحت المسألة نفسها كانوا يكتفون باستخدام مصطلحات العهد القديم (التوراة وملحقاتها) ، فقد كان مصطلح الابن يستخدم فى العهد القديم لبيان العلاقة بين الله والإنسان ـ أى إنسان ـ فنحن جميعًا عيال الله (أبناؤه)» من الذى قصر البنوّة على المسيح ؟ هذا ما لا ندريه على وجه اليقين .

يقول ديڤر عالم اللاهوت « . . . فالصعوبة التى أتت بها عقيدة التثليث هى كيف نتصوّر الله ثلاثة وواحداً فى الوقت نفسه، وهو الأمر الذى يجبرنا على الإيمان به ذلك النشاط الدينى التبشيرى عبْر التاريخ، فإذا نظرنا لهذه المسألة من منظور حسابى لوجدنا أن حلّها محال، مادامت الوحدة تتناقض رياضيًا مع التعدد، وأكثر من هذا فنحن نجد أن ١+١+١=٣ . لكن هناك أنواعًا أخرى من الوحدات غير الوحدات الرياضية وحدات تنطوى على التعدد، ونعنى بذلك على نحو خاص الوحدات العضوية، فالعضوية Organism توحّد عناصر مختلفة فى حياة مفردة، وكلما كان الكائن أرقى كانت وحدته أكثر تعقيداً، وعلى هذا فوحدة الكائن البشرى أكثر تعقيداً من وحدة الأميبا (كائن وحيد الخلية)، فالله يمكن فهمه من وجهة النظر هذه، فوحدته أو واحديته . . . وعلى كل حال فكل أنواع الوحدات المادية أو الأرضية لا يمكن قياسها تمامًا بوحدة الذات الإلهية، ولهذا السبب فعقيدة التثليث ليست فى نطاق فهمنا بشكل كامل . . »

على أن الفكرة التى حققت للمسيحية انتشاراً كبيراً وقتها هى فكرة الخلاص، وإن أثارت بدورها خلافات لاهوتية . والخلاص فكرة تعنى التوسعة والخروج إلى الرحابة، والتحرر من المحدوديات، وتعنى النجاة من خطر داهم، والخلاص فى المسيحية هبة مجّانية من الله البار للخاطئ غير المستحق، بفداء المسيح له (للخاطئ أو الخاطئين) الذى فداه بموته وبرّره بقيامته . وهى فكرة مريحة أدّت للدخول إلى المسيحية لكنها جددت الخلافات القديمة حول طبيعة المسيح، فقد اعتبر آريوس وأتباعه أن المسيح بشر يخلّص بهدايته البشر ويرفع أمرهم لله، بينما قال أعداؤه أن المخلّص لا بد أن يكون إلهًا وإنسانًا فى آن واحد .

وعقد نسطورس موازنة بين خلق آدم وخلق المسيح، فآدم الثانى (أى المسيح) كان فى رحم عذراء، لكن الرأى الرسمى كان هو التأكيد على عقيدة التثليث (مجمع خلقدونية ٤٥١م) . «وفى الغرب حيث كانت معانى النظام والقانون والسلطة الإمبراطورية قوية، مال المسيحيون إلى التركيز على تعريفات بسيطة وواضحة أكثر من تركيزهم على الصياغات المعقدة؛ لذا فقد فسّروا الخلاص فى الأساس بمصطلحات قانونية legal، فالخطيئة بالنسبة لهم هى جريمة ضد الله تَتَطَلّب إرضاءه (بالتكفير عن الخطيئة)، لكن الإنسان غير قادر على تقديم الكفارة Satisfaction اللازمة؛ لذا فهو خاضع للإدانة الإلهية التى لامفر منها إلا إذا تدخّل الله نفسه وبرّر قانونه (شريعته)

Vindcates ودفع الديون عن المدينين. هذا هو بالضبط ـ وفقا لما يقوله الغربيون ـ ما فعله الله فى شخص المسيح. إنّه ـ أى المسيح ـ الذى حمل أوزار البشر على كاهله وقدّم نفسه بكامل رغبته فداء أو ضحية باسم الإنسان أو نيابة عن الإنسان On man`s be-half. . . وعلى هذا فالخلاص يعنى فى الأساس غفران الخطايا من خلال الموت الانتصارى والفدائى للرب الإنسان. . ». [وقد وجد سلمان حلا أسهل لهذه المشكلة فى الإسلام فكل إنسان مسئول عن عمله، ولا تزر وازرة وزر أخرى، والله سبحانه يحاسبنا يوم القيامة بعدله وفضله، ومن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرّة شرّا يره. وكان سلمان يردد دائمًا: إنما الخير والشر بعد ذلك، أى يوم الحساب].

أما فى الكنائس الشرقية، فإن الاتجاهات المختلفة لمدرستى أنطاكية والإسكندرية فيما يَخُص العقائد المتعلّقة بشخص المسيح، قد تمت مراعاتها مرة أخرى، فالمدرسة الأولى (الأنطاكية) أخذت بأن حالة التحول والتغير والدّنس التى أصابت الإنسان إنما هى نتيجة لعدم طاعته لإرادة الله، ولإعادة الثبات والنظام كان هناك حاجة لمرحلة جديدة فى تاريخ العالم تتضمن خلق إنسان جديد new man يمكن أن يعيش فى حالة طاعة كاملة لله. ولأن الإنسان المذنب (ذا الخطيئة) لايمكنه أن يُنجز ذلك وحده، فلا بد أن يتدخّل الله وأن يخلق إنسانًا جديداً يوحّده معه ليعمل معه وفقًا لمشيئته ـ أى مشيئة الله. وعند التجسّد وحّد المسيح فى نفسه وأكمل طاعته بصلبه وانتصر على الخطيئة والموت بقيامه.

وإذا كان الغرب قد ركّز علّى الصليب وركّز الأنطاكيون على القيامة، فقد ركز السكندريون على التجسد. . ؛ لذا فقد عنى الخلاص التخلص مما لحق بهذه الطبيعة البشرية من فساد. . فبالتجسد تخلص الإنسان مما اعترى طبيعته من فساد على حد رؤية المدرسة السكندرية».

وينتهى الباحث ديفر إلى القول بأنه «لم تكن هناك طريقة واحدة لتفسير الخلاص بشكل مقبول، ولم تكن فكرة الخلاص مفهومة بشكل كاف، فتجربة التكفير أو آلام المسيح وموته atonement كانت معقدة جدّا. . فرغم أن فكرة الخلاص فكرة أصبحت أساسية فى التعاليم المسيحية، إلا أنها لم تكن مفهومة فى أى وقت من الأوقات» [وما لسلمان وهذا كله، فالله خلق الإنسان وقد هداه السبيل: إما شاكرًا وإما كفوراً لا

علاقة له بما ارتكب أسلافه من آثام، وخلاصُ الإنسان بيده، دون إغفال عفو الله وفضله وعدله]، ثم يتعرض ديفر لطرق العبادة المسيحية مركزا على التعميد (أو العماد) والعشاء الرباني، وفي وسعنا القول: إن سلمان وجد في الإسلام تعميداً يوميّا بل خمس مرات في اليوم يتوضأ فيها بالماء الطاهر ووجد أنه يأكل كل يوم باسم الله.

[لقد وجدت السلطات الكنسية في خاتمة المطاف ضرورة تحويل العقيدة المسيحية إلى مجموعة قوانين عُرفت بقانون الإيمان تحاشيًا للخلافات الحادة التي لم تنته إلى الآن رغم قوانين الإيمان هذه. وأصبح التوجه العام في الدنيا كلها يميل إلى أن الله واحد لا شريك له دون غوص في أية تفاصيل غير علمية. وإلى هذا ركن سلمان واطمأن قلبه. لقد وجد أخيراً ما كان يبحث عنه]. لكن ألم يعايش سلمان اليهودية؟ بلى لقد عايشها دينًا اختلط بالمسيحية واختلط قبل ذلك بالزرادشتية. وعايشها من خلال عمله مع يهودي من بني قريظة قبل أن يسمع بالنبي ﷺ ويدخل في الدين الحنيف. وهذا هو موضوع الفصل التالي.

***

الفصل الثالث

سلمان واليهود

- سلمان عاملاً فى مزارع بنى قريظة
- عند امرأة من المدينة
- معايشة سلمان لليهود فى فارس والشام
- اليهودية والمسيحية
- منهم مُقتصدون
- هل كان يمكن أن يتهوّد سلمان ؟
- الإسلام يفك أسر سلمان
- تسابيح وابتهالات
- ملحق الفصل: ما كتبه ألان أنترمان عن اليهود والأغيار (أى غير اليهود)

علمنا من الفصل السابق أنَّ سلمان الفارسى رضي الله عنه حمل المسيحية بين جنبيه واعيًا بما فيها من نبوءات عن نبى خاتم يصحّح ما فى الدينين السابقين ويأخذ بخير ما فيهما، وراح سلمان متخذًا طريقه إلى شبه الجزيرة العربية - إلى أرض ظهور النبى الخاتم حسب النبوءات، ولندعه يحكى ما حدث له بعد ذلك : «. . . ثم مرَّ بى نفر من (قبيلة) كَلْب تجّار فقلتُ لهم : احملونى إلى أرض العرب، وأعطيكم بقراتى هذه وغُنَيْمتى هذه. قالوا : نعم، فأعطيتهموها، وحملونى معهم حتى إذا بلغوا وادى القرى ظلمونى فباعونى لرجل يهودى عبدًا، فكنت عنده ورأيتُ النخل فرجوت أن يكون البلد الذى وصف لى صاحبى، فبينا أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بنى قريظة من المدينة فابتاعنى منه، فاحتملنى إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتُها حتى عرفتها بصفة صاحبى (الراهب) لها فأقمتُ بها. . . [ابن هشام، جـ٢ ص ص ٤٤-٤٥].

ولما سمع سلمان بقدوم النبى ﷺ إلى قُباء أخذته العُرَوَاء (الرَّجفة) فكاد يسقط من فوق النخلة، وراح يقول لحامل الخبر : ماذا تقول ؟ فغضب سيِّده اليهودى ولكَمَ سلمان لكمة شديدة، وقال له : مالك ولهذا ؟ أقبل على عملك. قال سلمان : أردتُ أن أستَثْبِتَه عمَّا قال. . [ابن هشام، جـ٢، ص٤٦].

وفى رواية أخرى، ذكرها ابن سعد فى الطبقات الكبرى (ت ٢٣٠هـ) [جـ٣، ص٥٧] أنَّ التى اشترته امرأة من المدينة «وسمعتهم يذكرون النبى، وكان العيش عَزيزا، فقلتُ لها : هبى لى يومًا (أى يوما يعمل فيه لحسابه) فقالت : نعم، فانطلقتُ فاحتطبتُ حطبًا فبعتهُ فأتيتُ النبى. . إلخ».

وليس من تناقض بين الروايتين فقد يكون اليهودى القُرظى قد باعه لهذه المرأة، وقد تكون المرأة قد باعته لهذا اليهودى القُرظى، والأهم من هذا أنَّ هذه المرأة كانت هى أيضًا يهودية فى الغالب الأعم كما ستوضح السياقات التالية.

عايش سلمان إذًا يهود شبه الجزيرة العربية وما كان لرجل مثل سلمان خَبَرَ الديانات السابقة وتردّد على الأحبار والرهبان وكان قبل ذلك قَطنًا للنار المجوسية، ما كان له ألا

يهتم بأمور الدين اليهودى الذى عايش أهله، لكن الأهم أن سلمان لم يكن جاهلا باليهود واليهودية حتى قبل أن يصل إلى شبه الجزيرة العربية.

فقد كان لليهود وجود حقيقى فى بلاد فارس طوال أيام الدولة الساسانية وكانوا يحظون بالتسامح خاصة إذا لم يتدخلوا فى الشأن السياسى، وتزوج بعض أباطرة الساسانيين من يهوديات [كريستنسن إيران فى عهد الساسانيين، ص٢٥٨] ولم تكن الجماعات اليهودية تُهدد سلطة رجال الدين الزرادشتية أو كيان الدولة الإيرانية، حقيقة إن أردشير الأول كان قليل المراعاة لليهود . . . كما حاول اليهود أن يُعفوا أنفسهم من الضرائب فتعرَّضوا لمضايقات، لكنهم بوجه عام كانوا يستطيعون العيش فى سلام مستظلين بحماية الملك [كريستنسن، ص٢٥٣].

والأهم من هذا أنَّ المسيحيين وحتى أيام سلمان كانت منهم «أمَّة مقتصدة» أى غير مُغالية، ونجد لهذه الأمة المسيحية «المقتصدة» تراثًا فى صراعها مع الزرادشتية التى دخلتها البدَع. لنقرأ هذه المساجلات التى قدّمها لنا كريستنسن [ص٢٧١-٢٧٣].

لقد ردّت طائفة من هؤلاء المسيحيين على دعوة الحكومة بضرورة اعتناق الدين الزرادشتى المحرّف قائلين فى وثيقة مكتوبة : «الحقّ أننا كنّا ونحن فى قصرك وبحضرة المغَان الذين يُسمّون مُشرِّعين (علماء الدين الزرادشت) قد هزأنا بهم واحتقرناهم فإننا نُكن لهم اليوم أكثر من هذا وذاك. إن كُنت تريد إجبارنا على قراءة كُتبك والإصغاء إليها، وهى كُتب لاتعنينا ولايمكن أن تكون موضوع تفكيرنا، ثم نحن زيادة فى احترام إرادتك لم نكن نريد أن نفتح كتابك ونقرأ ذلك؛ لأنَّ دينًا نعرفه باطلاً ونعرف أنَّه أوهام رجال بُلهاء وقد نقل تفاصيله إليك مشرِّعوك مشرّعو الزور! دينا كهذا تعرفه أكثر مما نعرفه لا يستحق أن نقرأ عنه أو نصغى له. والحقيقة أننا حين قرأنا شريعتك اضطررنا إلى أنْ نهزأ بها، وكذلك سخرنا من هذه الشرائع والمشرّعين ومن يؤمنون بمثل هذه الأضاليل ومن أجل هذا رأينا عبثًا غير لائق أن نكتب وفقًا لأمركم قواعد ديننا ونرسلها لكم. لأنّا لم نعتقد أن دينكم الباطل المضل جدير أن يُقْرأ وأن يُعرض علينا، كى لا نؤذيكم بالسخرية منه، فكان عليكم لحكمتكم العالية أن تفكروا فى هذا حين كتبتموه، وأرسلتموه إلينا فكيف نستطيع إذًا أن نعرض على جهلكم ديننا الإلهى المقدس وأن نسلمه إلى سخرياتكم وشتائمكم؟ وأمّا ما يمسّ عقيدتنا فاعلم علم اليقين أننا لن نعبد أبدًا ما تعبدون. لن نعبد العناصر والشمس والقمر والهواء والنار. ولن

نعبد هذه الآلهة كلها التى تسمونها فى الأرض والسماء ولكننا كما تعلمنا، نَعْبد إلهًا واحدًا حقًا هو خالق السماء والأرض وما فيها. . . » ليس فى هذه الرسالة إلا التوحيد الخالص. إنّه دين اليهودى إذا تحوَّل إلى المسيحية، وهؤلاء المسيحيون الذين لم يتخلَّوا عن فكرة الإله الواحد الذى لم يلد ولم يولد، هم الذين رحبوا بالإسلام ولم يجدوا مشقَّة فى قبوله. وتقول المصادر المسيحية واليهودية: إن الكلمة (يهود) لم تصبح علمًا على كل بنى إسرائيل إلا قُبيْل السّبى البابلى (أواخر القرن السادس قبل الميلاد) تمييزًا لهم عن اليهود الآخرين المحيطين بهم (كان هناك إذًا يهود من غير بنى إسرائيل، وهذا هو المنطق، وهذه هى طبيعة الأشياء)، وأثناء السبى البابلى وبعده أصبحت كلمة (اليهود) تُطلق على كلٍّ من اعتنق الديانة اليهودية سواء أكان يدّعى الانتساب لبنى إسرائيل أم لا. واليهود الذين اعتنقوا الديانة المسيحية كان يُطلق عليهم فى بداية الأمر اليهود ـ هذا يهودى آمن بالمسيح [الرسالة إلى أهل غلاطية ٢/ ١٣، وأيضًا الموسوعة الكتابية، جـ٨ص٣٠٧]. لكن بعد ذلك تأكد الفصل بين اليهود والمسيحيين. واليهوديون جماعة من اليهود اعتنقوا المسيحية وحاولوا أن يعرضوا على المسيحيين، الناموس اليهودى وخاصة الختان. وفى الأيام الأولى للكنيسة كان معظم المسيحيين من أصول يهودية، وكانوا أقلية مُضْطهدة عاداهم اليهود الذين لم يتنصَّروا، لكن بمرور الوقت دخلت أعداد كبيرة من غير اليهود فى المسيحيّة.

كان اليهود الذين تحوّلوا إلى المسيحية هم الذين حطّموا فكرة العرْق أو الجنس أو الشعب المختار، فهم بتحولهم إلى المسيحية ـ على مذهبهم التوحيدى ـ يكونون قد أنكروا فكرة أنهم الشعب المختار. لكن هذه الفكرة ظلَّت راسخة عند اليهود الذين لم يتحوّلوا إلى المسيحية حتى أتى الإسلام فتحول كثيرون منهم إليه مؤكدين بتحولهم أن «الحمد لله رب العالمين».

ما كان سلمان إذًا ليدخل اليهودية التى واجه بقاياها فهو إن دخل فى اليهودية أصبح يهوديًا من الدرجة الثانية أو الثالثة فهو ليس من بنى إسرائيل. وقد شهد سلمان بنفسه عندما قدم المدينة استعلاء اليهود الذين ادَّعوا النسبة إلى إسرائيل على اليهود الآخرين.

يلاحظ فى النقول التى نقلناها فى هذا الفصل عن عمل سلمان رقيقًا فى حيازة يهوديين، أنَّ اليهودى الأول من (بنى قريظة) كان يُسىء معاملته، لقد لكمه لكمةً قوية آذته لا لشىء إلاَّ لأنَّه وجّه سؤالاً عن حقيقة النبى الذى كان قد وصل للمدينة، بينما عاملته يهودية المدينة برفق عندما منحته يومًا يعمل فيه لحسابه ليتكسّب فى أيام كان

المعاش فيها عسيراً عليها وعليه، كما أن اليهودى الأوَّل يدعى نسبه إلى بنى إسرائيل، أى يظن نفسه عرقًا مميزاً. إنه من يهود بنى قريظة، أما المرأة اليهودية فهى من اليهود العرب الذين كانت الطائفة اليهودية الأولى تعتبرهم أدنى درجة. كانت اليهودية - إذًا - بين يَدَى العالم سلمان الفارسى الذى خَبَر الزرادشتية والمسيحية، وها هوذا يعايش اليهود، فلماذا لم يتحول إلى اليهودية؟ لقد كان فى ظل اليهود رقيقًا، لكنه تحرَّر فى ظل الإسلام بعد ذلك. لم يَلْكُمه رسول الله ﷺ، ولم يسترقه، وإنما افتكَّه من الرق، ليكون حرًا.

لقد شاهد سلمان بأم عينيه وسمع بأذنيه أنَّ أوَّل من بشَّر بقدوم النبى ﷺ إلى المدينة هو «رجلٌ من يهود» أى من اليهود الذين يدعون النسبة إلى بنى إسرائيل، إذ قال مناديًا: «يا بنى قَيلة (الأوس والخزرج) هذا جدكم قد جاء» وهو يقصد النبى الإسماعيلى (الذى هو من نسل إسماعيل)، ولا بد أنَّ سلمان عَرَف من معاشرته لهم أنهم كانوا فى انتظار نبى لكنهم فوجئوا أنه من نسل إسماعيل (جد العرب / هذا جدكم قد جاء) وكانوا يتمنون أن يكون من بنى إسرائيل. لكن اليهود بشكل عام سواء كانوا من بنى إسرائيل وهم الذين تُطلق عليهم كتب السيرة كلمة (يهود) دون (ألف ولام) فالكلمة غير معرفة تعنى عرقًا أكثر مما تعنى دينًا أو تعنى قبيلاً من الناس كما قال ابن منظور. شاهد سلمان الترحيب الحَذِر بوصول النبى ﷺ إلى المدينة، كما شاهد انقلابهم على النبى ﷺ بعد ذلك لأسباب سياسية واقتصادية وإن لَبِسَت لبوسًا دينيًا. ولم يكن كل يهود معادين للنبى ﷺ، فقد حارب مخيريق وهو رجل من يهود إلى جانب النبى ﷺ فى غزوة أحد، وقال النبى عنه بعد أن علم موته فى الغزوة «مخيريق خير يهود» ووجد سلمان الفارسى كل أجناس البشر محيطة بالداعى الرسول. وجد بلالاً، ووجد أنسة الحبشى، ووجد أبا كبشة الفارسى، ووجد مهْجعًا اليمنى، وصُهَيْبَ بن سنان الرومى. ووجد سلمان أن النبى ﷺ أمر بعض أتباعه بالهجرة إلى أرض مسيحية هى الحبشة.

لماذا لم يتحول سلمان إلى اليهودية مع أن اليهود كانوا ذوى ثراء؟ نظن أن الإجابة عن هذا السؤال أصبحت يسيرة سهلة بعد أن عرضنا فى هذا الفصل صلة سلمان باليهود بعمله معهم ومعايشته لهم فى شبه الجزيرة العربية، وقبل ذلك فى فارس والشام. لقد كان سلمان يتطلع للدين الحنيف الذى دعا إلى العَدْل وطبَّقه، ودعا إلى التوحيد الخالص الذى كان جوهر رسالته.

تسابيح وابتهالات

سبحانك يا رب العالمين .
لا تأخُذُك سنة ولا نوم .
كانَ عرشك على الماء .
خلقتَ السماوات والأرض .
وخلقَت النُّور والظُّلمة .
ورفعتَ السماء بلا عَمَد .
وَفرّقتَ اليابسَ عن الماء .
وأمرتَ أن تُنبتَ الأرضُ عُشبًا وشجرًا وثمرًا .
وخلقتَ الكواكب والنجوم ،
وخلقت كلَّ ما فى جوف البحر ،
وكلَّ ما فوق الأرض ،
وكلَّ ما يحلِّق فى الهواء ،
وخلقت الإنسان على صورته ،
أما أنتَ ـ سبحانك ـ فليس كمثلك شيء .
أتممت خلقَك ،
وظللت سهرانَ يقظا ، لاتأخذك سنةٌ ولانوم ،
مَن قال إن التعب أصابك فاسترحت فى اليوم السابع ؟!
حاشاك يا رب ،
فأنت ـ سبحانك ـ ما مَسَّك من لُغُوب
بل أنت خلقت خلقًا آخر لا نعرفه ،
فأنت تخلقُ ما لا يعلمون ،
سبحانك جَبَلتَ آدم من تُراب الأرض ،
ونفختَ فيه نسمة الحياة ،

فصار آدم نفساً حيّة،
وعمَّرت يا ألله جنة عَدن،
ليأكل من كل أشجارها،
إلا شجرة نهيته عن الأكل منها،
نهيته لتُعلِّمه الطاعة،
لا لتحجب عنه معرفة الخير والشر،
فالخالق لا يغار من مخلوقاته،
أتخلقنى - سبحانك - من طين ثم تحجبُ عنى نور المعرفة؟!
أتحجبها عنّى حتى لا أنافسك!
سبحانك هذا بهتان عظيم،
ومن ضلع من أضلاع آدم خلقَ الله له حوَّاء،
فأنسَ بها وأنسَت به.
وأغوى الشيطان المرأة.
يقال إنه ظهر لها فى صورة حيَّة.
فأغواها بالأكل من ثمار الشجرة المحرَّمة،
فأكلت منها وأطعمت آدم،
فبدت لهما سوءاتهما،
فخاطا لنفسيهما مآزر من أوراق التين،
فأعادهما الله إلى الأرض التى من ترابها خُلقا.
سنَّة الله ألاَّ يعيش الإنسان إلاَّ بالعمل.
العمل عبادة.
ليس العمل لعنة.
ليس بسبب الخطية الأولى،
إنما طرد آدم من الجنَّة لأنَّه عصى،
ربّ أنتَ لم تمنعنى العودة للجنَّة،
فالطريق إليها واضح،
أنْ أتَّقى،
فاجعلنى من المتَّقين،

أن أعمل وأفيد،
فاجعلنى من العاملين النافعين،
ساعتها لن يحول بينى وبين الجنّة أحد،
حتى ملائكة الكروبيم
لن أقتُل أخى ياربٌ،
فالأرض لا تقبل الدّم المسفوح.
كل ما قدّم بإخلاص أنت تقبله،
إنما يتقبّل الله من المتّقين،
أقدّمه لأطعم عبيدك،
وأصلح أرضك،
لا لأحرقه فتشمّ سبحانك رائحته،
فأنت ـ سبحانك ـ فى غنى عن تَقْدمة محروقة،
أنحر يارب قربانًا لك،
فأطعم نفسى وأهلى،
وبجزء منه أتصدّق.
لا أحرقها قربانًا على مَذبحك،
والناس يتضوّرون جوعًا،
هكذا أفهم معنى الصدقة والقربان.
وهكذا فهمها عبدك سلمان فأسلم.
أسلم سلمان لهذا،
ولهذا أيضًا أنا مسلم،
أسلم سلمان فوحّد،
وأنت واحد أحد إليك كلُّ قربان،
ولهذا أيضًا أنا مسلم.
امنع عنّا الشر يا ربنا.
وامنعنا أن نأتيه،
فإن كثُر الشرّ،
فليس إلا الطوفان،

طوفان لا يُبقى ولا يذر،
قد يكون الطوفان ماء،
وقد يكون حربًا تحصد،
وقد يكون قنبلة فتّاكة يُلقى بها مجنون،
فتسمِّم الأرض والجو وتخنق الإنسان،
تخنقه أو تحرقه،
نجِّنا يا رب من القوم الظّالمين.
لا تدعنا نخرب بيوتنا بأيدينا.
فعدلك أرحم.
ونحن دومًا عبيدك.
نجِّنا ولو فى فُلك من خشب السَّرو،
مطلى بالزِّفت من الداخل والخارج،
فالزفت فى بلادنا كثير.
أنت ترانى دومًا يا ربّنا.
قد أضلّ أنا،
لكنك أبدًا ترانى،
لن أضيع منك،
ترانى إن رسوت على جبل أراراط،
أم كُنت فى بيْداء شاسعة،
أم كُنت بين لُجج البحار.
تعْلم يا ربنا كل نفسى.
إذا وُلدت.
وإذا سعت فى الأرض.
وإذا أتاها أجلها.
وأنت القائل إن سافك دم الإنسان يُحكم عليه بسفك دمه.
والإنسان هو الإنسان.
إنه عبدك يا ألله،
إنه خَلْقك،

لم تبارك بعضًا من سلالته.
لتلعن بعضًا.
فلا تزرُ وازرة وزر أخرى.
لهذا أنا مسلم،
ولهذا أسلم سلمان.
لم تَقُل ملعون نسل كنعان.
ولم تقل مبارك ـ وحده ـ نسل سام ويافث.
لم تُبَلبل يا ربنا خَلقك،
لم تشتتهم.
لم تلعن بناءهم المدن والأبراج.
هديت الإنسان السبيلين: إما شاكرًا وإمّا كفورًا.
اللّهم اهدنى كما هديتَ خليلك إبراهيم،
الذى جعلته أبا لأمم كثيرة
والذى جعلت زوجته سارة تُنجب بعد أن يئست.
علّمتنا يا ربنا:
أنه لا ييأس من رحمة الله إلا ظالم.
كلّنا فى انتظار رحمتك،
رحمتك ليست قصرًا على أحد.
يطولها حتى ابن الجارية.
سمع الله بكاء هاجر وابنها.
جعل من هاجر أمة عظيمة.
بعث ملكًا حفر زمزم.
فارتوت والرضيع.
سمع الله أنين الرضيع
فالله سميع بصير.
وإسماعيل كلمة تعنى (الله يسمع).
أطاع إبراهيم كلام الله
أوشك أن يضحّى بفلذة كبده.

لكن الله فداه بذبح عظيم .
فالله هو الرحمن الرحيم .
يا رب هب لى زوجة مطيعة .
تصحبني حيث الخير .
وتمنعنى حيث الشر .
يا من وهبتَ (رفقة) لإسحاق
زوجةً صالحةً تُعين على العبادة
ليست لعَّانة ،
ولا سبَّابة ،
ولا شريكًا مخالفًا
وزوجةً كهاجر البارة ،
هاجر أم العرب ،
هاجر الصبورة التى أكرمها الله ،
يا ربَّ الناسِ كُلِّهمُ ،
سبحانك !
لست إلهًا لبنى إسماعيل وحدهم ،
ولست إلهًا لبنى إسرائيل وحدهم
ولم تلعن الكنعانيين .
ولاسوَّدت وجوه بنى حام غضبًا عليهم ،
فأنت إله لكل الناس ،
بل لكل الخلق ،
يسبِّح بحمدك كل ما فى الكون ،
حتى الشجر ،
حتى الحجر ،
فسبحانك أنت الأكبر ،
الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ،
ولا إله إلاَّ الله ،
لا إله إلا أنت ،
فَكُكَّ أسرى من العبودية ،

واجعل بقراتى سمانًا .
فإن صارت عجافًا .
فألهمنى الصبر ،
وإن عميتُ ،
فأعد لى البصر ،
اجعلنى يا ربنا أرتدُّ بصيراً ،
ألست قادرًا على كلّ شىء ؟!
ألست فعّالاً لما تريد ؟!
لا إله إلا أنت سبحانك!
الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر .
ولا إله إلا الله .

ملحق الفصل الثالث

عن نظرة اليهود للأغيار (غير اليهود) وتطور هذه النظرة عبر العصور. مقتطفات من كتاب ألان أنترمان : اليهود عقائدهم الدينية وعباداتهم Jews, their religious beliefs and practices والمؤلف يهودى تحول إلى المسيحية.

والنص المقدم من ترجمة د. عبد الرحمن عبدالله الشيخ، مؤلف الكتاب الذى بين يدى القارئ.

« تاريخ العلاقات بين الجماعات اليهودية التى تعيش كأقليات ـ غالبًا ما تكون فى محيط مسيحى أو إسلامى ـ والمجتمعات المضيفة ، ما هو إلا تاريخ يظهر ما تعرض له اليهود من ازدراء واضطهاد . ولم يحدث إلا أثناء قرون قليلة من بين آلاف السنين الماضية ، أن عاش اليهود فى هدوء نسبى .

ويشكل عام فقد واجه اليهود من السوء فى البلاد المسيحية ، أكثر مما واجهوه فى البلاد الإسلامية . ففى البلاد الإسلامية كانوا أهل ذمة Protected people (مشمولين بالحماية) مقابل دفعهم ضريبة خاصة (جزية)، ولم يكن مسموحًا لهم بارتداء ملابس شبيهة بالملابس التى يرتديها المسلمون ، بالإضافة إلى فرض عدد من القيود عليهم . وقلما كان المسلمون يجبرونهم على التحول إلى الإسلام، برغم حدوث هذا فى حالات قليلة كالتى حدثت فى عهد الموحدين Al-mohades المتعصبين فى إسپانيا فى القرن الثانى عشر، وكما حدث فى شمال إفريقيا، وفى إيران فى ظل الحكام الشيعة المختلفين فى فترات مختلفة .

لقد كان وضع اليهود فى العالم المسيحى Christiandom غير آمن بدرجة كبيرة لتعرضهم لعداء شديد كثيراً ما كان يشتد أواره بسبب مزاعم مسئولية اليهود الجماعية عن

موت المسيح[1] . وفى أزمنة مختلفة طرد اليهود من الدول الأوروبية، وحظر عليهم قبول تحول المسيحيين إلى اليهودية، وحدد نشاطهم الاقتصادى ليقتصر على مجال أو مجالين ـ خاصة الربا[2] . لقد كانوا عرضة للمذابح التى قتل فيها من لا يحصى عدده من اليهود وسلبوا ونهبوا وصودرت ممتلكاتهم أو دمرت. وكان عليهم أن يدافعوا عن مقولات دينهم ضد دعاوى المسيحية، بالدخول فى مجادلات لم يستطيعوا أبدًا أن يخرجوا منها رابحين. وجرى إحراق التلمود وإن سمح بنشره خضع لرقابة السلطات الدينية المسيحية التى كانت تعتبره معاديًا للمسيحية. لقد عاش اليهود وهم على وعى بأنهم شعب ينبذه المسيحيون ويعتبرونه ملعونًا من الرب محتقرًا من البشر، وإذا لم يجبروا ـ كان هذا يحدث كثيرًا ـ على التعميد (التوجه إلى جرن المعمودية) فقد كان المسيحيون يعاملونهم معاملة سيئة ليكونوا عبرة لكل معارض للمسيح.

إن ذكريات ما حدث كما ورد فى الكتب اليهودية، والأشعار الدينية الطقسية (الليتورجية) والطقوس (الشعائر) التى تحيى ذكرى ما مضى، تعكس الجوانب السلبية للعلاقات اليهودية والمسيحية. وكان لهذا أثره فى نظرة اليهود ـ خاصة اليهود الأشكيناز[3] ـ للأغيار the goi. كان القائمون على اضطهاد اليهود والحط من شأنهم ينظر إليهم كممثلين للعالم المسيحى : الأساقفة والصليبيون[4] والكهنة المحليون الذين كانوا يحرضون جماهير الفصح، ومحاكم التفتيش، والمسيحيون الأتقياء البسطاء واللوردات والبارونات ممن يترددون على الكنائس أو حتى فى أيام وكيل المسيح نفسه Vicar of christ . والدين المسيحى بكنائسه ورمزه الأساسى ـ الصليب ـ وأيقوناته، بل واسم المسيح نفسه، قد ارتبط فى الوعى اليهودى بالقسوة وعدم الإنسانية . لقد أدى ما عاناه اليهود من عناء على يد المسيحيين إلى تعمق شعور اليهود بأن اليهودية أرقى من مسيحية «إنجيل الحب» رقيًا بغير حدود، فاليهود يرون الإنجيل خاليًا من القيم الإنسانية الأساسية. ورغب اليهودى فى التركيز على نفسه، يحفزه على هذا اعتقاده أنه خادم كتب عليه العناء Suffering Servant يكفر بعنائه آثام العالم. لقد عاش فى ظلمات

(١) ليست مزاعم فيما يرى المسيحيون فالأناجيل الأربعة تؤكد ذلك. أما الرأى العام بين المسلمين فهو أن المسيح رفع إلى السماء حيًا ـ المترجم.

(٢) التعامل بالربا خاصة مع الأغيار لم يفرضه أحد على اليهود.

(٣) اليهود من أصول ألمانية وشرق أوروبية.

(٤) الثابت تاريخيًا أن الجيوش الصليبية كانت تقتل اليهود، وهى ـ أى الجيوش ـ فى طريقها للشام، كما قاتلت اليهود والمسلمين على حد سواء فى فلسطين.

المنفى، لكنه يتطلع لفجر العصر الذى يأتى فيه المسيح (اليوم المشيانى[١] ـ Messianic day)، حيث ينزاح الكابوس ويصبح العالم ملكه.

الدين المسيحى

المسيحية، بعقيدتها فى التثليث والتجسد واستخدام تماثيل المسيح المصلوب ومريم (العذراء)[٢] وتقديس القديسين، تعتبر فيما يرى مفكرون يهود كثيرون ديانة وثنية[٣]، وهى تهمة لا يمكن توجيهها للإسلام. ومن هنا وجدنا موسى بن ميمون الذى عاش فى بلاد إسلامية ولم يخضع لضغوط السلطات الكنسية يذكر مقرراً بشكل مطلق:

«اعلم أن الأمة المسيحية التى ضلت بعد يسوع، برغم تعدد مذاهبها، هى فى مجملها وثنية.. إنه من المناسب أن نتعامل مع المسيحيين كما نتعامل مع الوثنيين، وعلى النقيض من هذا، فإن علماء الشريعة اليهود فى العصور الوسطى ممن عاشوا فى بلاد مسيحية كانوا يميلون إلى إيجاد أساس شرعى (هالاخاوى) لمعاملة المسيحية باعتبارها دينًا مختلفًا عن الوثنية شيئًا ما. وما دامت هناك أسباب اقتصادية تشكل ضغوطًا على اليهود فقد كان لا بد من ذلك ليتمكنوا من الدخول فى علاقات عمل معهم (أى مع المسيحيين). هذا هو التفسير العملى إلى حد كبير، خاصة حيث تمنع الشريعة اليهودية التعامل مع الوثنيين.

وبالرغم من أن إعادة تفسير الشريعة على هذا النحو سمحت لليهود بإقامة علاقات تجارية أساسية مع المسيحيين فإن عدداً قليلاً من الرابيين قد ذهبوا إلى حد استبعاد المسيحيين تمامًا من بين الوثنيين الذين ذكر التلمود عنهم أموراً سلبية.

والوثنى «الغريب أو الذى هو من الأغيار nochri or goi» لا يعتبر فى المستوى الثقافى الاجتماعى أو المستوى الخلقى مماثلاً لليهودى، وإنما يفهم أنه موجود على نحو ما يكون الوجود الحيوانى Animal-like existence. فبينما تتطلب معاملات اليهود فيما بينهم التزامًا أخلاقيًا عاليًا ومسلكًا يراعى فيه الدين، فإن هذا غير ضرورى عند

(١) غير المسيح (عليه السلام) الذى لا يعترفون به.
(٢) ما بين القوسين توضيح من المترجم لكن اليهود طبعًا لا يؤمنون بعذريتها ورأيهم فيها معروف ـ المترجم.
(٣) لا يعتبر الإسلام المسيحية وثنية، وإنما من الديانات السماوية التى لها «كتاب». (المترجم).

تعامل اليهود مع الوثنيين[1] فأفضل ما يقدمه اليهودى فى تعامله مع الوثنيين يجب ألا يزيد عن عدم إثارة النزاع أو العداوة.

وكان مناحم ميرى البروفنسى Menachem Meiri of Provence (١٢٣٩-١٣١٦م) من بين علماء الشريعة القلائل الذين استثنوا المسيحيين من قطاع الوثنيين، لقد قدم حججًا مفادها أن المسيحيين متحضرون ويخافون الله، ولا يمكن مقارنتهم بالوثنيين سيئى الأخلاق فى العصور التلمودية. وهناك رابيون آخرون اكتفوا بإبداء ملاحظة عابرة فى مقدمات كتبهم أو عندما يرد موضوع العلاقة بين اليهود والوثنيين لأول مرة، إذ ينكرون أن ما يكتبونه ينطبق على الأغيار (غير اليهود) المعاصرين. وقد يكون هذا هو اعتقادهم فعلا لكن غالبًا ما يفهم القارئ اليهودى هذا على أنه محاولة لتوقى اعتراض الرقيب أو لتجنب إثارة عداوة المسيحيين.

اليهودى وأرواح الأغيار

كان علماء اللاهوت اليهود فى العصور الوسطى أكثر اهتمامًا بمحاولة إظهار صدق تعاليم اليهودية أمام المسيحية والإسلام، من خلال شرح الوضع النسبى لكل من اليهودى وغير اليهودى.

وعلى أية حال، فالاستثناء المهم من هؤلاء هو يهوذا هاليفى Judah Halevei الذى قدم الحجج فى كتابه «كوزارى Kuzari» لإثبات أن شعب إسرائيل يختلف تمامًا فى تكوينه الروحى عن الشعوب الأخرى. فكل يهودى هو وارث للطاقة النبوية (طاقة النبوة) التى تمكن وحدها الإنسان من معرفة «نفس الله» و«إرادته»، حتى المتحول إلى اليهودية لا يكون لديه هذه الطاقة عند تحوله إليها، إذ تنقصه «الجينات الروحية Spiri-tual genes» التى لدى من يولد يهوديًا إن جاز لنا استخدام هذا التعبير الحديث.

لقد وجدت الكراهية التلمودية للأغيار Goi وفى أقوى أشكالها فى التراث الصوفى الوسيط وما بعد الوسيط خاصة فى الزهر Zohar والقبالة اللوريانية Lurianic فليس فيهما - على عكس ما فى التلمود - الكثير جدًا عن مسألة ممارسات الأغيار التى هى

(١) المقصود غير اليهود.

محل خلاف أو مثار نقاش، وإنما فيهما ما يؤكد الاختلاف التام فى الجوهر بين اليهودى وغير اليهودى، وبينما يبدو التلمود يحط من شأن الحياة الروحية والخلقية لغير اليهودى Goi، على أساس نقص قيمه الخلقية وعدم رغبته فى تجاوز الماديات، وجهله بما هو مقدس، فإن القبالة ترى الفرق بينهما من نوع واحد.

فغير اليهودى Goi ينتمى للعالم الفرعى للشيطان، ذلك العالم الفرعى الموجود فى فكر القبالة. فروحه أدنى درجة من روح اليهودى الذى يمتلك ـ على الأقل ـ إمكانات الوصول للبعد المقدس (الإلهى)، والقبالة تستند فى هذا إلى سابقة (شاهد) تلمودية تحكى أن حواء قد لفحتها أفعى شيطانية، ومن ثم فقد تلوثت بذورها، وظل الأمر كذلك حتى أزاح التجلى السيناوى (تجلى الله لموسى فى سيناء) هذا التلوث (النجاسة) عن إسرائيل. فالصوفية يقدمون بهذا رؤيتهم الخاصة عن عقيدة الخطيئة الأولى (الخطيئة الأصلية ـ orig-inal sin) فغير اليهودى Goi كان ابنًا نجسًا (ملوثًا) نتيجة اتصال جنسى بين امرأة وأفعى هى رمز للقوى الشيطانية، وما دام غير اليهودى Goi لم يمر بتجربة التطهير من خلال وحى الله بالتوراة، فإنه يظل نصف إنسان ونصف شيطان.

هذه الفكرة ـ حتى لو كانت من خلال رمزية القبالة الفاتنة ـ يبدو أنها تقيم حاجزًا لايمكن اختراقه بين اليهود وغيرهم، وتسبب مشكلة عويصة للمتحولين اليهود، وتعترف الشريعة اليهودية بالمتحولين إليها كيهود كاملين، لكن كيف يمكن لتحولهم أن يحدث تغييرًا جوهريًا فى أرواحهم (أرواح الأغيار)؟ والزهر Zohar نفسه يحل المشكلة بالنظر للمتحول إلى اليهودية على أن روحًا جديدة أهداها له الله، وإن كانت روحًا أدنى من روح اليهودى (الأصلى). وهناك قباليون آخرون يرون فى المتحول إلى اليهودية شخصًا لديه روح يهودية كانت فى زمن سابق قد ضلت طريقها بين الأغيار، فعلى سبيل المثال قد يكون أجبر أجداده على قبول التعميد. فالتحول إلى اليهودية كان فى الحقيقة عودة يهودى إلى حظيرة الإيمان، عودة يهودى كانت الشرارة اليهودية مختبئة فى طياته فأعادته لحضن اليهودية.

وربما كانت أوضح صياغة عن الفاصل بين اليهود والأغيار هى تلك التى نجدها فى كتابات المعلم الحاسيدى[١] Chasidic فى القرن الثامن عشر، الرابى شنور زالمان

---

(١) ما حسيدوت.

الليـادى R.Schneur Zalman of Liadi، فـهـو يرى أن لكل يهـودى روحين، روح حيوان، وروحًا قدسية. فالروح الحيـوانية تنبثق من أعلى ما فى وسع الشيطان، إنها مصدر الشر ولكنها أيضًا ذات طبيعة خيرة ففيها الرحمة أو النزعة لعمل الخير، ما دامت جذورها هى «مـحـارة النور Shell of Light» ـ أقـرب نقطة فى التكوين الشـيطانى لجانب القداسة holiness أما الروح القدسية فجذورها تمتد فى الله، أو أنها ـ بمعنى من المعانى ـ جزء من الله، أما غير اليهودى، فلا تنقصه الروح القدسية فقط، بل إن روحه الحيوانية تنبثق من مستويات شيطانية أدنى من مستوى الروح الحيوانية عند اليهودى.

الاتجاهات اليهودية نحو الأغيار فى هذه الأيام

عدة عناصر أثرت فى وعى اليهودى بنفسه وتفسير وضعه فى العـالم: كثرة ما لحق به من اضطهـاد، وأفكاره التى استقاها من عقيدته عن الأغيار، ودور اليهودى الخاص فى شهود توراة الله، وكونه ـ أى اليهودى ـ سيكون هو الأداة المستخدمة فى الخلاص عند نزول المسيح (فى العصر المشيانى أو المسيحى)[1] وترى اليهودية التقليدية التاريخ البشرى ونشاطات الأغيار باعتبارهما عوامل مساعدة (تحقق الهدف اليهودى) فما دام هدف الحياة هو عبادة الله (فما خلق الله الناس إلا ليعبدوه) وما دام هذا الهدف قد تحقق فى الأسـاس ـ إن لم يكن كلية ـ على يد اليهـود من خلال رعايتهم للتوراة والوصايا mitzvot، فإن كل الخلق ليس إلا عاملاً مساعداً لتحقيق مثل الحياة اليهودية.

وقد وردت هذه الفكرة بالفعل فى التعاليم التلمودية، فعند الخلق اشترط الله على السمـاوات والأرض أنه إذا قبل بنو إسرائيل التوراة فى سيناء فسيكون الأمر طيبًا وصالحًا وإن رفضها بنو إسرائيل فسيعيد الله الطبيعة كلها إلى حالة الهيولى الأولى (اللاتكون)، وقد صيغ ذلك فى تعبير حديث يعزى إلى الرابى إسرائيل مير كاجان Israel Meir Kagan الحكيم اليهودى البارز الذى عاش فى القرن العشرين، والذى يقول فى حكايته الرمزية:

«إن المسافر الذى لم يسبق له ركوب قطار، ينشغل قبل أن ينطلق فى رحلة يستخدم فيها القطار باكتشاف كيف يتحرك القطار فيتجول فى عربات الدرجة الأولى، حيث

---

(١) الذى لم يأت بعد.

الأثرياء الذين ينعمون بالراحة أثناء السفر فيسألهم عما إذا كانوا هم الذين يقودون القطار فتكون إجابتهم بالنفى فيتجه إلى عربات الدرجة الثانية، ويوجه الأسئلة نفسها وهكذا حتى يصل أخيراً إلى سائق القاطرة فيجده ملطخًا بالسخام؛ بسبب الفحم الذى يجرفه فى الغلاية وهنا فقط يجد الإجابة المؤكدة عن سؤاله».

وهذه الحكاية الرمزية تشير بوضوح إلى كيفية تسيير الكون، إن أثرياء الأغيار (غير اليهود) ومثقفيهم الذين يتحكمون فى العالم، ليسوا هم الذين يسيرونه لمجرد أن الحكم العلمانى فى أيديهم وإنما الذى يسيره هم بنو إسرائيل المنبوذون، المرفوضون فعبادتهم لله هى حقًا التى تضمن استمرار العالم .

إن التناقض بين اليهود والأغيار وقيم اليهود الخاصة المختلفة المتعلقة بالاقتصاد المقدس - تلك الأيديولوچية الراسخة عميقة الجذور - قد وجد تعبيراً فى كثير من المصطلحات التى يستخدمها اليهود بينهم وبين أنفسهم ليشيروا بها إلى الأغيار. وبصرف النظر عن المصطلحات المحايدة (أى التى لا تنطوى على ازدراء أو غيره) مثل مصطلح Goi، فأكثر المصطلحات انتشاراً فى اللغة اليدية للإشارة للأغيار هى شكتس Sheketz (غالبًا ما تنطق شجتس Sheigetz أو Shaigetz) للذكر وشيكاش Shikash للأنثى، وإذا وصف يهودى يهوديًا آخر بهذه الكلمة فمعنى هذا أنه يسبه وغالبًا ما يشير اليهود الأرثوذكس المتشددون Ultra-Orthodox لليهود العلمانيين أو الحداثيين بالكلمة شيكاتزيم Shekatzim باعتبار أنهم هجروا كل ما هو مقدس بتقليدهم للأغيار.

ومع انعتاق اليهودى فى القرن التاسع عشر، وظهور التطورات الإصلاحية فى اليهودية - ظهرت سلسلة كاملة من الاتجاهات المختلفة إزاء الأغيار. فالأرثوذكس الأكثر انتحاءً نحو التقليدية - الذين احتفظوا بمسافة اجتماعية وثقافية بينهم وبين عالم الأغيار - ما زالوا يتمسكون بالانفصال بين اليهود والأغيار كما كان قبل ظهور القيم الحديثة. فعالم الأغيار له كينونة مجهولة لايراه اليهودى إلا من خلال منظومة من الاتجاهات السلبية نحو الوثنيين (بمن فيهم المسيحيون)، ظهرت فى الأدب اليهودى. . ويخشى أن يكون هذا الاتجاه نذيراً بحركة عنيفة معادية للسامية ووقوداً لمعاداة العقائد اليهودية والانحلال الأخلاقى الجنسى، إن لم يكن ذلك قد وجد.

واليهود الحداثيون ـ سواء كانوا أرثوذكس أم تقدميين ـ ممن كانوا على صلة مستمرة بثقافة الأغيار، وكانت تربطهم بهم علاقات اجتماعية ـ يميلون إلى إغفال الجوانب شديدة التطرف فى تراثهم الدينى، فيما يتعلق بمسألة الأغيار . وأقصى ما يمكن أن يصلوا إليه فى موقفهم الأيديولوچى فى هذه المسألة هو أخذهم بالعناصر الأكثر ميلاً إلى خلاص كل البشر فى النهاية والموجودة أيضًا فى التراث اليهودى، تلك العناصر التى تشير إلى الفروق بين اليهود والأغيار كفروق فى الثقافة والدين، أكثر من إشارتها إلى وجود اختلاف فى جوهر «روح» كل منهما . وعلى أية حال، فهناك عاملان أثّرا فى وعى اليهودى المعاصر بعمق، وعملا على بقاء النموذج الكلاسيكى الذى ذكرناه آنفًا . العامل الأول : هو ذكرى المحرقة (الهولوكوست)، التى عمقت ـ بشدة ـ الشك فى الأغيار ومدى قدرتهم على نبذ معاداة السامية من ثقافتهم . والعامل الثانى : هو ظهور دولة إسرائيل والقومية اليهودية الجديدة .

ومعظم الأجيال الأكبر سنّا من بين اليهود المعاصرين عاشوا بين الأغيار فى أوروپا قبل المحرقة (الهولوكست)، ويحسون تمامًا ـ وهم فى بلادهم[1] ـ بمثل هذا الوسط الذى سبق أن عاشوا فيه . لقد أغلق اليهود ـ بغلظة ـ باب الشعور بالائتلاف مع البشر ومشاركتهم فى الإنسانية؛ بسبب ما حدث لهم نتيجة معاداة السامية فى ألمانيا وأوروپا فقد أعاد هذا إلى أذهان اليهود الفروق القديمة بين الأغيار واليهود بشكلها الحاد وكعقيدة راسخة مرة أخرى . وغالبًا ما يعبر اليهود عن هذه العقيدة بقولهم، بل إن الحلفاء كانوا فاترين إزاء معاملة هتلر لليهود ولولا سياسته التوسعية لما رفعت الهراوة من فوق رأس اليهود . إن فشل الحلفاء فى بدء غارة جوية ضد معسكر الموت فى أوشفتز Auschwitz death-Camp، قد اعتبر دليلاً على أن الحلفاء كان ينقصهم الاهتمام بأمر اليهود .

والدعم الذى تتلقّاه إسرائيل والصهيونية ـ بشكل أو بآخر ـ من يهود الشتات (الدياسبورا)، ما زال مرتبطًا عند معظمهم بالرغبة فى بقاء الهوية اليهودية . وما يبدو من اختلاف فى مواقف الأغيار الغربيين (الأوروپيين والأمريكيين) من كفاح الكيان الإسرائيلى من أجل البقاء، وموقفهم المنطوى على معاداة الطموحات الصهيونية ـ يبدو

(١) يقصد بلاد فلسطين .

أنه يعكس موقفًا اعتاده اليهود تمامًا ـ عالم غير مهتم ينظر بعينى أعمى لمعاناة اليهود. فالدول الأخرى لها حق تلقائى فى الوجود، لكن على الشعب اليهودى أن يعمل باستمرار على تبرير وجوده أمام الحضارة الغربية التى تنكر عليه باستمرار هذا الحق فى الوجود. ومما يعد دلالة على هذا الاتجاه للحضارة الغربية حقيقة، أن الفاتيكان رفض أن يعترف بإسرائيل لأكثر من ثلاثين عامًا بعد قيامها. وعلى هذا فمعاداة الصهيونية هى ببساطة ـ وفقًا لشعور اليهودى ـ الشكل الأخير لمعاداة السامية[١].

وربما كان كل هذا ـ بشكله المتطرف ـ تعبيراً عن جنون العظمة الذى يتسم به اليهود على نحو خاص، لكن حساسية اليهود فى هذه الأمور تعكس اتجاهاتهم نحو الأغيار. فالشك فى هؤلاء الأغيار Goi يمتد ليتناول كثيراً من حركات الاضطهاد التى تعرض لها اليهود فى الماضى. وما حدث من تغير فى هذه الفكرة فى الوقت الحاضر، لايتعدى التركيز على وعى اليهود بذواتهم (بتفردهم). ذلك الوعى الذى أخذ بعداً لاهوتيًا بأنهم « شعب يعيش وحيداً[٢] a people which dwells alone.»



(١) المؤلف يتحدث هنا عن آراء اليهود ومشاعرهم، الأمر الذى يهمنا معرفته، لكن شتان بين معاداة السامية ومناهضة الصهيونية.

(٢) المقصود من إيراد هذا النص أن نتعرف على فكر اليهود، وكثير من الأفكار ذات الطابع السياسى فيه مغلوطة، لكن يهمنا ـ بشكل عام ـ لأسباب سياسية واجتماعية واقتصادية معرفتها للتعامل معها أسوة بما فعل الشهرستانى مؤلف (الملل والنِّحل)، والبغدادى، وابن حزم، وابن قيِّم الجوزية، وغيرهم فى التاريخ الإسلامى.

الفصل الرابع

الاختيار الأخير
سلمان فى رحاب الإسلام
وسلمان وتراث الرؤى

- سلمان يسعى لنبى الإسلام
- يتحقق من علامات النبوة فيه
- كيف أسلم سلمان ؟
- رؤيا سلمان أثناء حفر الخندق
- رؤيا سلمان لعيسى بن مريم
- التفسير، كيف هذا؟
- تراث الرؤى فى حال اليقظة فى اليهودية والمسيحية
- رؤيا دانيال
- رؤيا يوحنا
- الفرق بين رؤى سلمان الواضحة غير الرمزية، والرؤى السابقة على الإسلام
- هل تغنى الرؤى عن العمل
- تسابيح.

نزل الوحي على نبى الله ﷺ ، فاعتراه ما اعتراه، فأمره الله ـ سبحانه ـ (قم فأنذر) فراح ﷺ يتحسَّس أمره، فإلى من يوجه الدعوة، فبدأ بعشيرته الأقربين، فاستجاب له من استجاب، وتنكَّر له من تنكَّر، حتى من عشيرته الأقربين (أبو لهب مثلاً). لقد راح نبى الله ﷺ يبحث عمَّن يدعوهم . . لكن كان هناك استثناء، لقد كان هناك من يبحث عن النبى ﷺ حتى قبل الهجرة . . لقد كان لدى هذا المُستثنى بشارات وأمارات وعلامات راح يتلمَّسها فى النبى الآتى، بل لقد كان لديه إرهاص بمكان هجرته.

إنَّه سلمان الفارسى الذى كان يعرف محمداً ﷺ حتى قبل أن يراه ويلتقى به. لقد قرأ سلمان (الكتاب الأول) على حد تعبير على بن أبى طالب رضي الله عنه، وعرف النبوءات وفسَّرها فأتى يُفتِّش عن النبى الخاتم، كان سلمان هو الذى يبحث عن النبى ﷺ، ولم يكن النبى ﷺ هو الذى يبحث عن سلمان ليدعوه . كان سلمان هو الذى يبحث عن النبى ليتلقَّى الدعوة التى عرفها ربما حتى قبل أن يجهر النبى ﷺ بها . وهذا هو الفرق المهم بينه وبين غيره من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين.

لقد عرفنا فى الفصول السابقة تجربته مع الزرادشتية (المجوسية)، والمسيحية، وتعامله مع اليهود، والآن كيف دخل سلمان الإسلام بعد أن وصل لمكان هجرة النبى ﷺ ؟

كان سلمان يعمل عند رجل من بنى قريظة يرعى له نخيله، فلما سمع بقدوم النبى ﷺ إلى قُباء، وكانت إرهاصاته الدينية تُنبئه بظهور نبى يدعو للحنيفية ـ كما سبق أن أوضحنا ـ «فلما أمسيتُ جمعتُ ما كان عندى، ثم خرجتُ حتى جئتُ رسول الله ﷺ وهو بقُباء فدخلت عليه ومعه نفر من أصحابه، فقلتُ للنبى ﷺ : إنَّه قد بلغنى أنَّك ليس بيدك شىء وأن معك أصحابًا لك، وأنكم أهل حاجة وغُربة، وقد كان عندى شىء وضعتُه للصدقة فلما ذُكر لى مكانكم رأيتكم أحق الناس به فجئتكم به، ثم

وضعتُه له، فقال رسول الله ﷺ : كلوا (أى قال لأصحابه كلوا) ثم أمسك هو (أى أن النبى ﷺ لم يأكل مما أتى به سلمان صدقةً). قلتُ فى نفسى: هذه واحدة (أى هذا أحد الأدلة على نبوته كما أخبره الأحْبار قبل ذلك). ثم رجعت (إلى بنى قريظة) وتحوَّل رسول الله ﷺ إلى المدينة، فجمعتُ شيئًا ثم جئته فسلّمتُ عليه وقلتُ له إنى قد رأيتك لا تأكل الصّدقة وقد كان عندى شىء أحب أن أكرمك به من هديّة أهديتها كرامة لك ليست بصدقة. فأكل وأكل أصحابه. قال: قلتُ فى نفسى: هذه أخرى (أى هذه علامة أخرى من العلامات التى أعرفها والدالة على نبوته). ثم رجعتُ فمكثت ما شاء الله ثم أتيتُه فوجدته فى بقيع الغرقد قد تَبع جنازة وحوله أصحابه وعليه شملتان مُؤْتزرًا بواحدة مُرْتديًا بالأخرى. قال: فسلَّمت عليه ثم عدلت لأنظر فى ظهره فعرف أنى أريد ذلك وأستثبته (أتأكّد منه)، فألقى النبى ﷺ بردائه فنظرت إلى خاتم النبوَّة كما وصف لى صاحبى (الراهب المسيحى)، فأكببتُ عليه (على رسول الله ﷺ) أقبل الخاتم من ظهره وأبكى. فقال النبى ﷺ : تحوَّل عنه، فتحولتُ فجلستُ بين يديه فحدَّثته حديثى.. فأعجبه ذلك، فأحبَّ أن يسمعه أصحابه، ثم أسلمتُ، وشغلنى الرّق وما كُنتُ فيه حتى فاتتنى (غزوتا) بدر وأحد، ثم قال لى رسول الله ﷺ : كاتب (أى افتك نفسك من الرِّق) فسألت صاحبى (اليهودى) ذلك حتى وافق وكاتبنى على أن أحيى له بثلاثمائة نخلة وأربعين أوقية من ورَق (فضّة)، فقال رسول الله ﷺ : أعينوا أخاكم بالنخل، فأعاننى كل رجل بقدره (على قدر ما يستطيع) بالثلاثين والعشرين والخمس عشرة والعشر، ثم قال النبى ﷺ : ياسلمان اذهب ففقِّر لها فإذا أنت أردت أن تَضَعها فلا تضعها حتى تأتينى فتؤذننى فأكون أنا الذى أضعها بيدى» فقمتُ فى تفقيرى فأعاننى أصحابى حتى فقَّرنا شَرَبًا ثلاثمائة شَرَبَة، وجاء كل رجل بما أعاننى به من النخل ثم جاء رسول الله ﷺ فجعل يضعها بيده وجعل يسوّى عليها شربها ويبرّك حتى فرغ منها رسول الله ﷺ جميعًا، فلا والذى نفس سلمان بيده ما ماتت منه وَدِيَّة (فسيلة) وبقيت الدراهم، فبينا رسول الله ﷺ فى أصحابه إذ أتاه رجل من أصحابه بمثل البيضة من ذهب . . . فدُعيت لرسول الله ﷺ فجئتُ فقال اذهب بهذه فأدّها عنك مما عليك من المال . . فوالذى نفسى بيده لوزنتُ له (لمكاتبه اليهودى) منها أربعين أوقية حتى وفَّيته . . وعُتق سلمان، وشهد الخندق وبقية مشاهد رسول الله ﷺ حرّا مسلمًا حتى قبضه الله» [ابن سعد، جـ٣، ص ص ٥٥ـ٥٦].

من هذا النص الذى نقلناه عن ابن سعد (ت٢٣٠هـ) يتضح لنا أن طريقة إسلام سلمان تختلف عن إسلام الآخرين؛ إذ كان سلمان هو الباحث المفتّش عن الإسلام وهو ما ذكرناه فى صدر هذا الفصل.

وهناك رواية أخرى لاتختلف فحواها عن الرواية السابقة، وإن كانت تختلف عنها فى نقطة مهمة، وهى أن سلمان لم يكن يعمل عند يهود بنى قريظة عندما أتاه خبر النبى ﷺ وإنما كان عند امرأة من المدينة المنوّرة، ويمكننا التوفيق بين الروايتين بأنه ربما كان عند امرأة المدينة ويعمل - أيضًا - لبعض الوقت عند يهود بنى قريظة، أو أن يهود بنى قريظة باعوه لهذه المرأة، وعلى أية حال فإننا لانملك إلا إيراد هذه الرواية المختلفة كما قدمها لنا ابن سعد:

«. . . حتى مررت على قوم من الأعراب فاستعبدونى فباعونى فاشترتنى امرأة من المدينة فسمعتهم يذكرون النبى، وكان العيش عزيزًا فقلتُ لها: هبى لى يومًا. قالت نعم فانطلقتُ فاحتطبتُ حطبًا فبعته فأتيتُ به النبىَّ فوضعته بين يديه . . . [ابن سعد، جـ٣، ص٥٧]. ثم لاتختلف بقية هذه الرواية عن الرواية السابقة.

جعل عمر بن الخطاب عطاء سلمان ستة آلاف وقيل أربعة آلاف، بينما كان عطاء عبد الله بن عمر ثلاثة آلاف ونصف ألف؛ لأن سلمان شهد مع رسول الله ﷺ مشهدًا لم يشهده ابن عمر وكان سلمان إذا تسلم عطاءه أمضاه (أى أنفقه) وراح يأكل من سفيف يده (أى من كدِّ يده). [ابن سعد، جـ٣، ص٦٢].

تولى إمارة المدائن ومع هذا ظل متقشِّفًا وكان يقول دومًا: «إنما الخيرُ والشرُّ فيما بعد اليوم. [ابن سعد، جـ٣، ص٦٢].

كان اسم امرأته بُقَيرة [ابن سعد، جـ٣، ص٦٥]. ولا نعلم عنها الكثير، ولم يوردها ابن سعد فى الجزء الذى خصصه لتراجم النساء.

توفى سلمان فى خلافة عثمان بن عفان فى المدائن. [ابن سعد، جـ٣، ص٦٦]

ورغم أن سلمان عاش فى الأديرة ردحًا من الزمن، إلا أن تأثير نهج الحياة الإسلامى فيه كان عميقًا.

دخل سلمان على أبى الدرداء فى يوم الجمعة فقيل له: هو نائم. فقال: مالَهُ؟ قالوا: إنه إذا كان ليلة الجمعة أحياها ويصوم يوم الجمعة. فأمرهم (أى سلمان) فصنعوا

طعامًا فى يوم الجمعة ثم أتاهم فقال له (أى قال لأبى الدرداء) : كُل، قال: إنى صائم. فلم يزل به حتى أكل، ثم أتيا النبى ﷺ فذكرا له ذلك فقال النبى ﷺ : «عُوَيْمر ا سلمان أعلم منك» وهو يضرب على فخذ أبى الدرداء، ثم قال النبى ﷺ : «لاتخُص ليلة الجمعة بقيام بين الليالى، ولاتخص يوم الجمعة بصيام بين الأيام». [ابن سعد، جـ٣، ص٦٠].

نزل سلمان على أبى الدرداء وكان أبو الدرداء إذا أراد أن يُصلِّى منعه سلمان وإذا أراد أن يصوم منعه، فقال أبو الدرداء: أتمنعنى أن أصوم وأصلى لربى ؟ فقال سلمان: إنَّ لعينك عليك حقّا، وإن لأهلك عليك حقّا، فصُم وأفطر، وصلِّ ونم. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: لقد أشبع سلمان علمًا. [ابن سعد، جـ٣، ص٦٠]

سئل على بن أبى طالب عن سلمان الفارسى، فقال: « . . . عَلِم العلمَ الأوّل والعلم الآخر، وقرأ الكتاب الأوّل وقرأ الكتاب الآخر، وكان بحرًا لاَ يُنْزف». [ابن سعد، جـ٣، ص٦٠].

أوخى بين سلمان وأبى الدرداء، فسكن أبو الدرداء الشام، وسكن سلمان الكوفة. [ابن سعد، جـ٣، ص٥٩].

يقول ابن هشام عن ابن إسحاق فى معرض حديثه عن المؤاخات بين المهاجرين والأنصار بعد هجرة النبى ﷺ إلى المدينة، ليزيل عن المهاجرين وحشة الغُربة ويشُد من أزرهم، لكن هذا لا يمنع من أن «أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله» أى فى الميراث، وإن كان المؤمنون جميعًا إخوة فكان ممن آخى النبى ﷺ بينهما سلمان الفارسى وأبو الدرداء، عويمر بن ثعلبة أخو بلحارث بن الخزرج [ابن هشام، جـ٣، ص٣٨].

وقد منع الرّق سلمان رضي الله عنه من المشاركة إلى جانب المسلمين فى غزوتى بدر وأحد، ـ كما سبق القول ـ فأوّل غزوة غزاها سلمان غزوة الخندق سنة ٥هـ. [ابن سعد، جـ٣، ص٥٩] .

***

كان لثقافة سلمان الدينية فى الأديان السّابقة على الإسلام أثر فى تفرُّده ببعض الجوانب التى كان مهيّأ لتلقِّيها ونعنى بهذا رؤاه النبوئية، ورؤاه لوقائع تاريخية انتهت .

ولسنا نعنى هنا الرؤى المنامية أو الأحلام، وإنما رؤى حقيقية تُرى فى حال اليقظة وليست أضغاثًا.

الرؤى التى نتحدث عنها ليست أحلامًا منامية وإنما جرت فى حال اليقظة أو فى حال هى عوانٌ بين اليقظة والنَّوم، إذًا هذا هو المقصود بالرؤى التى نتحدث عنها فى سياق حديثنا عن سلمان ﷺ، لكن هذا لا يمنع من وجود تراث طويل أيضًا فى الأديان السّابقة على الإسلام لرؤى منامية ذات طابع دينى. سنركّز الآن على الرؤى فى حالة اليقظة، ولعلَّ أشهر هذه الرؤى هى تلك التى رآها النبى دانيال وهو من أنبياء بنى إسرائيل. يقول دانيال: إنه رأى رؤاه هذه وهو مستيقظ تمامًا بعد أن كان «نائحًا ثلاثة أسابيع (نائحًا أى حزينًا ينوح) لم آكل فيها طعامًا شهيًا ولم يدخل فمى لحم أو خمر ولم أتطيّب بدهن، وفى اليوم الرابع والعشرين من الشهر الأول بينما كنت إلى جوار نهر دجلة الكبير تطلعتُ حولى فإذا برجل مرتد كتّانًا. . . . كنت وحدى أنا دانيال الذى شاهدتُ الرؤيا، أما الرجال الذين كانوا معى فلم يروا شيئًا . . وقال لى: يا دانيال أيها الرجل المحبوب افهم الكلام الذى أخاطبك به . . .» [سفر دانيال ١٠/ ١-٢]. وكانت هذه الرؤيا فى عهد كورش ملك فارس.

نخلصُ من هذا أن رؤيا اليقظة هذه كانت خاصة بدانيال، فمن كان معه من الرجال لم يروْا ما رأى رغم وجودهم فى المكان نفسه والزمان نفسه، كما نفهم أن هذه الرؤيا كانت نبوئية مبشّرة بالخلاص، وأنها أتت فى وقت عصيب، ونفهم من مطالعة سائر سفر دانيال أنها كانت رؤيا رمزية مُغرقة فى الرمزية، تحتاج إلى تأويل، وتفسير ما زال الناس مختلفين حولها حتى الآن. أما رؤيا سلمان - على وفق المشهد الذى رآه النبى ﷺ - فقد كانت واضحة وضوح الشمس المشرقة. لقد كانت بشارة بفتح فارس وفتح بلاد الدولة البيزنطية، وهذا ما تحقق بالفعل بعد سنوات قلائل. وكانت رؤيا سلمان رؤيا خاصة فلم يُشاهد ما رأى سوى رسول الله ﷺ، أما من كان من حولهما فلم يروْا شيئًا، وربما كان النبى ﷺ وسلمان معًا ولا ثالث لهما سوى الله سبحانه.

وكانت رؤيا نبى الله ﷺ وسلمان فى وقت ضيق، أثناء حفر الخندق حول المدينة، وكفّار العرب جميعًا بقَضِّهم وقضيضهم، وقبائلهم وعشائرهم قد أقبلوا ليضربوا الإسلام ونبيه ﷺ الضربة القاضية فيما قدّروا ولكن الله فعّال لما يريد. وكذلك

ارتبطت رؤيا دانيال بموقف عصيب لكن شتَّان بين البشارة فى كليْهما، فالبشارة فى رؤيا نبينا محمد ﷺ، وسلمان رضي الله عنه كانت واضحة لا ألغاز فيها .

وفى تاريخ الدعاة المسيحيين (يُطلق المسيحيون عليهم اصطلاحًا اسم الرُّسل) كثير من الحكايات عن رؤى اليقظة، فبولس (شاءول) فيما يُقَال رأى المسيح - عليه السلام - وهو فى طريقه إلى دمشق للقبض على المسيحيين وتعذيبهم (هذا قبل أن يؤمن بولس أو شاءول بالمسيحية). [أعمال الرسل ٩ / ٣-٩] .

ومن ذلك أيضًا رؤيا كرنيانيوس الذى وُصف بأنه كان ينتمى إلى الكتيبة الإيطالية «وكان تقيّا يخاف الله ويصلّى للّه دائمًا، وذات نهار رأى فى رؤيا واضحة فى حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر ملاكًا . . » أصدر إليه تعليمات بأن يستدعى بطرس من يافا [١٠ / ٢-٨]. وقد حذر النبى أرميا من الكذب فى الرؤى وحذر من أصحاب رؤى كذابين. [أرميا ٢٣/ ١٦].

كان هناك اتّجاه لدى اليهود - اتجاه عمد إلى الاعتقاد فى أنَّ الرؤى فى حد ذاتها بشارة، وهو اتجاه أصحاب الرؤى ومن والاهم؛ إذ اعتقدوا أنَّ المسيا أو المسيح المخلِّص الآتى هو الذى سيفعل كلَّ شىء بنفسه، حيث سيخر الظالم صريعا بضربة مباشرة من الله، أما هم فما عليهم إلاَّ الانعزال والتعبّد وممارسة الطقوس إلى أن يتدخَّل الله بنفسه. [الموسوعة الكتابية، ص٢١، جـ٤]. وهذا يختلف تمامًا عن مفهوم محمد النبى ﷺ وصاحبه سلمان، إذ رأيا الرؤيا واضحة مشرقة والمعاول فى أيديهما يحفران الخندق للدفاع عن المدينة المنوَّرة والدين الجديد النَّاهى عن الظُّلم بمعنييه (الشرك الذى هو ظلم عظيم، والظلم الاجتماعى الممثل فى الاحتكار والعبودية والتكبّر . . إلخ).

أمّا رؤيا يوحنا اللاهوتى فقد حدثت فى الجزء الأخير من القرن المسيحى الأوّل بعد أن كانت المسيحية قد انسلخت عن اليهودية وأصبحت تعتبر عند السلطات الرومانية حركة منفصلة. [الموسوعة الكتابية، جـ٤، ص ٥٣].

و رأى يوحنا رؤيا فى الساحل الشرقي لبحر إيجه (غرب تركيا الحالية). وقد جرت الرؤيا فى جو كانت الكنائس فيه مُضطهدة بسبب التعنّت الرومانى وتبشر بقدوم المسيح لإنقاذها، ورؤيا يوحنا أيضًا عامرة بالرموز التى اختلف كلُّ الناس فى تفسيرها حتى الآن.

***

هذا يختلف تمامًا عن رؤيا النبى ﷺ ورؤيا سلمان رضي الله عنه ننقلها عن ابن هشام كالتالى :

قال ابن إسحاق «وحُدِّثتُ عن سلمان الفارسى أنه قال : ضربتُ فى ناحية من الخندق فَغَلُظت علىَّ صخرة (صعُب علىَّ كسرها) ورسول الله ﷺ قريب منى ، فلما رآنى أضرب ورأى شدَّة المكان علىّ (صعوبته) نزل فأخذ المعْوَل من يدى فضربَ ضربة فلمعت تحت المعْوَل بَرقة . قال : ثم ضرب به ضربة أخرى ، فلمعت تحته بَرْقة أخرى ، قال ثم ضرب به الثالثة فلمعت تحته بَرْقة أخرى قال سلمان : بأبى وأمى أنتَ يا رسول الله ، ما هذا الذى رأيتُ لمع تحت المعول وأنتَ تضرب ؟ قال النبى ﷺ : أوَقَد رأيت ذلك يا سلمان ؟ قال سلمان : نعم . قال النبى ﷺ : أمَّا الأولى فإنَّ الله فتح علىَّ بها اليمن ، وأما الثانية فإنَّ الله فتح علىَّ بها الشام والمغرب . وأما الثالثة فإن الله فتح علىَّ بها المشرق» [ابن هشام جـ٤ ، ص ١٧٦] .

***

فإذا ما انتقلنا لنوع آخر من الرؤى التى رآها سلمان وهو فى حال اليقظة ، وجدنا رؤيا لعيسى بن مريم عليه السلام ، ولا يمكن فهم مثل هذه الرؤى إلاَّ فى ضوء الأديان السماوية السابقة وتراثها الرُّؤوى ، فلا يمكن أن يكون سلمان قد عاين المسيح نفسه ولمس كتفه بالفعل ، فهذا غير صحيح من الناحية التاريخية ، كما أن كتب التراث لم تذكر لنا أنها رؤيا منامية . يقول ابن هشام : .

« عن عاصم بن عمر عن قتادة ، قال : حدثنى من لا أتَّهم عن عمر بن عبد العزيز بن مروان قال : حُدّثت عن سلمان الفارسى أنه قال لرسول الله ﷺ حين أخبره خبره : إنّ صاحب عمورية قال له : ائت كذا وكذا من أرض الشام فإن بها رجلاً بين غَيضتين ، يخرج فى كل سنة من هذه الغيضة إلى هذه الغيضة مُستجيزًا ، يَعترضه ذوو الأسقام ، فلا يدعو لأحد منهم إلاّ شُفى ، فاسألْه عن هذا الدين الذى تبتغى ، فهو يخبرك عنه ، قال سلمان : فخرجتُ حتى أتيت حيث وُصف لى ، فوجدتُ الناس قد اجتمعوا بمرضاهم هنالك ، حتى خرج لهم تلك الليلة مستجيزًا من إحدى الغيضتين إلى الأخرى ، فغشيه الناس بمرضاهم لايدعو لمريض إلاّ شُفى ، وغلبونى عليه (أى تزاحموا فلم أستطع الوصول إليه) فلم أخلص إليه حتى دخل الغَيْضةَ التى يريد أن

يدخل، إلاّ منكبه (أى لم يبق خارج الغيضة إلا منكبه)، فتناولته (أمسكت به) فقال: من هذا؟ والتفتَ إليَّ، فقلتُ: يرحمك الله، أخبرنى عن الحنيفية دين إبراهيم، قال: إنك لتسألنى عن شىء ما يسأل عنه الناس اليوم. قد أظلّك زمان نبى يبعث بهذا الدين من أهل الحرم، فأمه فهو يحملك عليه. قال سلمان ثم دخل (أى دخل هذا الرجل الغيضةَ التى كان يقصدها). فقال رسول الله ﷺ: لئن كُنت صدقتنى يا سلمان، لقد رأيتَ عيسى بن مريم» [ابن هشام، جـ٢ص ص ٤٨-٤٩].

ليس من تفسير لهذا إلاّ بربط ما حدث بتراث الرؤى اليهودى والمسيحى الذى عايشه سلمان فى الأديرة، والثقافة المجوسية التى تبادلت التأثير والتأثر مع اليهودية، فكان سلمان رضي الله عنه مهيّأً لتلقيها.

***

تسابيح وابتهالات

الحمدُ لله،
الحمدُ لله الذى هدانا للإيمان،
ولولا الله ما اهتدينا،
طوّف سلمان يا ربُّ،
شرّق وغرّب،
اتجه شمالاً ثم انتحى إلى الجنوب،
حتى هديته سواء السبيل .
فَرَسَت سفينتهُ على البر الآمن،
وصلت قافلته إلى الهدف الصحيح،
فى حضن الإسلام اطمأن.
فكّه الإسلام من الرق.
اللهم فك أسرنا،
وأطلق سراحنا ولاتجعلنا عبيدًا إلاّ لكَ.
لم يكن سلمان عبدًا للثروة .
وإلاّ لمكث فى ضيعة أبيه الواسعة،
لم يكن سلمان عبدًا للفقر .
لم يستعذبه.
فالأنين والأحزان الدائمة مَرَض.
ترك الدير وأصبح له غُنيمات،
باع الغُنيمات ليلحق بالقافلة بحثًا عن النور .

أما نحن فقد أصبح النور حولنا .
أصبح النور يَغمرنا،
بعد أن هدانا ـ بفضل الله ـ محمد .
أتُرانا نترك النور إلى الظلمة ؟!
اللهم ثبتنا على الإيمان،
ثبتنا على الدين الحق خلاصة الأديان،
زَرَع سلمان النخيل لينفكّ من ذلّ العبودية .
زرع ثلاثمائة نخلة .
ودفع المال،
ليشترى حريته،
فالحرية غالية الثمن .
فمن منا يشترى الرّق لنفسه بمال الدنيا كلها ؟
مَن يشترى الرق لنفسه ؟
آه يا رب، هناك من يشترى الرق لنفسه .
لقاء ثمن بخس يشترى الرق لنفسه،
ليصير عبدًا ــ برغبته ــ لذى سلطان ظالم،
أو ذى ثروة يبدّدها فى الفساد .
اللهم لا تجعلنى عبدًا إلاَّ لكَ،
فالعبودية لك حُب،
والعبودية لله نقاء،
والخوف منك يا إلهى شجاعة .
أزرعُ نخلاً لغيرى لأكون حرًا.
ولا يعطينى الآخر نخلاً بلا مقابل،
إلاَّ لأكون عبدًا.

***

طوَّف سلمان وجال،
قبل النور الذى غمره طاف حول النيران،
وبعدها فى دير راهب تنسَّك،
وبعدها فى حمى يهود عاش،
وجد سلمان أن نور النار يخبو،
أما نور رب العالمين فلا يخبو،
وجد سلمان أن النار يطفئها الماء،
ونور ــ رب العالمين ــ لا يُطْفأ
وفى رحاب راهب عاش،
وجد بعض الأحبار والرهبان يأكلون أموال الناس بالباطل.
غضب سلمان،
أحسَّ بالفطرة أنَّ الله لا يأمر بهذا.
مهما كانت كلمات التنسّك،
ومهما كانت التراتيل والتسابيح،
فأكل المال بالباطل حرام،
مهما صاحبته التراتيل،
آه يا سلمان لو عشت بعد زمانك ردحًا.
آهَ يا سلمان لو عشت بعد زمانك ردحًا،
لوَجدتهم يأكلون أموال الناس بالباطل،
وهم يسبِّحون.
نعم يسبحون وهم يسرقون،
ليتهم سرقوا بلا تسبيح.
فاللص دون تسبيح يسهل إقناعه أنه لص،
أما اللص المسبِّح فظنه أن فى التسبيح غفرانًا.
يقول لك: لا تحاسبنى، وإنما المحاسب هو الله،
ألا يعلم أن الله يعلم خائنة الأعين،

وما تخفى الصدور،
هداهم الله ياسلمان.
هداهم الله ليعلموا ــ كما علمت ــ أنَّ الإيمان صِنْو العمل .
فالإيمان ليس كلمات تقال .
الإيمان ما وَقَر فى القلب وصدّقه العمل.

***

وتَنَسَّكت يا سلمان فى أديرة الصالحين .
علمتَ منهم عن نبىٍّ يجىء،
نبى هو الخاتم الحبيب،
لا يمنعك المال الحلال .
ولا يمنعك النساء الحلال،
ولا يمنعك النوم ولا يكد بدنك،
وإنما يريد منك أن تنام وتصلى، وتلهو لهواً حلالاً، وتعمل،
لأنك إنسان.
إنسان ياسلمان.
إنسان خلقه الله ياسلمان،
والله أعلم بمن خلق.

***

وفى رحاب يهود مكثتَ،
ما كان يمكن أن تكون هوداً
فاليهودية عرق،
وعرقك مختلف يا سلمان.
حتى لو قبلوك لكنتَ يهوديّا من طبقة أدنى.

كنت تبحث عن رب العالمين،
رب لايفرّق بين شعب وشعب،
ولا بين لون ولون،
ولا بين غنى وفقير،
فسمعتَ صداها :
«الحمد لله رب العالمين»،
نعم يا سلمان : رب العالمين،
نعم يا سلمان : مالك يوم الدين،
فلبّيتَ،
لبيك اللهم لبيك،
لبيك رب العالمين .
وهكذا صرتَ من عباده الصالحين .

***

عشتَ من كدّ يدك،
عشت من حصاد عملك،
رغم أن عطاءك بلغ الآلاف .
كنت تُنفقه فى سبيل الله يا سلمان،
تتبرع لتجهيز جيش المسلمين،
وتُقرض المحتاج،
وتقدم لعابر سبيل .
كانت الأرض واسعة على أيامك .
لم تكن قد ضاقت بأهلها .
لكنك لو عشتَ حتى أيامنا،
لأقمتَ المصانع،

ومراكز الأبحاث،
فاشتغل العاطلون،
وقلّ الفساد
هكذا كنت ستستخدم «الفضل»،
ففضل المال نعمة.
نعمة تغمر الناس حول صاحبها،
ونعمة تَغمر صاحبها بين الناس،
لا إله إلا أنت سبحانك .
هذا هتافك يا سلمان .

***

اذكروا سلمان.
اذكروا ماضيكم الجميل.
واذكروا علمه المفيد فى غزوة الخندق.
لقد أصبح الدفاع علمًا أعمق
وأبعد غَوْرا من علم سلمان .
لكن سلمان وضع لكم لَبِنَةً،
فأكملوا البناء.
أكملوا البناء.
فهناك من يتربّص بكم .
وإذا داعب النعاس جفونكم،
فتذكروا رسول الله ﷺ .
وتذكروا سلمان والصحابة الأبرار،
تذكروهم يُعدّون العدّة،
ويسخِّرون العلم،
ويستعينون قبل كل شىء بالله.

حتى شتّتَ اللهُ الأحزاب .
ربّاه ترتعشُ الحروف على شفتى ،
وتتكسّر الكلمات فالعبراتُ تنهمرُ ،
لكن نشوتى بالنصر الآتى تسبق الحَدَثا ،
فقد وعدتَ عبادك الصالحين نصرا ،
نصراً مؤزّراً يرفع دينك ،
ويعلى جند الإيمان .

***

الفصل الخامس

براءة سلمان رضي الله عنه
حوارات عبر الزمان

- عن طبيعة شخصية سلمان
- براءة سلمان
- سلمان ليس إلهًا متجسدا
- أمير المدائن (طيسفون)
- الطائفة المندائية
- سلمان ليس أقنومًا
- سلمان ليس هو الباب
- الغلو
- خاموس الخلق
- أثر الأديان السابقة على الإسلام فى الغلو
- فكرة الألفية
- نصوص غريبة
- تسابيح النجاة.

أدّت نشأة سلمان الأولى فى بيوت الزرادشتية، ثم تحوله إلى المسيحية ومعايشته للرهبان، ثم عمله بعد ذلك مع يهود شبه الجزيرة العربية، ثم - أخيرًا - اطمئنانه إلى الدين الإسلامى الحنيف، وقيامه بدور مهم خاصة فى غزوة الخندق. أدّى كل هذا إلى تحلّق كثير من الأساطير حَوله، خاصة من أصحاب البدع والأفكار الغريبة، وأفكار الغنوص، أو العرفان الباطنى الغيبى.

أنت برىء ياسلمان - رضى الله عنك - من كلّ هذا، فأنت فى رحاب ربك، وكنت على الأرض بشرًا ممّن خلق. كنتَ طاهرًا فى حياتك فأسموك سلمان باك، و(باك) كلمة فارسية تعنى (الطاهر).

لقد اتّجه القائلون بالغنوص (العرفان الباطنى أو الغيبى) إلى شرق نهر الفرات وتوغّلوا بعيدًا فى الأرض الإيرانية بعد انتشار المسيحية. وكان سلمان أميرًا للمدائن (طيسفون) بعد الفتح العربى الإسلامى للعراق، وساعد هذا على زيادة الأفكار الباطنية (الغَيبية العرفانية) حول شخصية سلمان؛ لأنّ المدائن (طيسفون) كان لها - قبل الإسلام - مكانة كبيرة لدى القائلين بالغنوص (العرفان الباطنى)، ولازالت طائفة غنوصية ذات عمق تاريخي تعيش - حتى الآن - فى هذه الأنحاء من العراق، هى الطائفة المندائية التى درسها الباحث هالم فى كتابه [الغنوصية فى الإسلام، ص٥].

آمنتَ يا سلمان بأنّ الله واحد أحد. ولم تدخل فى متاهات. لم تقل كما زعم بعض أهل الغنوص بأن الإله الأوّل غير الله الصانع (الخالق) لم تقل يا سلمان: إن اللّه له أقانيم كثيرة. إن لله فيوضات وليس أقانيم. إنّ الله يا سلمان - سبحانه وتعالى - ليس مشكّلاً من رذاذ من الأقانيم والفيوضات. أنت تعلم ذلك جيدًا يا سلمان. من خلال القرآن الذى تحفظه، فكيف إذن جعلوك أقنومًا ؟! نستغفر الله يا سلمان أنت لم تقل لهم ذلك، ولو كُنتَ قلته لعلمه الله، فلما توفّاك رب العالمين كان هو - سبحانه - الرّقيب عليهم.

قالوا يا سلمان : إن الإسلام الفارسى أنتَ أساسه . وهل هناك إسلام فارسى وآخر غير فارسى ؟ الإسلام إسلام فى كلِّ الأحوال . الله فيه واحد أحد ، ونبيّه محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء فلا نبيَّ بعده ، وإنما مجتهدون ومصلحون عاملون ومتعبدون لا يفصلون بين العلم والعمل .

لا تناسخ يا سلمان ، هكذا علّمك دينك ، فمن قال لهم : إن روح الله تَقَمَّصتك ، نستعيذ بالله يا سلمان .

هل قلت لهم إنَّك أنت الباب «الذى يقود إلى معرفة ألوهيّة علىٍّ وسلالته» [هالم : الغنوصية فى الإسلام ، ص ٧٧ منشورات الجمل] . نعوذ بالله يا سلمان ونبرأ من هذا برئتَ وبرئتُ من قول كهذا كما برئ قبلى شاعر اسمه إسحاق بن سويد العدوى :

برئتُ من قـــوم إذا ذكـــروا عليّـــا
يردُّون السَّـــلام على الســـحـــاب
رســـول الله والصـــديق حـــبـــا
به أرجـــو غـــداً حُـــسنَ الصّـــواب

أقُلت لهم يا سلمان إنك « خاموس الخَلْق » ؟ هل قلت لهم يا سلمان إنّك أمير الأرواح ؟ هل أنت يا سلمان إله متجسّد ؟ نستغفر الله يا سلمان . لكننا نحمدُ الله أنّ كل هذه الأفكار بدأت تتساقط ـ شيئًا ما ـ مع تقدم العلم البحت والتطبيقى وانشغال المسلمين به للدفاع عن دينهم .

هل أنت آدم الثانى الذى أمر الله الملائكة بالسجود لك ؟ ما هذا الإسفاف يا سلمان؟! أنت لم تقله ، لكنهم قالوه بعدك ، ونحن نبرأ مما يقولون . لماذا يشغل المسلمون أنفسهم بأمور غير مفهومة ؟ أفلا يتدبرون الإبل كيف خُلقت فيبرعون فى علوم الحياة ؟ أفلا يتدبرون السماء كيف رُفعت فيبرعون فى علوم الفيزياء ؟ أفلا يتدبرون فى خلق الله فيبرعون فى شتى العلوم ؟ أليس هذا أجدى من الضّياع فى المتاهات؟! .

حتى الألفية ـ ياسلمان ـ التى قال اليهود والنصارى : إنها حَدَث أساسى فى هذا العالم ، حتى هذه الألفية التى يتوقّع المسيحيون ـ كل مطلع ألفية ـ نزول المسيح عليه السلام فيها ويتوقّع اليهود نزول مسيح آخر غير المسيح بن مريم ، ليملأ الدنيا عدلاً . . حتى

هذه الألفية أقحموك فيها يا سلمان . . آه يا سلمان كم من الأكاذيب تُقَص باسمك . مع أنَّك يا سلمان صحابى طاهر رضى الله عنك .

لنقرأ معًا : «وظهر فى نهاية هذه الألفية الملك تعالى جل جلاله (يقصدون الله سبحانه) من حجاب سلمان (المقصود - أستغفر الله - أنّ الله سبحانه كان محجوبًا من سلمان) مع كل الخاصين والخالصين والنقباء والنجباء والمعترضين وتكلَّم إلى الكفار والمنبوذين بصوت مرتفع : إنّ هؤلاء هنا هم مخلوقاتي . اسجدوا لهم . . . فشهد الخاصون والمخلصون لله تعالى . . . وكان كل الآخرين متشككين وعصت منازل الكافرين ، ألستَ سلمان العظيم؟ ، ووقفوا فى مواجهة الملك تعالى مرة أخرى ، وأشعلوا الحرب من جديد ، والجدال الذى كانوا قد خاضوه من قبل ذلك . . فأمر الملك تعالى سلمان : أنزل هؤلاء المخلوقات من البحر النارى اللون ، وانزع عنهم النور العَقيقى اللّون وابسطه من تحتهم . فقذف بهم سلمان إلى تحت الحجاب النارى اللون ، وانتزع منهم النور العقيقى اللون . . . وقال الملك تعالى : اسجدوا كلكم لوصيى (سلمان) الذى هو يدى اليمنى . . »

ما هذا الغلو يا سلمان ؟ أقُلت لهم هذا ؟ أنت برىء من هذا [عن النص الكامل راجع هالم : الغنوصية فى الإسلام ، ص ١١٥] . لنقرأ مرة أخرى : «فاستحوذ الغضب على الملك تعالى وأمر سلمان أن يرمى المخلوقات من البحر الأخضر ، وانتزع منهم اللباس البنفسجى اللون وبسطه من تحتهم وجعله أرضًا تحت أقدامهم . وخلق (أى سلمان) منه البحر البنفسجى وزيَّنه بألف ألف روح ونور بجبال من البلور وأنهار متدفّقة وسمّاه الفردوس وهو الجنة الرّابعة . ثلاثة ديوانات من فوقهم : البحر الياقوتى اللون ، وجنة دار الجلال ، والبحر النارى اللون ، وجنة دار الملك ، والبحر الزّبرجدى الأخضر كجنة دار الخلد ، وتسمى الديوانات الثلاثة التى من تحتهم بدار الملك ، وجنات عدن ، وجنات المأوى ، والبحر الشمسى اللون هو دار الملك ، والبحر القمرى اللون هو جنة جنات المأوى والبحر الأزرق هو جنات عدن . . . فسلمان هو القدرة . . » [ص١١٧] .

من أين أتوا بهذا الكلام يا سلمان . . عزاؤنا أنّ هذه النغمة تخف الآن ، والغريب أنَّ القائلين بهذا يستشهدون بآيات قرآنية يخرجونها من سياقها ، ويفسّرونها تفسيراً باطنيًا . لاشك أنَّ هذه الأفكار فى طريقها للزوال ، ولاشكَّ أنَّ سلمان منها براء . ولاشك أن لقاءات متوالية بين السنة وبعض الشيعة ممن يقولون بهذه الأفكار ستؤدى إلى توحيد الأفكار . ولاشكّ أنَّ الغُلُو فى الأديان كلها فى طريقه للزوال . والمؤكَّد أن كثيراً جدًا من هذه الأفكار دخل إلى الإسلام من الأديان السَّابقة عليه .

تسابيح النجاة

ألهمني القُدرة يا ربُّ.
أن أزرع أرضًا.
أن أبني بيتًا.
أن أرعى غنمًا.
أن أبني مصنعًا.
أن أربّي طفلاً.
أن أعمِّر كونك.
أمّا أنت سبحانك،
فأنت متعالٍ سامٍ،
وأنت قريبٌ أيضًا.
قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه،
لم تتقمّص ياربّ أحدًا،
لم تتجسَّد،
لم تتلبَّس سلمان.
ولا غير سلمان.
ولو فتح هذا الباب،
لضللنا السبيل.
ليس سلمان بَابَك،
فباب الوصول إليك هو التقوى والعمل الصالح
يا رب!

اجعل تسبيحى لك عكوفًا فى مَعمل كيمياء .

وتفحصًا للسماء عبر العدسات المكبّرة .

وتأملاً فى جسم الإنسان .

وفى أنفسنا فنحن ـ بفضلك ـ مبصرون .

يا ربّ !

أنت القادر .

مكنّى من إعداد القوّة ،

أدافع عن نفسى .

أدافع عن ابنى .

وأدافع ـ قبل ذلك ـ عن دينى .

أعنّى ـ يارب ـ للدفاع .

لن أهجم .

لن أعتدى .

لن أكون من الخاسرين .

فالعلم أمامى والنّور .

فَلمَ أجنح للخيال؟ .

تقدُّم العلم صار أغرب من الخيال .

فلِمَ أجنح للخيال ؟

يا رب !

أحدّث أحد عبيدك فى أقصى المعمورة ،

أحدثه وأرى الصورة ،

وكأنه فى أحضانى .

فَلم يستغربون ـ الآن ـ أنك سامٍ وقريب؟! .

لِمَ يستغربون أنك تعاليت؟! .

وأنك أقرب إليهم من حبل الوريد .

أنتَ معى .

أنت فى كل مكان .

فليس من الضرورى أن أتصورك قد تجسّدت فى سلمان أو غير سلمان .

ليس من الضرورى ذلك .

فأنا أحسّك .

أنا أعرفك .

فأنت أقرب إلىّ من حبل الوريد .

وأنتَ يارب لم تُشهد أحدًا خَلقى .

يا رب ،

آتنى القُدرة أن أحسّ بك وأعقلك .

هكذا يوحِّد قلبى .

هكذا ينبض عقلى

دون حاجة إلى فلسفة .

دون حاجة إلى أكاذيب .

اللهم آتنى إيمانًا كإيمان العجائز .

حتى أتفرّغ للحقل .

حى أتفرغ للمصنع .

حتى أتفرغ لمن أنجبت .

فتفرُّغى لهذا عبادة .

واللقمة أضعها فى فم زوجى صدقة .

وتنظيف الطريق صدقة .

فالرجل الذى أزاح غصن شجرة من الطريق شكرت له وغفرت

سبحانك .

أنتَ كما وصفت نفسك لا أزيد .

لك يد تليق بجلالك .

ولك عين تليق بجلالك .

ولك أذن تليق بجلالك .

أنت سميع بصير .

بطريقة تليق بجلالك .

لاأدرى كيف هذا ؟

لكننى على يقين أنه حق .

يا حق .

سبحانك ، ياربّ.

لم أعد فى حاجة لأقنوم يخرج منّى لأحدث وأرى صديقًا فى أقصى المعمورة .

وربما غدًا أو بعد غد قد يمكّننى العلم ـ بفضلك ـ من لمسه ومعانقته .

فهل أنت جلّ جلالك فى حاجة إلى أقنوم أو أقانيم لتعلم وترى؟!

سبحانك .

لست فى حاجة أن يكون سلمان أقنومًا .

فأنت القادر على كل شىء .

من تصدّى لك ـ سبحانك ـ عندما أمتّ سلمان؟ .

ومن يتصدى لك ـ سبحانك ـ لو أردت أن تهلك من فى الأرض جميعًا؟

سبحانك يا حق .

سأل نبيك الكريم جاريةً :

أين ربك يا جارية ؟

قالت : هو فى السماء .

قال النبى الكريم :

«دعوها فهى مؤمنة» .

هذا يكفى ربنا .

يكفينى أنك سميع بصير .

لأتقن زراعتى للحقل .

وأتقن صنعتى .

وأسبّحك فى معملى .

فأنت الحق .

تُحيط بكل شيء .
ولايحيط بك أحد .
سبحانك .
وَسع كرسيك السماوات والأرض .
فمن أحاط بالسماوات،
حتى يُدرك عظمة كرسيك؟
إنك ـ يا ألله ـ تتلطّف معنا .
تضرب المثل .
فأنت محيط بكل شيء .
لكن من ذا الذى يحيط بك . . .
سبحانك .
أعنَّا أن تسجد قلوبنا لك .
تسجد لك دَوْمًا .
ونحن نزرع أرضنا .
ونبنى مصانعنا .
ونعكف فى معاملنا .
فكل هذا عبادة لك .
سبحانك . . .

* * *

الباب الثانى

عندما أصبح اليهودُ صَحابة للنبى ﷺ

- الفصل الأوّل : عندما أسلم اليهود وصاروا أنصارًا.
- الفصل الثانى: لم يكن كل اليهود بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع ... إلخ.
- الفصل الثالث: ما هى العمليّة الفكريّة والإيمانية التى تجعل اليهودى يتحول إلى الإسلام ؟ ولماذا ظلَّ تحول اليهود الجماعى إلى الإسلام مستمرًا حتى مطلع القرن السابع عشر؟.

الفصل الأول

عندما أسلم اليهود وصاروا أنصاراً

- الهجرة إلى يهود
- صلة الأصنام بالعقائد اليهودية والمسيحية
- بنو قيلة
- رجل من يهود يبشر أهل المدينة بوصول « نبيهم »
- كعب بن الأشرف
- النسبة للنساء
- الدور التى رفضت الإسلام تماماً
- اليهود العرب يرحبون بالنبى ﷺ
- أسماء العشائر اليهودية العربية كما حدَّدها النبى ﷺ
- معنى (يهود) بدون ألف ولام
- من هم المنافقون فى المدينة؟
- اليهود العرب الذين أسلموا وشهدوا بدراً
- عندما دخلت سلالة اللاويين الإسلام
- ابن سلام
- ابن يامين
- صفية بنت حُيَىّ.

عندما جهر النبى ﷺ بدعوته لقى متاعب كثيرة كما هو معروف، فوجَّه أصحابه للهجرة إلى الحبشة (ديار مسيحية)، وبعد ذلك اعتزم هو نفسه ومن تبقَّى من أصحابه الهجرة إلى المدينة حيث يهود «وموالى يهود» [ابن هشام السيرة النبوية، جـ٢، ص٢٧٦]، وموالى يهود تعنى حلفاء يهود، ولم يكن كل اليهود معادين للنبى ﷺ، فهناك منهم من حارب إلى جواره، وهناك من أتاه مسلمًا دون إكراه كما تُبين صفحات هذا البحث. ولم أورد خبراً فى كتابى هذا إلا أرجعته إلى مصادره القريبة من أيدى القراء، كلّ ما فى الأمر أننى أعدت تفسير الخبر على نحو صحيح. كان النبى ﷺ فى هجرته للمدينة يعلم جيدًا أنّه متوجه إلى «يهود» و«حلفاء يهود» وكان يهود وحلفاء يهود هم الذين آزروه ونصروه، وكان منهم أيضًا من عاداه وعادى دعوته. لماذا ننسى القرآن الكريم وهو الوثيقة التى لم يعبث بها مزوِّر. إنَّ غالب توجُّهه لليهود والنصارى، ولم يضع اليهود كلَّهم فى كفَّة واحدة، ولم يُصدر عليهم جميعًا حكمًا يُدينهم. حتى عندما يشير القرآن للأصنام والأوثان فإن هذا لم يكن بعيدًا تمامًا عن انحرافات العقيدة فى الديانتين السابقتين (اليهودية والمسيحية). لقد اتَّخذت حمْير (بكسر الحاء وتسكين الميم) الصَّنم (نسراً) رغم شيوع اليهودية بينهم [الأصنام لابن الكلبى، تحقيق أحمد زكى باشا، القاهرة، دار الكتب المصرية]. وهل كانت (مناة) أيقونة مسيحية ؟ وإذا لم تكن كذلك فلم أهدى الحارثُ الغسَّانى المسيحى إليها ؟ [الأصنام لابن الكلبى، ص١٥]. و(اللاّت) صنم ثقيف سُمِّيت اللات لأنّ يهوديّا كان يَلُتّ عندها السَّويق (عجين مخلوط بالسمن والعجوة) [الأصنام لابن الكلبى، ص١٦]. وصنم (ذى الخَلَصة)، ألا يحقُّ لنا أن نشُكَّ فى أنه ربما كان مرتبطًا بفكرة الخلاص التى لها معان مختلفة فى الديانتين اليهودية والمسيحية؟

***

كانت معركة بدر من الناحية الظاهرية بين تجار مكة وسماسرتها من ناحية

والمهاجرين والأنصار من ناحية أخرى، لكن لم يسأل أحد نفسه من هم الأنصار المقصودون هنا ؟ ومن هم المهاجرون ؟ هل هم من بنى هاشم ؟ هل هم من حلفاء بنى هاشم ؟ وما هى قبائلهم وأعراقهم التى ينتمون إليها ؟ لو أننا تتبَّعنا هذه الأسئلة وأجبنا عنها من واقع ما أورده ابن إسحاق لخرجنا بالعجب العجاب، ولم يعد تاريخ هذه الغزوة (المعركة) سطحيًا ساذجًا ظاهريًا.

اليهود العرب يحاربون إلى جانب النبى ﷺ فى بدر

لأسباب سنوضحها فى سياق هذا البحث طغت أخبار بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ويهود خيبر بوصفهم يهودًا تآمروا على النبى ﷺ . طغت أخبار هؤلاء على أخبار اليهود العرب الذين آزروه ونصروه، وكانوا هم الأكثر عددًا . إنهم لم يؤازروه ضد تجار مكة وسماسرتها فحسب وإنما ضد يهود آخرين فكيف هذا ؟ ومن أين أتينا به؟ لقد كان النبى ﷺ عندما هاجر إلى المدينة على وعى كامل أنه مهاجر إلى اليهود ليُحدثَ التفاعل الثانى بين الإسلام وهذا الدين السماوى بعد أن أحدث التفاعل الأوّل بين الإسلام والمسيحية بهجرة المسلمين إلى الحبشة .

رجل من يهود أول من بشّر أهل المدينة بقدوم النبى ﷺ

وكان أولّ من رأى النبى ﷺ وهو قادم إلى المدينة رجل من يهود فنادى بأعلى صوته . « يا بنى قَيْلة (الأوس والخزرج) هذا جدّكم قد جاء» [ابن هشام، جـ٢ ، ص٢٠]. فخرج المسلمون للقاء النبى وأبى بكر . هنا لا بد من وقفة لتوضيح بعض الأمور.

١ـ لقد كان اليهود إذًا ينتظرون مقدم النبى ﷺ ، ولم يكونوا معارضين لقدومه، ولم يتآمزوا لمنعه من دخول المدينة، ولم يكونوا ضائقين به فى أوَّل الأمر . ولم تُشر كتب السيرة من قريب أو بعيد لشىء كهذا، بل ها هو يهودى يبشِّر أهل المدينة بقدومه .

٢ـ لقد قال اليهودى «هذا جدكم قد جاء»، ومعروف أنَّ جدَّ العرب هو إسماعيل عليه السلام، فكأنه يريد أن يقول لهم إن محمدًا ﷺ من نسل إسماعيل وليس من نسل

إسحاق. ونفهم أن كثيرين من العرب قد تهوّدوا أو كانوا على شيء من اليهودية على الأقل لعلّ أشهرهم كعب بن الأشرف الذى حفلت كتب السيرة بالحديث عن عداوته للنبى ﷺ، حقيقة إنه يهودى لكن الحقيقة أيضًا أنه طائى أى عربى أصيل من قبيلة طئ، ورغم أن اليهود من بنى إسرائيل (يعقوب) لايعترفون إلاّ بمن كان من نسل إسرائيل إلا أنهم يقدرون تقديرًا خاصًا مَن اعتنق اليهودية من غير نسله. نخلص من هذا بأن هناك يهودًا عربًا كثيرين رحَّبوا بالنبى ﷺ، وكانوا فى انتظاره، كما نفهم من كتب السيرة أيضًا أنَّ هناك يهودًا من بنى إسرائيل رحَّبوا فى بداية الأمر بالنبى ﷺ، ولم يتصدّوا له عند دخول المدينة لاعتقادهم أنه أقرب من الناحية العقائدية لهم، وإن تغيَّر موقفهم بعد ذلك لأسباب سنوردها فى سياقات أخرى.

٣ ـ يلاحظ القارئ أنَّ النسبة للنساء كانت شائعة فى المدينة على نحو ما فالأوس والخزرج هم بنو قَيْلة (وقَيْلة هذه هى أمّهم)، وكان ممَّن رغب فى أن ينزل النبى ﷺ فى بيته عباس بن عبادة بن نضلة (نضلة هى جدته)، وهو من رجال بنى سالم بن عوف، ورغب بنو بياضة فى أن ينزل عندهم (هم إذًا ينسبون إلى بياضة ـ امرأة)... إلخ [ابن هشام، جـ ٢، ص ص٢٢ ـ ٢٣]. وكان اليهود فى حالة التزاوج بينهم وبين العرب ينسبون النَّسل الناتج عن هذا التزاوج ـ غالبًا ـ لاسم الأم.

وبعد استقرار النبى ﷺ فى المدينة لم تَبقَ دار من دور الأنصار إلاّ أسلم أهلها ما عدا دار خَطْمة ودار واقف، ودار وائل ودار أميّة. وكان يُقال لهم أوسُ الله، فإنهم أقاموا على دينهم القديم (ما هو ؟) [ابن هشام، جـ٢، ص٢٩].

وكتب رسول الله ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم وأقرّهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد ﷺ **بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب** ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم بأنهم أمّة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يَفْدون عانيهم (أسيرهم)... وإنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم..

وإنّ **ليهود بنى النجار مثل ما ليهود بنى عوف**.

وإن ليهود بنى الحارث مثل ما ليهود بنى عوف .

وإن ليهود بنى ساعدة مثل ما ليهود بنى عوف .

وإن ليهود بنى جُشم مثل ما ليهود بنى عوف .

وإن ليهود بنى الأوس مثل ما ليهود بنى عوف .

وإن ليهود بنى ثعلبة مثل ما ليهود بنى عوف .

إلاّ من ظلم وأثم فإنه لايُوتغ (يوبق) إلاّ نفسه وأهل بيته . . وإن بطانة يهود كأنفسهم . . » [ابن هشام، جـ٢، ص ص ٣١ ـ ٣٥] .

إنّ النبى ﷺ يحدثنا هنا عن يهود آخرين غير بنى النضير وغير بنى قينقاع...إلخ، إنه يحدثنا عن يهود بنى ثعلبة، ويهود بنى عوف، ويهود بنى النجار، ويهود بنى ساعدة... إلخ، وهم يهود انضموا إليه وآزروه وناصروه وقاتلوا معه. راجع فى هذا الفصل قوائم بالأسر والعشائر اليهودية فى المدينة وقارنها بقوائم شهداء بدر من المسلمين، وبعد ذلك فى غير بدر، وإنّ معظمهم من اليهود الذين أسلموا لكننا لا ننتبه لذلك لأسباب غير واضحة.

حتى اليهود من غير العرب ويقال لهم فى كتب السيرة (يهود) دون ألف ولام كان منهم من رحّب بالنبى ﷺ ، بل وحارب معه . لقد آمن اليهود العرب أى العرب الذين اعتنقوا اليهودية مع توقيرهم للكعبة ، ومع اختلاط إيمانهم بشىء قليل من توقير مناة ، آمنوا بالنبى محمد ﷺ ، لأنّ ما دعا إليه لم يكن يختلف كثيراً عن إيمانهم بالله الواحد الذى أراد يهود (اليهود من نسل يعقوب) أن يجعلوه إلهًا لهم وحدهم ، وآمن اليهود العرب بما دعا إليه النبى ﷺ من عدالة اجتماعية ؛ فيهود (اليهود الآخرين ممّن يدعون النسبة إلى يعقوب) أثقلوا كاهلهم بالربا . لذا لم نسمع عن مجادلات كثيرة بينهم وبين النبى ﷺ أو بينهم وبين الدعاة الذين أرسلهم النبى ﷺ حول التوحيد والمؤاخاة والعدالة كتلك التى جرت مع تجار مكة وسماسرتها .

ولم يكن كل اليهود العرب فى صف النبى ﷺ ، فهناك عدد قليل منهم لم يؤمن به ، ولكنه لم يحاربه . ولم يكن كل يهود (اليهود من بنى يعقوب) معادين للنبى

ﷺ، فقد كان هناك عدد قليل منهم آمن به. أما الأغلبية فقد تآمرت عليه بعد ذلك، إنها لم تتصد له عند قدومه للمدينة، وذلك لتغير حسابات المصالح. وسنُورد فيما يلى قائمة بأحبار اليهود فى المدينة عند قدوم النبى ﷺ إليها لا لشىء إلاّ للتذكير بأنّ هناك يهودًا عربًا ويهودًا يدَّعون أصولاً غير عربية هم (يهود) غير أولئك الذين يكثر تردادهم عند تناول اليهود عامة فى هذه المرحلة. والقائمة يمكن الاطلاع عليها فى السيرة النبوية لابن هشام المتداولة بين الناس. دون أن يحسن الباحثون قراءتها.

***

قائمة بأحبار يهود المدينة عند قدوم النبى ﷺ إليها، ومنها يظهر يهود بنى عوف وبنى زريق وغيرهم

من بنى النّضير

١ ـ حُيى بن أخطب.

٢ ـ أبو ياسر (أخوه).

٣ ـ سلاّم بن مشكم.

٤ ـ كنانة بن الرّبيع بن أبى الحُقيق.

٥ ـ أبو رافع الأعور (قتله المسلمون بخيبر).

٦ ـ الربيع بن الربيع بن أبى الحُقيق.

٧ ـ عمرو بن جحّاش.

٨ ـ كعب بن الأشرف (عربى من قبيلة طيئ أمه يهودية من بنى النّضير).

٩ ـ الحجاج بن عمرو (عربى، حليف كعب بن الأشرف).

١٠ ـ كرْدم بن قيس (عربى، حليف كعب بن الأشرف).

من بني ثعلبة بن الفطيون

١ ـ عبدالله بن صوريا الأعور (عالم متبحر في التوراة).

٢ ـ ابن صلوبا.

٣ ـ مخيريق (أسلم).

ومن بني قينقاع

١ ـ زيد بن اللّصيت (أو اللُّصيت).

٢ ـ سعد بن حُنيف.

٣ ـ محمود بن سيْحان.

٤ ـ عُزيز بن أبي عُزيز.

٥ ـ عبدالله بن صيف (أو ضيف).

٦ ـ سويْد بن الحارث.

٧ ـ رفاعة بن قيس.

٨ ـ فِنْحاص.

٩ ـ أشيع.

١٠ ـ نعمان بن آضا.

١١ ـ شأس بن عدي.

١٢ ـ شأس بن قيس.

١٣ ـ زيد بن الحارث.

١٤ ـ نعمان بن عمرو.

١٥ ـ سُكين بن أبي سُكين.

١٦ ـ عدي بن زيد.

١٧ ـ نعمان بن أبى أوفى .

١٨ ـ أبو أنس .

١٩ ـ محمود بن دحية .

٢٠ ـ مالك بن صيف (أو ضيف) .

٢١ ـ كعب بن راشد .

٢٢ ـ عازَر .

٢٣ ـ رافع بن أبى رافع .

٢٤ ـ خالد بن أبى آزار (أو آزر) .

٢٥ ـ أزار بن أبى أزار (أو آزر) .

٢٦ ـ رافع بن حارثة .

٢٧ ـ رافع بن حُريملة .

٢٨ ـ رافع بن خارجة .

٢٩ ـ مالك بن عوف .

٣٠ ـ رفاعة بن زيد بن التابوت .

٣١ ـ عبدالله بن سلام بن الحارث [كان اسمه الحصين فلما أسلم سماه النبى ﷺ عبدالله] .

ومن بنى قريظة

١ ـ الزبير بن باطا بن وهب .

٢ ـ غزّال بن شمويل .

٣ ـ كعب بن أسد (وهو صاحب عقد بنى قريظة الذى نقض عام الأحزاب) .

٤ ـ شمويل بن زيد .

٥ ـ جبل بن عمرو بن سكينة .

٦ ـ النحّام بن زيد .

٧ ـ قَردم بن كعب .

٨ ـ وهب بن زيد .

٩ ـ نافع بن أبى نافع .

١٠ ـ أبو نافع .

١١ ـ الحارث بن عوف .

١٢ ـ كَردم بن زيد .

١٣ ـ أسامة بن حبيب .

١٤ ـ رافع بن رُميلة .

١٥ ـ جبل بن أبى قشير .

١٦ ـ وهب بن يهوذا .

ومن بنى زريق

١ ـ لبيد بن أعصم (السّاحر الذى سحر النبى ﷺ).

ومن يهود بنى حارثة

١ ـ كنانة بن صوريا .

ومن يهود بنى عمرو بن عوف

١ ـ قَردم بن عمرو .

ومن يهود بنى النجّار

١ ـ سلسة بن برهام. [ابن هشام، جـ٣، ص ص ٤٦ ـ ٤٩].

من هم المنافقون فى المدينة؟

هم اليهود العرب الذين تحالفوا مع يهود (أى مع اليهود من أصول غير عربية أو بتعبير آخر مع اليهود الذين يدعون أنَّهم ليسوا من نسل إسماعيل) فالسياق فى السيرة النبوية لابن هشام يفيد أنَّ اليهود هم الذين آمنوا باليهودية سواء كانوا عربًا أو غيرعرب أما (يهود) فهم الذين يدَّعون أنهم من نسل يعقوب عليه السّلام أو هم بنو إسرائيل، وقد صحّ إسلام معظم اليهود العرب، لكن كانت هناك طائفة منهم حالفت يهود (بنى إسرائيل) على حساب النبى الإسماعيلى (الذى هو من نسل إسماعيل) وكانوا من القبائل والعشائر التالية:

من بنى لوزان بن عمرو بن عوف

١ ـ زُوىّ بن الحارث (وقد ذكر ابن إسحاق فى موضع ذكره للقبائل العربية اليهودية سلالة عمرو بن عوف).

ومن بنى حبيب بن عمرو بن عوف

١ ـ جُلاس بن سويد بن الصامت. عمرو بن عوف من يهود المدينة.
[تخلّف جلاس عن النبى ﷺ فى غزوة تبوك، ويقال إن جلاس ترك النفاق وحسنت توبته].

٢ ـ الحارث بن جلاس (أخوه) [خرج مع المسلمين فى غزوة أحد لكنه قتل اثنين منهم، ثم لحق بأهل مكّة].

ومن بنى ضبيعة بن زيد بن مالك بن عمرو بن عوف

١ ـ بجاد بن عثمان بن عامر.

ومن بنى لوزان بن عمرو بن عوف

١ ـ نَبْتل بن الحارث.

ومن بنى ضبيعة

١ ـ أبو حبيبة بن الأزعر [كان ممن بنى مسجد الضرار].

٢ ـ ثعلبة بن حاطب.

٣ ـ معتّب بن قشير.

٤ ـ الحارث بن حاطب.

[علق ابن هشام قائلاً إن معتّب بن قشير وثعلبة والحارث ابنى حاطب كانوا من أهل بدر ولم يكونوا من المنافقين].

٥ ـ عبّاد بن حنيف.

٦ ـ بحزج [كان ممن اشترك فى بناء مسجد الضرار].

٧ ـ عمرو بن خذام.

٨ ـ عبدالله بن نبتل.

ومن بنى ثعلبة بن عمرو بن عوف

١ ـ جارية بن عامر بن العطّاف (والجارية هنا اسم رجل).

٢ ـ زيد (ابنه).

٣ ـ مجمّع (أخوه) [حسُن إسلامه زمن عمر].

ومن بنى أمية بن زيد بن مالك

١ ـ وديعة بن ثابت [اشترك فى بناء مسجد الضرار].

ومن بنى عبيد بن مالك

١ ـ خذام بن خالد.

٢ ـ بشر بن زيد.

٣ ـ رافع بن زيد.

ومن بنى النبيت

١ ـ مربع بن قَيْظى.

٢ ـ أوس بن قيظى.

ومن بنى ظفر

١ ـ حاطب بن أمية بن رافع .

٢ ـ بُشير بن أبرق (أبو طعمة) .

٣ ـ قُزمان (حليف لهم) .

ومن بنى عبد الأشهل

لم يكن فيهم منافق يعرف إلا الضّحاك بن ثابت ، كان يُتهم بحب يهود (هكذا دون ألف ولام) وقد نبهنا للفرق بين يهود واليهود اصطلاحًا) .

ومن الخزرج ثم من بنى النجار

١ ـ رافع بن وديعة .

٢ ـ زيد بن عمرو .

٣ ـ عمرو بن قيس .

٤ ـ قيس بن عمرو .

ومن بنى جشم بن الخزرج ثم من بنى سلمة

١ ـ الجدُّ بن قيس .

ومن بنى عوف بن الخزرج

١ ـ عبدالله بن أبى بن سلول .

٢ ـ مالك بن أبى قوقل .

٣ ـ سُويد (من رهط ابن سلول) .

٤ ـ داعس (من رهط ابن سلول) .

***

اليهود العرب الذين أسلموا وحضروا بدراً إلى جانب الرسول ﷺ

والآن ـ عزيزي القارئ ـ فلنقارن أسماء عشائر اليهود العرب واليهود غير العرب(يهود) كما ذكر بعضها النبي ﷺ عند قدومه المدينة، وكما وردت في قوائم الأسماء التي أوردها ابن هشام نقلاً عن ابن إسحاق ـ نقارنها بشهداء الأنصار في معركة بدر لنكتشف أن معظمهم عرب يهود لم يجدوا صعوبة في دخول الإسلام بعد أن أقنعهم النبي ﷺ بأن الله هو (رب العالمين)، وبأن يسوع المسيح هو روح الله وكلمته. والقائمة منقولة عن ابن إسحاق ليس لنا فضل سوى مقارنتها بعشائر اليهود، لنؤكد ـ ببساطة ـ أنهم يهود رحبوا بالنبي ﷺ وأسلموا.

من شهد بدراً من الأوس (قارن بقوائم اليهود العرب)

من الأوس ـ من بني عبد الأشهل بن جُشم

١ ـ سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد. . . بن عبد الأشهل.

٢ ـ عمرو بن معاذ بن النعمان. .

٣ ـ الحارث بن أوس بن معاذ بن النعمان. . .

٤ ـ الحارث بن أنس بن امرئ القيس. . .

ومن بني عبيد بن كعب بن عبد الأشهل

١ ـ سعد بن زيد بن مالك بن عبيد. .

ومن بني زعورا (بضم الزاي أو فتحها) بن عبد الأشهل:

١ ـ سلمة بن سلامة. . بن زعورا

٢ ـ عبّاد بن بشر. . .

٣ ـ سلمة بن ثابت

٤ ـ رافع بن يزيد بن كُرز. .

٥ ـ الحارث بن خَزَمة . . (حليف لهم من الخزرج، من بنى عوف وليس أوسيًا) .

٦ ـ محمد بن مسلمة (حليف لهم من بنى حارثة بن الحارث) .

٧ ـ سلمة بن أسلم بن حريش (حليف لهم من بنى حارثة بن الحارث) .

٨ ـ أبو الهيثم بن التيهان .

٩ ـ عبيد بن التيهان (ويقال اسمه عتيك وليس عبيدًا) .

١٠ ـ عبدالله بن سهل (يقال غسّانى) .

[لاحظ أن بين خمسة عشر رجلاً أدرجوا فى بنى الأشهل منهم واحد خزرجى، وليس أوسيًا وليس من بنى عبد الأشهل، وآخران من بنى حارثة بن الحارث ـ كل هذا فى إطار نظام المحالفة، ويقال أيضًا إن عبدالله بن سهل غسّانى] .

ومن بنى ظَفَر (من بنى سَوَاد) :

١ ـ قتادة بن النعمان . . بن سواد .

٢ ـ عبيد بن أوس . . بن سواد .

(ويقال له مقرّن ؛ لأنه قرن أربعة أسرى يوم بدر وأسر عقيل بن أبى طالب يومئذ) .

ومن بنى عبد رزاح بن كعب:

١ ـ نصر بن الحارث . .

٢ ـ ومعتّب بن عبد . . .

٣ ـ عبدالله بن طارق (من بلّى وليس من بنى عبد رزاح / حليف لهم) .

ومن بنى حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو

[الخزرج اسم شخص وليس المقصود أنه من الخزرج المقابلين للأوس] :

١ ـ مسعود بن سعد بن عامر .

٢ ـ أبو عَبس بن جَبْر . . بن حارثة .

٣ ـ أبو بُردة بن نيار (حليف من بلّى من قضاعة واسمه : هانئ بن نيار) .

ومن بنى عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس

١ ـ عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح [واسم أبى الأقلح قيس بن عصمة بن مالك].

٢ ـ معتّب بن قشير.

٣ ـ أبو مُليل بن الأزعر.

٤ ـ عمرو بن معبد بن الأزعر (أو عُمير).

٥ ـ سهل بن حنيف.

ومن بنى أميّة بن زيد بن مالك (ليس المقصود بنى أمية القرشيين رهط معاوية).

١ ـ مبشّر بن عبد المنذر بن زَنبر..

٢ ـ رفاعة بن عبد المنذر بن زنبر..

٣ ـ سعد بن عبيد بن النعمان.

٤ ـ عويم بن ساعدة.

٥ ـ رافع بن عُنجدة (وعُنجدة أمّه).

٦ ـ عبيد بن أبى عبيد.

٧ ـ ثعلبة بن حاطب.

٨ ـ أبو لبابة بن عبدالمنذر (اسمه بشير).

٩ ـ الحارث بن حاطب.

ومن عُبيد بن زيد بن مالك

١ ـ أنيس بن قتادة بن ربيعة..

ومن حلفائهم من بلى (من قضاعة):

٢ ـ معن بن عدى.

٣ ـ ثابت بن أقرم.

٤ ـ عبدالله بن سلمة .

٥ ـ زيد بن أسلم .

٦ ـ وربْعى بن رافع .

٧ ـ عاصم بن عدى بن الجد . .

ومن بنى ثعلبة بن عمرو بن عوف :

١ ـ عبدالله بن جبير . . بن البُرك (والبُرك هو امرؤ القيس بن ثعلبة) .

٢ ـ وعاصم بن قيس .

٣ ـ أبو الضيّاح بن ثابت بن النعمان .

٤ ـ أبو حنّه (أخوه) (ويقال أبو حبّة) .

٥ ـ سالم بن عمير .

٦ ـ الحارث بن النعمان .

٧ ـ خوّات بن جبير .

ومن بنى جَحْجَبى بن كلفة بن عوف بن عمرو بن عوف :

١ ـ مُنذر بن محمد بن عقبة بن أحْيحَة .

٢ ـ أبو عقيل بن عبدالله . . بن أنيف (حليف من بَلى من قضاعة) .

ومن بنى غَنَم بن السّلم :

١ ـ سعد بن خيثمة . . بن غَنْم .

٢ ـ مُنذر بن قُدامة بن عَرْفجة .

٣ ـ مالك بن قُدامة بن عَرفجة .

٤ ـ الحارث بن عرفجة .

٥ ـ تميم ، مولى بن غنم (لم تحدد قبيلته) .

ومن بنى معاوية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف:

١ - جبر بن عتيك .

٢ - مالك بن نميلة (حليف من مزنية) .

٣ - النعمان بن عَصَر (حليف من بَلى من قضاعة) .

إجمالى عدد الأوس المشتركين فى بدر واحد وستون رجلاً .

نلاحظ هنا مرة أخرى أنّ الأوس هنا مصطلح شامل انضوى تحت لوائه عدد ممن لم يكن أوسًا . فقد انضوى تحت لوائه مُزنى ، وقضاعى وحارثى وغسّانى ، وإن كان هذا بأعداد أقل مما شهدنا عند المهاجرين الذين شهدوا بدراً .

كما نلاحظ أنه ما من بطن من بطون الأوس إلاّ وكان لها رجال يجاهدون فى بدر .

قائمة بمن شهد بدراً من الخزرج (قارن بقوائم اليهود العرب التى ذكرناها آنفا)

من بنى امرئ القيس بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج:

١ - خارجة بن زيد بن أبى زُهير بن مالك بن امرئ القيس .

٢ - سعد بن ربيع بن عمرو بن أبى زهير .

٣ - عبدالله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس .

٤ - خلاّد بن سويّد بن ثعلبة .

ومن بنى زيد بن مالك بن ثعلبة :

١ - بشير بن سعد بن ثعلبة بن خلاس بن زيد قال ابن هشام ويقال : جلاس ، وهو خطأ عندنا .

٢ - سِماك بن سعد بن ثعلبة (أخوه) .

ومن بنى عدى بن كعب:

١ - سُبيع بن قيس بن عَيْسة ويقال عيشة .

٢ ـ عباد بن قيس بن عيسة ويقال عيشة (أخوه) .

٣ ـ عبدالله بن عبس .

ومن بنى الأحمر بن حارثة:

١ ـ يزيد بن الحارث . . بن أحمر (يسمّى بن فسحم وهو اسم أمّه) .

ومن بنى جُشم:

١ ـ خبيب بن إساف . . . بن جُشم .

٢ ـ عبدالله بن زيد بن ثعلبة .

٣ ـ حُريث . . (أخوه) .

٤ ـ سفيان بن بشر (أو بن نَسْر) .

(يلاحظ أن هذا الخلاف فى الأسماء بسبب أن إعجام الخط العربى لم يكن قد استقر تمامًا فى القرن الأول، والإعجام هو وضع نقاط لتمييز (الحاء) عن (الجيم) عن (الخاء) و(الباء) عن (التاء) عن (الثاء) . . . وهكذا) .

ومن بنى جَدارة بن عوف بن الحارث:

١ ـ تميم بن يعار .

٢ ـ عبدالله بن عمير (من بنى حارثة) .

٣ ـ زيد بن المزيَّن .

٤ ـ عبدالله بن عُرْفُطة .

ومن بنى الأبجر وهم بنو خُدرة:

١ ـ عبدالله بن ربيع .

ومن بنى عوف بن الخزرج (من بنى الحُبلى) وسمى الحُبلى لعظم بطنه:

١ ـ عبدالله بن عبدالله بن أبىّ بن مالك بن الحارث بن عبيد المشهور بابن سلول (وسلول أم أبىّ) .

٢ ـ أوس بن خَولى

ومن بنى جَزء بن عدى:

١ ـ زيد بن وديعة .

٢ ـ عُقبة بن وهب (حليف من بنى عبد الله بن غطفان) .

٣ ـ رفاعة بن عمرو .

٤ ـ عامر بن سلمة (حليف من أهل اليمن) .

٥ ـ أبو حُميضة معبد .

٦ ـ عامر بن البُكير (حليف) .

ومن بنى سالم بن عَوف:

١ ـ نوفل بن عبدالله بن نَضْلة .

ومن بنى أصرم بن فهر بن ثعلبة:

١ ـ عبادة بن الصّامت .

٢ ـ أوس بن الصامت (أخوه) .

ومن بنى دَعد بن فهْر :

١ ـ النعمان بن مالك بن ثعلبة بن دَعْد (وهو الذى يقال له قوْقل) .

ومن بنى قريوش بن غنم بن أخية بن لوذان بن سالم:

١ ـ ثابت بن هزّال .

[قريوش (بالشين) ويقال قريوس (دون إعجام) وسبق أن فسّرنا مثل هذه الاختلافات]

ومن بنى مَرضخة بن غنَم:

١ ـ مالك بن الدُّخْشُم بن مرضخة .

ومن بنى لوْذان بن سالم:

١ ـ ربيع بن إياس . . بن لوذان .

٢ ـ ورقة بن إياس (أخوه) .

٣ ـ عمرو بن إياس (حليف من أهل اليمن) .

٤ ـ المجذّر بن زياد . . بن غصينة . . . بن مشْنو . . بن قضاعة (حليف) .

٥ ـ عُبادة بن الخشخاش (حليف) .

٦ ـ نحّاب بن ثعلبة (حليف) .

٧ ـ عبدالله بن ثعلبة (حليف) .

ومن بنى ساعدة بن كعب:

١ ـ أبو دجانة ، سمّاك بن خرشة .

٢ ـ المنذر بن عمرو .

ومن بنى البَدِىّ بن عامر:

١ ـ أبو أسيد مالك .

٢ ـ مالك بن مسعود (يقال له البَدى بفتح الدال وكسرها) .

ومن طريف بن الخزرج بن ساعدة:

١ ـ عبد ربه بن حق بن أوس .

٢ ـ كعب بن حمار بن ثعلبة (حليف جُهنى) (يقال ابن جمّاز وليس ابن حمار) .

٣ ـ ضمرة بن بشر (حليف من بنى عمرو) .

٤ ـ زياد بن بشر (حليف من بنى عمرو) .

٥ ـ بسبس (حليف من بنى عمرو) .

٦ ـ عبدالله بن عامر (من بَلى من قضاعة) .

ومن بنى جُشم بن الخزرج من بنى حرام:

١ ـ خراش بن الصمّة . . بن حرام .

٢ ـ الحُباب بن المنذر بن الجموح بن حرام .

٣ ـ عمير بن الحمام .

٤ ـ تميم مولى خراش بن الصمّة .

٥ ـ عبدالله بن عمرو . . .

٦ ـ معاذ بن عمرو بن الجموح .

٧ ـ مُعوّذ بن عمرو (أخوه) .

٨ ـ خلاّد بن عمرو (أخوه) .

٩ ـ عُقبة بن عامر .

١٠ ـ حبيب بن أسود (مولى) .

١١ ـ ثابت بن ثعلبة .

١٢ ـ مولى (غير مسمًّى) .

ومن بنى عُبَيد بن عدى بن غَنم (من بنى الخنساء وغيرهم):

١ ـ بشر بن البراء . . بن خنساء .

٢ ـ الطفيل بن مالك . . بن خنساء .

٣ ـ الطفيل بن النعمان . . بن خنساء .

٤ ـ وسنان بن صيفى . . بن خنساء .

٥ ـ عبدالله بن الجد . . بن خنساء .

٦ ـ عتبة بن عبدالله . . بن خنساء .

٧ ـ جبار بن صخر . . بن خنساء (أبو خُناس) .

٨ ـ خارجة بن حُمير [حليف لهم من أشجع من بنى دهمان].

٩ ـ عبد الله بن حُمير [حليف لهم من أشجع من بنى دهمان].

من بنى خنّاس بن سنان بن عُبيد:

١ ـ يزيد بن المنذر بن سرْح بن خُناس.

٢ ـ معقل بن المُنْذر.. بن خناس.

٣ ـ عبد الله بن النعمان بن بَلْدُمه (أو بَلْذُمه).

٤ ـ الضّحاك بن حارثة.. بن عدى.

٥ ـ سواد بن زريق.. بن عدى.

٦ ـ معبد بن قيس بن سليمة (أو ابن قيس).

٧ ـ عبد الله بن قيس بن صخر.

من بنى النعمان بن سنان بن عبيد:

١ ـ عبد الله بن عبد مناف بن النعمان.

٢ ـ جابر بن عبد الله بن رئاب بن النعمان.

٣ ـ خليْدة بن قيس بن النعمان.

٤ ـ النعمان بن سنان (مولى لهم).

ومن بنى سواد بن غَنْم بن كعب بن سلمة:

١ ـ يزيد بن عامر بن حديدة (أبو المنذر).

٢ ـ سُليم بن عمرو بن حديدة.

٣ ـ قُطبة بن عامر بن حديدة.

٤ ـ عنترة (مولى سليم بن عمرو).

من بنى عَدى بن نابى بن عمرو بن سواد بن غَنْم:

١ ـ عبس بن عامر بن عدى.

٢ ـ ثعلبة بن غنمة بن عدى.

٣ ـ كعب بن عمرو بن عباد بن عمرو بن غنم.. بن سواد (أبو اليسر).

٤ ـ سهل بن قيس.. بن سواد.

٥ ـ عمرو بن طلْق.. بن غَنْم.

٦ ـ معاذ بن جبل.

[ويلاحظ أن ابن هشام يؤكّد أن معاذ بن جبل ليس منهم كما يؤكد أن سوادًا هذا ليس له ابن يقال له عمرو، مما يؤكد أنه ربما كانت هذه الأنساب ـ فى هذا الموضع ـ مسألة اعتبارية وليست حقيقية، كما أن نسبة عدد كبير سبق ذكره إلى امرأة (بنى خنساء وبنى خُناس مثلا) يدعونا إلى التفكير فى تأثير يهودى يمتد بالنسبة إلى الأم ويعتبرها هى النسبة المؤكَّدة فى ظل ظروف غير مستقرة أو ظروف خاصة].

[يقول ابن هشام أيضًا إن ابن إسحاق نسب معاذ بن جبل إليهم (إلى بنى عدى بن نابى) لأنه ـ أى معاذ ـ كان يعيش بينهم، ولأنه ـ أى معاذ ـ قام بدور مهم مع عبدالله بن أنيس ـ بكسر آلهة بنى سلمة].

ومن بنى زريق بن عامر:

١ ـ قيس بن محصن بن خالد بن مُخْلد.

٢ ـ أبو خالد الحارث بن قيس.. بن مخْلد.

٣ ـ جبير بن إياس بن خالد بن مُخْلد.

٤ ـ أبو عبادة سعد بن عثمان بن خَلَدة بن مُخْلد.

٥ ـ عقبة بن عثمان... (أخوه).

٦ ـ ذكوان بن عبد قيس.. بن مخْلد.

٧ ـ مسعود بن عامر.. بن مخْلد.

ومن بنى خالد بن عامر بن زريق:

١ ـ عبّاد بن قيس بن عامر بن خالد .

ومن بنى خلدة بن عامر بن زريق:

١ ـ أسعد بن يزيد بن خَلَدة .

٢ ـ الفاكه بن بشر بن الفاكه . . بن خَلَدة .

٣ ـ معاذ بن ماعص . . بن خَلَدة .

٤ ـ عائذ (أخوه) .

٥ ـ مسعود بن سعد . . بن خَلَدة .

ومن بنى العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق:

١ ـ رفاعة بن رافع بن العجلان .

٢ ـ خلاد بن رافع بن العجلان (أخوه) .

٣ ـ عبيد بن زيد بن عامر بن العجلان .

ومن بنى بياضة بن عامر بن زريق:

١ ـ زياد بن لبيد . . بن بياضة .

٢ ـ فروة بن عمرو . . بن بياضة .

٣ ـ خالد بن قيس . . بن بياضة .

٤ ـ رُجيلة بن ثعلبة . . بن بياضة .

٥ ـ عطية بن نويرة . . بن بياضة .

٦ ـ خليفة بن عدى . . بن بياضة .

ومن بنى حبيب بن عبد حارثة.. بن جُشم:

١ ـ رافع بن المعلّى . . بن زيد مناة بن حبيب .

ومن بنى النجّار:

١ ـ أبو أيوب خالد بن زيد بن كُليب بن ثعلبة .

ومن بنى عُسيرة.. بن غَنم:

١ ـ ثابت بن خالد بن النعمان بن خنساء بن عسيرة .

ومن بنى عمرو بن عوف بن غنم:

١ ـ عمارة بن حزم .

٢ ـ سراقة بن كعب .

ومن بنى عبيد بن ثعلبة بن غنم:

١ ـ حارثة بن النعمان . . بن عبيد .

٢ ـ سليم بن قيس . . بن عبيد .

ومن بنى عائذ بن ثعلبة بن غَنم:

١ ـ سهيل بن رافع .

٢ ـ عدى بن أبى الزَّعباء الجُهنى (حليف) .

ومن بنى زيد بن ثعلبة بن غَنم:

١ ـ مسعود بن أوس .

٢ ـ أبو خزيمة بن أوس .

٣ ـ رافع بن الحارث بن سواد بن زيد .

ومن بنى سواد بن مالك بن غَنم:

١ ـ عوف بن الحارث بن رفاعة بن سواد .

٢ ـ معوّذ بن الحارث (أخوه) .

٣ ـ معاذ بن الحارث (أخوه)

وهم بنو العَفراء [نسبة أمومية وعفراء هذه من بنى النجّار].

٤ ـ النعمان بن عمرو بن رفاعة بن سواد.

٥ ـ عامر بن مُخلد.. بن سواد.

٦ ـ عبد الله بن قيس بن خالد.. بن سواد.

٧ ـ عُصيمة (حليف لهم من أشجع).

٨ ـ وديعة بن عمرو (حليف من جُهينة).

٩ ـ ثابت بن عمرو.. بن سواد.

١٠ ـ أبو الحمراء (مولى الحارث بن عفراء).

ومن بنى عامر بن مالك بن النجّار (فرع بنى عتيك):

١ ـ ثعلبة بن عمرو.. بن عتيك.

٢ ـ سهل بن عتيك.

٣ ـ الحارث بن الصِّمة.. بن عتيك.

ومن بنى عمرو بن مالك بن النجار (فرع بنى حديلة وهى امرأة):

١ ـ أبى بن كعب.

٢ ـ أنس بن معاذ.

ومن بنى عدى بن عمرو بن مالك بن النجار:

[ينسبون إلى أمهم مُغَالة فيقال بنو مَغَالة وهى امرأة من كنانة].

١ ـ أوس بن ثابت بن المنذر.. بن عدى.

٢ ـ أبو شيخ أبى بن ثابت.. بن عدى.

[وأبو شيخ أبى بن ثابت هو أخو الشاعر حسّان بن ثابت].

٣ ـ أبو طلحة زيد بن سهل.. بن عدى.

ومن بنى عَدى بن النجار:

١ ـ حارثة بن سُراقة . . بن عدى بن عامر .

٢ ـ عمرو بن ثعلبة . . (يقال له أبو حكيم) .

٣ ـ سليط بن قيس . . .

٤ ـ أبو سليط أسَيْرة بن عمرو . [وهو أبو خارجة بن قيس] .

٥ ـ ثابت بن خنساء بن عمرو . . بن عدى .

٦ ـ عامر بن أميّة .

٧ ـ مُحرز بن عامر .

٨ ـ سواد بن غَزِيّة (حليف لهم من بلى) .

ومن بنى حرام بن جُندب.. بن عدى بن النجار:

١ ـ أبو زيد قيس . . بن زعوراء بن حرام .

٢ ـ أبو الأعور بن الحارث ويقال أبو الأعور الحارث بن حرام .

٣ ـ سُليم بن ملْحان .

٤ ـ حرام بن ملحان .

ومن بنى مازن بن النجار:

١ ـ قيس بن أبى صعصعة .

٢ ـ عبدالله بْن كعب بن عمرو .

٣ ـ عُصيمة (حليف لهم من بنى أسد بن خزيمة) .

ومن بنى خنساء بن مبذول بن عمرو بن مازن:

١ ـ أبو داود عُمير بن عامر بن مالك بن خنساء .

٢ ـ سُراقة بن عمر بن عطية . . بن خنساء .

ومن بنى ثعلبة بن مازن بن النجار.

١ ـ قيس بن مخلد .

ومن بنى دينار بن النجار:

١ ـ النعمان بن عبد عمرو .

٢ ـ الضحاك بن عبد عمرو (أخوه) .

٣ ـ سُليم بن الحارث (وهو أخو الضحاك والنعمان لأمهما) .

٤ ـ جابر بن خالد بن عبد الأشهل .

٥ ـ سعد بن سهيل بن عبد الأشهل .

ومن بنى قيس بن مالك بن كعب.. بن النجار:

١ ـ كعب بن زيد .

٢ ـ بُجير بن أبى بُجير (حليف من بنى عيسى بن بغيض) .

إجمالى عدد الخزرج ممن شهد بدرًا مائة وسبعون رجلاً على وفق حساب ابن إسحاق .

الإجمالى العام لكل من شهد بدرا مع النبى ﷺ ثلاثمائة رجل وأربعة عشر رجلاً على وفق حساب ابن إسحاق .

شهداء العرب اليهود الذين استشهدوا فى معركة بدر كان أكثر من شهداء المهاجرين:

لقد سقط شهيدًا فى بدر نفر من بنى عمرو بن عوف وبنى الحارث بن الخزرج ، وبنى سلمة ، وبنى حبيب ، وبنى النجار . . وقد فشت فيهم جميعًا اليهودية حتى وصول النبى ﷺ للمدينة (قارن قوائم عشائر اليهود العرب فى المدينة كما ذكرها النبى ﷺ ، وكما حصرها ابن هشام نقلاً عن ابن إسحاق) . وكان عدد الشهداء منهم أكثر من عدد الشهداء من المهاجرين . قارن من خلال القائمتين التاليتين :

شهداء الأنصار فى غزوة بدر

من بنى عمرو بن عوف:

١ ـ سعد بن خَيْثَمَة .

٢ ـ مبشر بن عبد المنذر بن زَنبر .

ومن بنى الحارث بن الخزرج:

١ ـ يزيد بن الحارث ويقال له ابن فُسحُم .

ومن بنى سَلمة:

١ ـ عمير بن الحُمام .

ومن بنى حبيب بن عبد الحارثة.. بن جُشم:

١ ـ رافع بن المُعلّى الأنصارى .

ومن بنى النجار:

١ ـ حارثة بن سُراقة بن الحارث .

ومن بنى غَنم بن مالك بن النجار:

١ ـ عوف بن الحارث بن سواد .

٢ ـ معوّذ (أخوه) .

شهداء المهاجرين فى غزوة بدر

من بنى عبد المطلب بن عبد مناف:

١ ـ عبيدة بن الحارث بن المطلب .

ومن بنى زهرة بن كلاب:

١ ـ عمير بن أبى وقّاص . . بن زهرة .

٢ ـ سعد بن أبى وقاص (أخوه) .

٣ ـ ذو الشمالين بن عبد عمرو بن نضلة (حليف لهم من خزاعة).

ومن بنى عدى بن لؤى:

١ ـ عاقل بن البُكير الليثى (حليف من بنى سعد بن ليث بن بكر . . بن كنانة).

٢ ـ مِهْجع مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ومن بنى الحارث بن فهر:

١ ـ صفوان بن بيضاء.

ليس فيما ذكرناه ما يناقض ما ورد فى القرآن الكريم بشأن أن من اليهود قومًا صالحين ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[آل عمران: ١١٣ ـ ١١٤].

ومع أنه ليس فوق القرآن الكريم برهان، فهناك من الأخبار ما يؤكد تفاعل يهود (اليهود الذين يدعون الانتساب إلى يعقوب) وسائر يهود المدينة (اليهود العرب أو اليهود الإسماعيلية) فى مجتمع المدينة قلب الإسلام. لنقرأ مثلا:

« حرب حاطب (حرب بسبب مقتل يهودى) والمقصود حاطب بن الحارث بن قيس ابن هيْشة بن الحارث بن أميّة . . بن الأوس الذى كان قد قتل جاراً يهوديّا للخزرج، فخرج إليه يزيد بن الحارث . . بن الخزرج (ابن فُسحُم، وفُسحم أمُّه) فى نفر من بنى الحارث بن الخزرج، فقتلوه (أى قتلوا قاتل اليهودى)»[ابن هشام، جـ ٢، ص١٢٥].

واستمر التفاعل بين يهود (الذين يدّعون انتسابهم إلى يعقوب عليه السلام وليس اليهود العرب) حتى بعد دخول النبى ﷺ المدينة واستقراره فيها. لنقرأ:

« ودخل رسول الله ﷺ على جماعة من يهود بيت المدراس فدعاهم إلى الله . . ». [ابن هشام جـ٣، ص٩٠].

وحتى تكون الصورة كاملة غير منقوصة نذكر أيضًا أنّه كان هناك منهم من لم يطق بقاء النبى ﷺ فى المدينة:

أبوعامر بن صيفى رفض الدخول فى الإسلام بعد هجرة النبى ﷺ إلى المدينة وتوجَّه إلى مكة ببضعة عشر رجلاً، وبعد فتح مكة هرب إلى الطائف وبعد فتح الطائف توجه للشام. [ابن هشام، جـ ٣، ص ١٢٨]. وابن صيفى هذا من اليهود العرب (الإسماعيليين).

وكما حدث فى الجبهة الجنوبية (الحبشة واليمن) حيث اختلطت المسيحية باليهودية فسهل هذا الاختلاط طريق الإسلام وعبَّده، وجدنا شيئا من هذا الاختلاط ـ لكن على نحو أقل ـ فى المدينة .

***

بل إنَّ هناك يهودًا يدَّعون الانتساب إلى أسر دينية عريقة، بل يقولون: إنَّهم من اللاويين حفّاظ الشريعة وعلماء التوراة دخلوا فى الإسلام طائعين. كثيرون ـ فى الحقيقة ـ من هؤلاء اليهود الذين يدعون أنهم من بنى إسرائيل دخلوا الإسلام، لكن ما حدث بين النبى ﷺ وبعض طوائف يهود بعد الهجرة من مواجهات قاسية، كانوا هم السبب فيها، جعلت كثيرين من أبناء يهود الذين أسلموا ينكرون أصولهم اليهودية.

وسنشير فى السطور التالية لبعض الصحابة من يهود (أى من الذين هم من نسل إسرائيل):

● **عبد الله بن سلام:**

قال عنه النبى ﷺ « هو عاشر عشرة فى الجنّة ». [الطبقات الكبرى، جـ٢، ١٦].

ويقال إن ما ورد فى القرآن الكريم فى سورة الشعراء / آية ١٩٧ ﴿**أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ يخص خمسة من اليهود الذين أسلموا هم عبدالله بن سلام، وابن يامين، وثعلبة بن قيس، وأسد، وأسيد. [الطبقات الكبرى، جـ ٢، ص١٧]. والأخيران من بنى قريظة.

● **صفية بنت حُيى بن أخطب:** (من يهود أى من بنى إسرائيل) من سبط هارون بن عمران، وأمها من بنى قريظة إخوة بنى النضير.

وكانت صفية زوجة سلام بن مشكم القُرظى ثم فارقها فتزوَّجت كنانة بن الرَّبيع بن أبى حقيق النَّضرى (من بنى النضير) فَقُتل عنها فى غزوة خيبر. [الطبقات الكبرى، جـ٦، ص٩٠].

وكانت صفية - إذن - من سبى خيبر، اصطفاها النبى ﷺ لنفسه، وعرض عليها أن يعتقها إن اختارت الله ورسوله (أسلمت) فقالت أختار الله ورسوله. [الطبقات الكبرى، جـ٦، ص٩٠].

ماتت صفية سنة ٥٠هـ فى عهد معاوية بن أبى سفيان. [الطبقات الكبرى، جـ٦، ص٩٦].

وأوصت صفية بثلث ميراثها لابن أختها اليهودى فلما عارض بعض المسلمين تدخَّلت عائشة ﵂ قالت اتقوا الله وأعطوه وصيَّته. [الطبقات الكبرى، جـ٦، ص٩٦].

***

الفصل الثانى

لم يكن كل اليهود
بنى قريظة وبنى النضير
وبنى قينقاع... إلخ

- قائمة بوفد الخزرج الذى التقى بالنبى عند العقبة
- قوائم مختلفة لاستخلاص أسماء اليهود العرب الذين آزروا الإسلام
- الظروف السياسية وبشاعة الهجمة الصهيونية ودورها فى إغفال الحقائق التاريخية
- نماذج من التاريخ الحديث
- الدليل الأنثروبولوجى
- مناقشة مسألة بنى قريظة
- التفسير الاقتصادى
- من أسلم من بنى قريظة.

توجه النبى المصطفى ﷺ عند هجرته إلى المدينة، وقبل ذلك عند استقبال وفودها فى مواسم الحج فى مكَّة إلى الدين الآخر - إلى اليهودية. لقد توجه إلى يهود (بدون ألف ولام) أى إلى اليهود الذين يعتقدون أنهم من بنى إسرائيل، وإلى العرب اليهود الذين شاب يهوديتهم شىء من الوثنية كما شاب يهودية اليهود الآخرين. هؤلاء اليهود هم الذين رحبوا بالنبى ﷺ ودعوه للمدينة، ووعدوه بالمؤازرة. هذه الحقائق واضحة تمام الوضوح فى السيرة النبوية لابن إسحاق والتى هذَّبها ابن هشام، وهى متداولة بين الناس، وليس لنا من دور سوى إعادة ترتيب الأوراق، ولفت الأنظار لحقائق غيَّبتها ظروف خاصة وغيَّبها ما لحق بالبلدان العربية والإسلامية من أذى على أيدى اليهودية المسيَّسة (الصهيونية).

وسندل القارئ على قوائم لمقارنتها معًا منها قائمتان سبق أن أوردناهما فى الفصل السَّابق:

(١) قائمة بعشائر اليهود العرب كما ذكرهم النبى ﷺ برواية ابن إسحاق مشفعين بها قائمة بعرب يهود آخرين جمعهم فضيلة شيخ الأزهر من مصادر مختلفة [طنطاوى، بنو إسرائيل، ص٣٢٨]. ومفهوم أننا نقصد عشائر اليهود العرب الذين كانوا فى المدينة عند هجرة النبى ﷺ إليها.

٢- قائمة بعشائر يهود (أى الذين يدعون أنهم من بنى يعقوب، وليسوا عربًا) وعشائر اليهود العرب كما أوردها ابن هشام عن ابن إسحاق، وذلك للتمييز بين عشائر يهود، وعشائر العرب اليهود (راجعها فى سياق حديثنا عن غزوة بدر).

٣- قائمة بوفد الخزرج الذى التقى بالنبى ﷺ عند العقبة. [ابن هشام، جـ٢ ص ص ٢٨٦-٢٨٨]، لمقارنتها بقائمة العرب اليهود، لنكتشف أنَّ الذين بايعوا نبينا ﷺ عند العقبة أوّل مرة كان غالبيتهم - إن لم يكن كلهم - من اليهود العرب.

٤ـ قائمة بيعة العقبة الأولى ، لمقارنتها بقائمة القبائل أو العشائر العربية اليهودية .

وفيما يلى هذه القوائم والتعليق عليها :

قائمة بأسماء عشائر اليهود العرب فى المدينة

كما وردت فى كتاب النبى ﷺ عند وصوله للمدينة

[ابن هشام، جـ ٣، ص ص٣٤ـ٣٥].

١ـ يهود بنى عوف .

٢ـ يهود بنى النجار .

٣ـ يهود بنى الحارث .

٤ـ يهود بنى ساعدة .

٥ـ يهود بنى جشم .

٦ـ يهود بنى الأوس .

٧ـ يهود بنى ثعلبة .

٨ـ يهود بنى الشُّطبيّة .

ملحوظة : مفهوم أن (الألف واللام) حذفت للإضافة أما إن قيل يهود فقط فالمقصود اليهود غير العرب .

وقد أوردنا عند حديثنا عن غزوة بدر جانبًا من نص كتاب رسول الله ﷺ الذى يشتمل على أسماء هذه العشائر اليهودية . [ابن هشام جـ ٣ ص ص ٣١ـ٣٥] .

***

ويعدد لنا فضيلة الشيخ محمد سيد طنطاوى عشائر يهودية خارج المدينة ، منهم يهود عرب ، لم يحاربوا الرسول ﷺ ، ولم يحاربهم الرسول ﷺ .

ـ فلم يكلّف **يهود البحرين** إلاّ بدفع الجزية .

ـ ورضى من **يهود بنى غازية** بأن يدفعوا الجزية ولهم الذمة .

- ورضى مثل ذلك من **يهود بنى عريض**.

- وأوصى النبى ﷺ معاذ بن جبل بألا يفتن يهود اليمن عن يهوديتهم.

- وصالح يهود مقنى وبنى حنينة على ربع ثمارهم. ويضيف الشيخ الجليل أن الرسول ﷺ ردَّ صحائف التوراة ليهود خيبر [طنطاوى، ص ٣٢٨].

وفد الخزرج الذى التقى بالنبى ﷺ عند العقبة [ابن هشام جـ٢، ص ٢٧٦-٢٧٨]

من بنى النجار (وهو تيم الله):

١- أسعد بن زرارة بن عُدَس بن مالك بن النجار (أبو أمامة).

٢- عوف بن الحارث بن رفاعة بن سواد بن مالك بن غُنْم بن مالك بن النجار (ابن عفراء/ وهى أمه).

ومن بنى زريق... بن جُشم بن الخزرج:

١- رافع بن مالك بن العجلان . . . بن زريق.

ومن بنى سلمة بن سعد.. بن جشم بن الخزرج:

١- قطبة بن عامر. . بن حديدة.

ومن بنى حرام بن كعب بن غَنم.. بن سلمة:

١- عقبة بن عامر بن نابى بن زيد بن حرام.

ومن بنى عبيد بن عدى.. بن سلمة:

١- جابر بن عبد الله بن رئاب بن سنان بن عبيد.

ولم يستغرق حوارهم مع النبى ﷺ طويلا؛ إذ سرعان ما آمنوا برسالته، بالإضافة لإدراكهم ما فيها من منافع لهم. ولهذا دلالاته.

***

بيعة العقبة الأولى

(اليهود العرب يبايعون محمداً ﷺ)

وفى العام التالى لمقابلة وفد الخزرج قابل النبى ﷺ فى العقبة أيضا (بيعة العقبة الأولى) ١٢ رجلاً من المدينة هم :

من بنى النجار:

١ـ أسعد بن زرارة بن عُدَس بن مالك بن النجار (أبو أمامة) .

٢ـ عوف بن الحارث بن رفاعة بن سواد (ابن عفراء) .

٣ـ معاذ (أخوه) .

ومن بنى زريق بن عامر:

١ـ رافع بن مالك بن العجلان بن عمرو بن عامر بن زريق .

٢ـ ذكوان بن عبد قيس . . بن عامر بن زريق .

ومن بنى عوف بن الخزرج ثم من بنى غنم بن عوف بن عمرو بن عوف من الخزرج:

١ـ عُبادة بن الصامت . . بن غَنم .

٢ـ أبو عبد الرحمن (يزيد بن ثعلبة البلوى حليف بنى غضية من بَلى) (يقال لهم القواقل) .

ومن بنى سالم بن عمرو بن الخزرج:

١ـ العباس بن عبادة بن نضلة بن مالك بن عجلان .

ومن بنى سلمة بن على بن أسد.. بن جُشم بن الخزرج:

١ـ عُقبة بن عامر بن نابى بن زيد بن حرام .

ومن بنى سواد بن غنم.. بن سلمة:

١ـ قطبة بن عامر . . بن غنم بن حديدة .

ومن الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ثم من بنى عبد الأشهل:

١ـ أبو الهيثم بن التيهان .

ومن بنى عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس:

١ـ عويم بن ساعدة .

[لبث معهم مصعب بن عمير فأسموه المقرئ، ويلاحظ أن المقرانا هى مكان قراءة النصوص الدينية عند اليهود. راجع اليهود عقائدهم وعبادتهم لألان أنترمان].
[أسماء الوفد وقبائله وعشائره عن ابن هشام ص ص٢٧٩ـ٢٨١].

***

السيرة النبوية لابن إسحاق (ت ١٥٢ هـ) كما نقلها لنا ابن هشام تشير بما لا يدع مجالا للشك أنّه كان فى المدينة وما حولها عرب يهود، بل إنَّ خطاب النبى ﷺ عندما وصل المدينة قادمًا من مكة يشير لذلك بوضوح لا لبس فيه. ما الذى جعل عددًا من الباحثين المحدثين ـ إذًا ـ ينكرون ذلك، بل ويتحمسون أحيانًا لإنكاره ؟! إنها الظروف السياسية وبشاعة الهجمة الإسرائيلية على ديار العرب، وطرد الشعب الفلسطينى وسلبه أرضه وأمواله، ومن هنا عمد الباحثون المحدثون بوعى منهم أو بدون وعى إلى إنكار وجود يهود عرب و إنكار وجود عرب تهوّدوا أى اعتنقوا اليهودية .

كما أن الحروب المتوالية التى خاضتها مصر ضد إسرائيل كان لها أثرها أيضًا فى تعمية الحقيقة رغم وضوح الآيات الكريمة التى تشير إلى مصريين تهوَّدوا أى صاروا يهودًا، فقد آمن السَّحرة (علماء مصر وكهنتها) بالإله الواحد (رب موسى وهارون) عندما ألقى موسى عصاه لتَلقَف ما يأفكون ورفضوا رفضًا تامًا عبادة إله غيره، إننا هنا إزاء مصريين (فراعنة) تهوَّدوا. حقيقة إن فرعون أمر بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، لكن القرآن الكريم لم يشر إلى تقطيع أعضاء التناسل، ومعنى هذا أنهم كانوا قادرين على التناسل، فنسل هؤلاء إذًا مصريون تهوَّدوا أو مصريون تحولوا إلى اليهودية، إنهم كانوا على اليهودية رغم أنهم لم يكونوا من أبناء يعقوب (إسرائيل). . .

وإذا تركنا النص القرآنى الكريم وعدنا إلى الدليل الأنثروبولوچى باستقراء الحاضر تلمسًا لمعرفة الماضى وجدنا كما ـ سبق القول ـ يهود الفلاشا الذين لم يهجَّروا من الحبشة إلى إسرائيل إلاَّ فى تاريخنا هذا، ومعروف أنَّ الحبشة كانت تابعة لـمُلك سبأ فى اليمن ولا نظن أن ملكة سبأ وقومها لم يتحولوا إلى اليهودية، فالقرآن الكريم يؤكد هذا. كل ما فى الأمر أنَّ اليمن لم تجد صعوبة فى دخول الإسلام لقربها من المدّ الإسلامى، بينما كان يهود الفلاشا بعيدين نسبيًا عن هذا المد. كان هناك إذن على عهد النبى ﷺ يهود يمنيون ومسيحيون يمنيون ويهود يمنيون اختلطت يهوديتهم بالمسيحية، ومسيحيون يمنيون اختلطت مسيحيتهم بيهودية، واعترى كل هذا شىء من الوثنية، المهم أنَّ الآيات القرآنية الكريمة تشير إلى عملية التحوّل هذه، ومن ذلك ﴿**فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ..**﴾ [النساء: ١٦٠]، فالفعل هاد يعنى هنا التحوّل إلى اليهودية، فعندما نتحدث عن اليهودية ـ إذن ـ لانتحدث عن عرق بنى إسرائيل وحده.

وكان النبى ﷺ بعد هجرته للمدينة يذهب إلى يهود (ليس اليهود العرب فى هذا السياق) فى مدارسهم ليدعوهم إلى الإسلام. فقد أخرج البخارى عن أبى هريرة قال «بينما نحن فى المسجد إذ خرج علينا رسول الله فقال انطلقوا إلى يهود فخرجنا معه حتى جئنا إلى بيت المدراس فقام النبى فناداهم يا معشر يهود أسلموا تسلموا، فقالوا قد بلّغت يا أبا القاسم، فقال ذلك أريد، ثم قالها ثانية، فقالوا قد بلّغت يا أبا القاسم ثم قال فى الثالثة: اعلموا أن الأرض لله ورسوله، وإنى أريد أن أجليكم فمن وجد منكم بماله شيئًا فليبعه، وإلاَّ فاعلموا أنَّ الأرض لله ورسوله» [صحيح البخارى باب فى بيع المكره من كتاب الإكراه، نقلاً عن طنطاوى، بنو إسرائيل، ص٦٩].

وكطبيعة الخبر فى معظم الحالات عند المؤرخين المسلمين الأوائل، لا نعرف متى قال النبى ﷺ ليهود هذا ؟ ولا ما هى المناسبة ؟ ولا لأى نوع من يهود قال هذا ؟ ولا بعد أى غزوة ؟ وإن كان من المفهوم أنه قال هذا بعد هجرته للمدينة. ومن المفهوم أيضا أنه ﷺ من خلال نص هذا الحديث لم يكن يريد الاستيلاء على أموالهم وإنما كان يريد إجلاءهم أو شراء ما بأيديهم بمقابل يدفعه؛ لأن « الأرض لله ورسوله » فمن استطاع أن يبيع أرضه أو ممتلكاته منهم فليبع، إننا هنا إزاء صاحب دار يُريد إجلاء (غريب مستعمر). أما العرب اليهود فكانوا فى صف النبى ﷺ يقولون مقالته، قد يقول قائل: إن هؤلاء العرب لم يكونوا يهودًا وإنما حلفاء يهود. ولمثل هؤلاء نقرأ هذا الخبر «كان لنا جار من يهود من بنى عبد الأشهل»، إذن كان فى القبائل العربية عرب يهود [ابن هشام، جـ٢ ص٣٨]. كان إذًا فى بنى عبد الأشهل يهود.

واشترك اليهود فى مجموعهم... فى حسن استقبال صاحب الدعوة، وإن كان هناك بعض الاستثناءات [طنطاوى، ص ١٣٧].

ولا شك أن كثيراً مما ذكرناه آنفًا يصلح لتكراره هنا، لكن السؤال الذى يقتضيه السياق. وهو سؤال مُلح ومعضلة ما دام هذا كان هو الموقف الحقيقى لكل يهود يثرب وما حولها من يهود عرب ويهود غير عرب، من قدوم النبى ﷺ إليهم، وترحيبهم به، فما هذا الذى نقرأه فى كتب السيرة عن تذبيح بنى قريظة، ناهيك عن إجلاء بنى قينقاع بعد بدر مباشرة، وبنى النضير بعد أحد مباشرة، ويهود خيبر قبل فتح مكة ؟.

قبل الإجابة عن هذا السؤال نود إيراد الملاحظات التالية.

إن صحَّ ما ذكر بعض الباحثين فى الشأن اليهودى نقلاً عن كتاب كلاسيكى يسجِّل كل المآسى التى حاقت باليهود، ونعنى به كتاب صمويل أوسك Samuel Usque الموسوم باسم «عزاء عن بلايا إسرائيل Consolation for the tribulation of Israel» والمؤلف فى القرن السَّادس عشر نجده لم يورد أىَّ شىء عن قتل بنى قريظة، وإن صحَّ ما ذكره الباحث نفسه [د. بركات أحمد: محمد واليهود، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ص ص٤٣، ٤٤] من أنَّ المصادر اليهودية لم تشر إطلاقًا لمذابح أجراها النبى ﷺ لبنى قريظة، فإنَّ الأمر يدعو للعجب حقًا، ويدعو للتأمل والمراجعة وإعادة النظر أو على الأقل يدعو للتوفيق بين متناقضات شديدة العمق.

فإن قيل إن ما حدث لبنى قريظة كان فى عمق الصحراء فلم تعلم عنه جماعات اليهود الأخرى خارج شبه الجزيرة العربية شيئًا، وجدنا هذا القول غير صحيح؛ فبابل مقر الرياسة الدينية لليهود فى القرنين الثانى والثالث غير بعيدة، كما لم تكن الكوفة التى أقام فيها اليهود المطرودون من شبه الجزيرة العربية بعيدة، وكان هؤلاء اليهود من سلالة بنى النضير، وبنى قريظة، ومع هذا لم يسجلوا مثل هذه المذابح التى يذكر ابن إسحاق أنها جرت لهم.

ربما سمع ابن إسحاق هذه الأخبار من أبناء اليهود الذين أسلموا وأرادوا التنصُّل تمامًا من ماضيهم اليهودى بعد تبلور الإسلام كدين مستقل وبعد رسوخ دولته. نقول هذا بوضوح كامل لأن الدينين السَّابقين على الإسلام راحا يتنازعانه فترة طويلة؛ نظرًا لوسطيته المحكمة ونظرًا لتقارب شريعته مع الشريعة اليهودية. بل لقد ظلت هذه النغمة حتى القرن التاسع عشر، إذ عكف المستشرقون اليهود أو ذوو الأصول اليهودية على المقارنة بين الشريعتين اليهودية والإسلامية، زاعمين أنَّ هذه الأخيرة منقولة من الأولى، مُغفلين أنَّ هذا التشابه ناتج عن أنَّ المصدر لكليهما واحد، ومُغفلين أيضًا أنَّ الشريعة الإسلامية صحَّحت ونسخت كثيرًا مما ورد فى الشريعة الأولى مما هو معروف ولا مجال لتكراره هنا حتى لا نخرج عن سياق بحثنا.

ويكفى التنويه بهذا ليتابعه أولو الاهتمام والاختصاص، لكن كتابنا هذا موجه للقارئ العام والاختصاصى على سواء؛ لذا سنعتمد ما ورد فى سيرة ابن إسحاق كما قدمها لنا ابن هشام عند إجراء تحليلاتنا، لكن هذه الملاحظة ضرورية على أية حال.

***

قبل تتبع المواجهات مع يهود بنى قينقاع وبنى النضير، وبنى قريظة وخيبر، لا بد من توضيح بعض الأمور التى تُعين على الفهم:

١ـ من أهم الأعمال التى اشتغل بها اليهود التجارة حتى صار لبعضهم فيها شهرة كبيرة كأبى رافع سلام بن أبى الحقيق الذى كان يقال له تاجر أهل الحجاز. ويمكن أن يُقال إن تجارة التمر والشعير والقمح والخمر تكاد تكون وقفًا عليهم فى شمال الحجاز، كذلك اشتغل اليهود بالزراعة التى كانت المهنة الرئيسية لسكان القرى منهم، واشتغلوا بتربية

الماشية والدواجن، وكانوا فى جهات (مَقْنا) يشتغلون بصيد الأسماك، وكانت نساؤهم يشتغلن بنسج الأقمشة. ومن الصناعات التى برعوا فيها صناعة الصياغة التى برع فيها بنو قينقاع وصناعة السيوف والدروع وغيرها من عدد الحرب [طنطاوى، ص٦٨].

٢ـ كان يهود بنى قينقاع وبنى النضير، وبنى قريظة، ويهود خيبر أكثر ثراء بكثير من اليهود العرب، وكان أساس تعاملاتهم المالية معهم هو الرَّهن والرِّبا، ومفهوم طبعًا أنَّ الربا حرام فى الشريعة اليهودية، لكنهم أباحوها فى التعامل مع غير يهود أى مع غير بنى يعقوب الذين يدَّعون نسبتهم إليه.

٣ـ رغم عهود التحالف والولاء بين اليهود العرب ويهود بنى إسرائيل (يعقوب)، إلاَّ أن هؤلاء الأخيرين كانوا أكثر استعلاء باعتبارهم الجنس الأرقى، وقد ترددت عبارة النبى الإسماعيلى أكثر من مرة فى كتب السيرة النبوية إشارة إلى نبينا محمد ﷺ وقد سبق أن أشرنا لذلك. وقد غلبت على (يهود) روح الأقلية التى حرصوا على الاحتفاظ بها رغم حدوث زيجات بينهم وبين العرب اليهود ـ أحيانًا ـ زيجات تكون فيها الأنثى غالبًا من طرفهم، فيكون لذريتها وضع خاص لديهم. حالة كعب بن الأشرف مثلاً. وهو مثال واضح على ذلك.

لقد مضى ذلك الزمان الذى كان فيه المؤرخ أو الباحث يخشى أن يفسّر فيه الحدث تفسيراً اقتصاديًا، فقد انهارت الشيوعية ولم يعد أحد يدعو إليها بشكلها الذى كانت عليه؛ لذا وتخلّصًا من هذا الضغط الأيديولوچى يمكن ببساطة أن نقول: إن المواجهات بين الأنصار (اليهود العرب الذين أسلموا) ويهود بنى قينقاع، وبنى النضير... إلخ كانت مواجهات لتحقيق العدالة الاجتماعية، وللتخلص من جسم غريب يدعى تفوقه تحت راية لا إله إلاّ الله، التى رفعها النبى الإسماعيلى (أى الذى هو نسل إسماعيل) الذى قال إنه للبشر كافة، وإن كان كونه إسماعيليًا ساعد على نشرفكرة الإسلام بين العرب الذين عُرف عنهم التمسك بانتمائهم العِرقى قبل أن يبسط الإسلام عباءته الواسعة على الجميع.

لم يستول النبى ﷺ على أموال بنى قينقاع وإنما عرض عليهم التعويض نظير الجلاء، وسمح لهم بنقل أموالهم. هذا واضح تمامًا فى كتب السيرة، إلاَّ أنَّ لغة هذه الكتب واصطلاحاتها ولهجتها عالية النبرة كثيراً ما تُضل القارئ العام عن طريق

الحقيقة، ففى سياق حديثنا السَّابق أوردنا نصوصًا تشير إلى أنَّ النبىﷺ قال ليهود ﷺ من لديه متاع فليبعه. أليس (الثمن) تعويضًا ؟!

وكلمة (غزوة) كلمة كبيرة بالنسبة لما حدث لبنى قينقاع لكن كتب السيرة درجت على استخدام هذه الكلمة لكل تحرك عسكرى يكون فيه النبى ﷺ، أمّا إن لم يكن فيه فهم يطلقون عليها سرية إلاّ إذا كان التحرك العسكرى كبيرًا فهو غزوة سواء كان النبى ﷺ فيه أم لا.

لقد حاصرهم النبى ﷺ فى شهر شوال سنة ٢هـ، ومعرفة مكانهم ذو دلالة. لقد كان بنو قينقاع يقيمون داخل المدينة وبيوتهم تلاصق بيوت المسلمين. وأبدى يهود بنى قينقاع عدم الرضى لانتصار المسلمين فى بدر. وكانوا صاغة وأثرياء.

حاصرهم المسلمون (بمن فيهم اليهود العرب الذين أسلموا) خمسة عشر يومًا متتالية، فاضطروا للتسليم فتشفَّع لهم عبد الله بن أبىّ بن سلول (يهودى عربى، وسلول هى أمه والنسبة للأم شائعة بين العرب الذين تهوَّدوا أو العرب الذين كانت أمهاتهم يهوديات). كان من اليهود العرب - إذن - عدد يميل ليهود وهم الذين أطلق عليهم القرآن الكريم اسم المنافقين - كما أشرنا سابقًا - وكان عدد بنى قينقاع أربعمائة جاسر (بدون درع) وثلاثمائة دارع، وكان ابن سلول حليفًا لهم وقد عفا النبى ﷺ عنهم على أن يخرجوا من المدينة تاركين السلاح وأدوات صناعتهم، وقد انتقلوا إلى وادى القرى ومنه إلى أذرعات بالشام.

ويخروجهم خفت صوت حلفائهم من اليهود العرب.

ولما انخرط كعب بن الأشرف الطائى (عربى يهودى أمه يهودية) فى إعلان عداوته للمسلمين أمر النبى ﷺ بقتله، فقتله محمد بن مسلمة وسلكان بن سلامة وهو أبو نائلة وكان أخًا لكعب من الرضاعة، وعباد بن بشر والحارث بن أوس وأبو عبس بن جبر. وكان قَتله فى رمضان (٣هـ)، وقيل فى ربيع الأول من السنة نفسها (٣هـ)، كذلك قُتل أبو عفك على يد سالم بن عمير العامرى فى شهر شوال بعد عشرين شهرًا من الهجرة. كان إخراج بنى قينقاع من المدينة إخراجًا لطابور خامس أو جواسيس، وكان إخراجهم أمرًا ضروريًا لا بد منه لضرورات استقرار الدولة.

لقد كانوا صاغة وتجار سلاح، والأهم أنهم كانوا يسكنون المدينة وبيوتهم مجاورة لبيوت المسلمين. ألا يستطيعون أن يوزعوا السلاح أو يبيعوه بثمن بخس سرّاً أو علنا؟! ألا يستطيعون شراء الذمم بأموالهم؟! ألم تعلمنا أمريكا أن التحكم فى حركة الأموال تجفيف لمنابع الإرهاب ؟! كل التاريخ تاريخ حديث. تتغير الأسماء والمصطلحات ويبقى المعنى واحداً.

ننتقل إلى غزوة بنى النضير (ربيع أول سنة ٤هـ). ننقل من كتب التراث موجزاً لوقائع هذه الغزوة. وفضلنا هذه المرة الطبقات الكبرى لابن سعد (المعاصر لابن هشام) لتحرّيه الاختصار.

وكانت منازل بنى النّضير بناحية الغَرْس وكانوا حلفاء لبنى عامر. خرج إليهم النبى ﷺ يوم السبت فصلّى فى مسجد قباء، وتوجه إليهم طالبًا منهم أن يساعدوه فى دفع دية فردين من بنى كلب قتلهما عمرو بن أميّة الضّمرى، إلاّ أنهم همّوا بالغدر به بطرح صخرة عليه، وكان من رأى سلاّم بن مشْكَم ألاّ يفعلوا، وعلم النبى ﷺ بمكرهم فعاد إلى المدينة، فأرسل النبى ﷺ إليهم محمد بن مسلمة طالبًا منهم الخروج وأجّلهم عشرة أيام واكتروا بالفعل النياق للمغادرة، إلا أنّ عبدالله بن أبى بن سلول حرّضهم على البقاء ووعدهم بالدفاع عنهم، فأرسل حُيى إلى النبى ﷺ إنّا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك، فحاصرهم الرسول خمسة عشر يومًا فاستسلموا وخرجوا ولحقوا بخيبر. ولم يخمّس النبى ﷺ أموال بنى النضير وإنما حبسها لنوائبه لكنه وسَّع منها على أصحابه. [ابن سعد، الطبقات الكبرى، مج١، ص ٣٨٥-٣٨٧].

لكن طبيعة علم التاريخ عند المسلمين فى هذه المرحلة الباكرة جعلته مجرد خبر أو أخبار تُروى؛ لذا كان من الضرورى أن نلتمس معنى هذه الأخبار عند باحثين معاصرين فاخترنا كتاب فضيلة الشيخ محمد سيد طنطاوى (بنو إسرائيل فى القرآن والسنة):

- بعد غزوة أحد تجرأ أعراب البادية على المدينة وعلى المسلمين. جاهر اليهود بسخريتهم من الدين الجديد، ووجدوا فى الهزيمة التى حاقت بالمسلمين ما جعلهم يثيرون النعرات العرقية، ويعاملون المسلمين معاملة قاسية مؤكّدين على أنَّهم تابعون لهم (موال لهم) وليسوا أصحاب دين جديد.

- بعد غزوة أحد وما حاق بالمسلمين فيها اتبع النبى ﷺ سياسة الهجوم على القبائل التى تجرأت على الدولة الجديدة، فأرسل السرايا لبنى أسد وهذيل، وكان غزو بنى النضير فى إطار هذه الغزوات.

- يهود يرشدون أعداء المسلمين إلى مواطن الضعف فى المدينة، كما حدث فى غزوة السويق (الآنف ذكرها) بعد غزوة بدر.

- شماتة اليهود بعد مأساة الرجيع وبئر معونة.

- رفضهم مساعدة المسلمين فى غزوة أحد، ورفضهم المشاركة فى دفع دية قتيلين قتلهما عمرو بن أمية خطأ، غداة رجوعه من بئر معونة لأن القتيلين من بنى عامر حلفاء بنى النضير.

- إجلاء بنى النضير بوصفهم غرباء

أرسل النبى ﷺ محمد بن مسلمة إليهم وقال له: «اذهب إلى بنى النضير فقل لهم: إنَّ رسول الله أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى، فلا تساكنونى بها...» [طنطاوى، ص٢٨]، إلاَّ أنَّ ابن سلول (عربى تهوَّد) شجعهم على البقاء، فحاصرهم النبى ﷺ عشرين ليلة، فخرجوا حاملين ما يستطيعون حمله عدا السلاح متجهين إلى خيبر وأذرعات بالشام، وحزن لفراقهم عدد من اليهود العرب ممن عرفوا بالمنافقين.

وقد وزَّع النبى ﷺ أراضيهم على المهاجرين الذين لم يكن لهم أراض، وخصص قسمًا للكراع والسلاح - أى للدولة - وبذلك لم يصبح المهاجرون عالة، ولكن بعض الأنصار اشتكى فقرًا فأعطاه النبى ﷺ (ومن هؤلاء أبو دجانة، وسهل بن حنيف).

- هناك من أسلم من بنى النضير، يقال اثنان هما:

- يامين بن عمير.

- أبو سعيد بن وهب.

- وذريتهما إن كان لهما ذرية ذابت فى رحاب المسلمين.

إننا إزاء عملية تأميم وتوزيع أراض على المعدمين.

ننتقل الآن إلى بنى قريظة الذين كانوا يسكنون فى منطقة مهزور التى تقع على بعد بضعة أميال إلى الجنوب من المدينة [طنطاوى، ص٦٧]. لاحظ عبارة إلى الجنوب من المدينة أى أنهم أقدر على الاتصال بتجار مكة وسماسرتها.

إنَّ ما حدث مع بنى قريظة إن صحَّت روايته ليس غزوة مستقلة وإنما لا بد من تناولها فى سياق غزوة الخندق (الأحزاب) التى حاصر فيها كل أعداء النبى ﷺ المدينة حصاراً كان مضنيًا على أهل المدينة، وكانت عواقبه وخيمة على المهاجمين، ولو أنهم انتصروا فعلاً لهلك أهل المدينة وربما قُضى على الإسلام ومشروعه الحضارى الكبير، ولكنَّ الله فعَّال لما يريد. ولن نزيد فى الصفحات التالية كثيراً عما أورده ابن هشام نقلاً عن ابن إسحاق، ثم نورد تحليلاتنا، رغم أن المصادر اليهودية تشكك فى وقوع هذه الغزوة أصلاً.

بعد انسحاب الأحزاب وعودة النبى ﷺ إلى المدينة أمر من يؤذِّن فى الناس « من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة، ووصل النبى ﷺ عند بئر من آبارهم من ناحية أموالهم يُقال لها بئر أنا (أو أنَّى) وحاصرهم خمسًا وعشرين ليلة.

وعرض عليهم كعب بن أسد القرظى (أحد زعمائهم) واحدة من ثلاث:

١ـ أن يتابعوا محمداً ويصدّقوه، ولكنهم رفضوا قائلين لا نخالف حكم التوراة أبدًا، ولانستبدل غيره (وهنا لا بد من وقفة توضيحية فحكم التوراة يكاد يكون هو حكم القرآن أو بتعبير آخر شريعة القرآن، مع تصويبات أدخلها القرآن الكريم أخذ بها اليهود فيما بعد. وإنما الجديد بالنسبة لهم هو إصرار الإسلام على إبعاد كل نقيصة عن يسوع المسيح. المسألة إذن هى مسألة رغبة الأقلية العنصرية أو العرقية فى التفرد بوضع خاص).

٢ـ أو لنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد ﷺ وأصحابه لنحاربه، فرفضوا هذا الاقتراح رغم أنه كان لروح الاستشهاد السَّلبى هذا تراث عريق فى تاريخ بنى إسرائيل.

٣ـ أما العرض الثالث والأخير، فهو أن يهبطوا على محمد ﷺ وصحبه بجسارة يوم السبت، منتهزين أن المسلمين يكونون آمنين منهم فى يوم السبت؛ لأن اليهود «يحفظونه» أى لايؤدون فيه عملاً، ولكنهم رفضوا متمسكين بشريعة حفظ السبت.

وحاول الأوس التوسط لهم، فقال لهم النبى ﷺ ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا بلى. قال النبى ﷺ «فذاك إلى سعد بن معاذ» وكان سعد قد أصيب إصابة بالغة فى غزوة الأحزاب (الخندق) التى كان يعلم أن يهود بنى قريظة كانوا وراء تحريض المشركين عليها. فحكم سعد أن يُقتل رجالهم وتُقسم أموالهم وتسبى نساؤهم وذراريهم. وتمسك حُيى بن أخطب بيهوديته تمسكًا شديدًا وجلس فضربت عنقه، ويروى ابن إسحاق نماذج أخرى ليهود تمسكوا بيهوديتهم تمسكًا شديدًا، رغم الإغراء ورغم علمهم الأكيد بأنهم سيقتلون، وكان منهم نساء. ولاندرى أهذه أخبار حقيقية أم أن هناك ظروفًا عاصرها ابن إسحاق جعلته أكثر ميلاً لتسجيلها، أم أن من رووها له كانت لهم أهداف خاصّة. ولاتخرج رواية ابن سعد عن رواية ابن إسحاق، وإن كانت أكثر إيجازًا [ابن سعد، الطبقات الكبرى، مج١، ص ص ٣٩٩-٤٠٠].

قلنا إنه رغم أن كتب السيرة تتناول غزوة بنى قريظة بوصفها غزوة مستقلة، إلاّ أن هذا يقينًا غير صحيح فهى فى سياق غزوة الأحزاب. وفى ضوء هذا يمكننا أن نفهم العقاب الحاسم الذى حاق بهم - رغم أن المصادر اليهودية لاتذكره، ومن هنا تأتى ضرورة عرض وقائع ماجرى لبنى قريظة على عقلية أحد المفكرين المسلمين، وليكن شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوى، فلنعرض بعض العناصر التى أوردها فى سياق هذه الغزوة [د. محمد سيد طنطاوى، بنو إسرائيل فى القرآن والسنة، القاهرة دار الشروق، ٢٠٠٠].

- بعد غزوة الأحزاب التى كان يهود قد لعبوا فيها دور المحرّض والمؤلّب والمجمّع، توجه النبى ﷺ إلى بنى قريظة الذين تحالفوا فى المرحلة الأخيرة من الغزوة مع الأحزاب (تجمع القبائل) ضد المسلمين.

- حُيى بن أخطب من بنى النضير الذين هاجروا إلى خيبر هو الذى لعب الدور الأكبر فى التأليب على المسلمين فى غزوة الأحزاب.

- حُيى بن أخطب، هو الذى ورّط بنى قريظة فى خيانة الرسول ﷺ والمسلمين أثناء غزوة الأحزاب.

- قام نعيم بن مسعود - بعد أن أسلم - بالإيقاع بين بنى قريظة والأحزاب وإثارة الشك فى نفوسهم . ونعيم بن مسعود هذا غطفانى (أى من غطفان) .

- كان ليهود بنى قريظة حلفاء من الأوس ؛ لذا أرسل النبى ﷺ إليهم أبا لبابة الأوسى الذى أعلمهم بالإشارة أنَّ مصيرهم الذبح إن هم نزلوا على حكم محمد ، فطلب يهود بنو قريظة وساطة الأوس كى يخرجوا بأموالهم دون سلاحهم ، كما خرجت بنو قينقاع بوساطة الخزرج (عبدالله بن أبى بن سلول) . وقبل بنو قريظة أخيراً حكم سعد بن معاذ الأوسى الذى كان قد أصيب بجرح قاس فى غزوة الأحزاب فحكم بقتل رجالهم وسبى نسائهم وأطفالهم وتقسيم أموالهم .

- رفض حُيى بن أخطب أن يسلم وفضل أن يقتل .

- بعد القضاء على بنى قريظة أمر الرسول ﷺ بقتل (أبى رافع سلاّم بن أبى الحقيق) الذى أعان الأحزاب بالمال الكثير فقتله فى خيبر رجال من الخزرج من بنى سلمة (يقارن هل هم من العرب اليهود؟) .

- كما تم قتل أسير بنى رزام الذى تولى زعامة خيبر بعد مقتل أبى رافع سلام بن الحقيق لتشجيعه القبائل مرة أخرى على حرب محمد ﷺ . وحتى تكون الصورة كاملة فذكر أنه قد أسلم من بنى قريظة نفر منهم :

١- ثعلبة بن سَعْية .

٢- أسيد بن سعية .

٣- أسد بن عبيد (نفر بنى هَدل)

[ابن هشام ، جـ٢ ، ص ص٣٩ ، ٤٠] .

كان ابن الهيبان اليهودى الذى قدم من الشام ليقيم مع بنى قريظة قبيل الإسلام بسنين ، رجلاً ليس هناك من يصلى الصلوات الخمس أفضل منه ، وكان صالحًا تقيًا مستجاب الدعاء [ابن هشام ، جـ٢ ، ص ٣٩] .

لقد أسلم إذن من بنى قريظة نفر كانت لهم ذرية ، وربما كان أبناؤهم هم الذين تناقلوا هذه الأخبار .

ننتقل بعد ذلك إلى فتح خيبر، وهى على بعد ثمانية بُرُد من المدينة، وقد غزاها النبى ﷺ فى سنة ٧هـ، وقدم جعفر بن أبى طالب ومن معه من الحبشة بعد فتح خيبر. وكانت صفيّة بنت حُيَى ممن سبى رسول الله ﷺ فأعتقها وتزوجها (لم يذكر ابن سعد أن النبى ﷺ بنى بصفية وهى فى عدّتها فمن أين جاء من أتى بعد ذلك بهذا الخبر ؟). وفى ابن سعد أيضًا أنَّ غزوة خيبر جرت فى ١٨ رمضان « فصامت طوائف من الناس وأفطر آخرون فلم يُعَب على الصائم صومه ولا على المفطر فطره» [ابن سعد، مج ١، ص ٤٢٢].

فى سياق غزوة خيبر حرَّم النبى ﷺ على المسلمين أكل لحوم الحُمر « فإنها رجس» وحرّم النبى ﷺ لحوم الحُمر الإنسية، ولحوم البغال، وكل ذى ناب من السباع، وكل ذى مخلب من الطير، وحرّم المجثّمة والخُلسة والنُّهبة [ابن سعد، مج١، ص ٤٢٥].

ويُلاحظ أن ما حرَّمه النبى ﷺ على أصحابه هنا هو محرَّم أيضًا فى سفر اللاويين فى التوراة، فهل نقول هنا إن النبى ﷺ أراد مجاملة يهود ؟! أيجاملهم وهو يُجليهم عن بلاده؟.

وفى غزوة خيبر سمع المقاتلون النبى ﷺ يقول: « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يَسق ماءه زرع أخيه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقضى على امرأة من السَّبى حتى يستبرئها. ونظام الزواج عند اليهود يجعل فترة يحل فيها للزوج كلَّ شىء إلاَّ الوصول إلى الموضع المنشود، وبعد انقضاء هذه المدّة المحددة يحل له كل شىء بما فى ذلك التعامل مع الموضع المنشود، ونحن نسمى هذه الفترة تجاوزًا اسم الخطبة، لكن هذا غير صحيح؛ لأنه لا ينفصل عنها فى هذه المرحلة الأولى إلاّ بطلاق. وعندما دخل النبى ﷺ بصفية بنت حُيى بنت أخطب كانت فيما يقول ابن سعد «حديثة عهد بعرس» [ابن سعد مج ١، ص ٤٢٨]، أى كانت الفترة التى لايجوز لزوجها اليهودى أن يتعامل فيها مع الموضع المنشود، لكن النبى ﷺ دخل بها مباشرة فنسخ هذا الشرع اليهودى المرهق وغير العملى. وأصبح هذا هو المعمول به عند المسلمين وغير المسلمين بعد ذلك، فبعد عقد العقد يحل كل ما أحل الله.

ويهود خيبر كانوا يسكنون على بعد ثمانى بُرُد (من المدينة إلى جهة الشام وقد اشتهروا بغناهم وخصوبة أرضهم وكثرة مزارعهم، كما اشتهروا بضخامة حصونهم

ومناعتـها [طنطاوى، ص١٧]. ومن أقـوى حصون خيبـر النَّطاة والصعب بن معاذ وناعم والزبير والقموص والوطيح وسلالم. . وعلى مقربة من خيبر كان يسكن قسم آخر من اليهود فى وادى القرى وتيماء وفدك [طنطاوى، ص٦٧]، وكانت معظم معاملاتهم مع غيرهم تقوم على المراهنات وتعاطى الربا. [طنطاوى، ص٦٨].

ـ بعد القضاء على بنى قريظة عقد النبى ﷺ مع أهل مكة صلح الحديبية فعم السلام وراح المسلمون ينشرون الإسلام فى كل مكان فى شبه الجزيرة العربية.

ـ تهيأ النبى ﷺ لحرب خيبر بعد أن عقد صلح الحديبية بعشرين يومًا، وكان هذا فى سنة ٧هـ فى شهر محرّم.

ـ كانت مغانم خيبر لمن حضروا صلح الحديبية وحدهم (أهل الحديبية هم الذين بايعوا بيعة الرضوان تحت الشجرة).

ـ خيبر مستوطنة زراعية، كانت أراضى خيبر واسعة الأطراف، وفيها من الحدائق والبساتين ما يحتاج إلى أيد عاملة كثيرة؛ لذا صالح النبى ﷺ أهل خيبر على بقائهم فيها بشرط أن يكون نصف ثمارهم للمسلمين.

***

والآن، كيف نعرض العلاقة بين محمد ﷺ واليهود مُركِّزين على علاقة التحالف والتعاون؟ بل كيف نقول: إن اليهود ساعدوا مساعدة حقيقية فى نشر الإسلام بشكل مباشر أو غير مباشر، ربما أكثر مما عملوا بشكل مباشر على عرقلته؟ لقد استندنا فى تحليلاتنا ـ على أية حال ـ على ما ورد فى السيرة النبوية لابن هشام، وعلى فهمنا لكلمة يهود بدون ألف ولام لنقول: إنها تدل على عرق أو جنس أكثر مما تدل على ديانة، وهو أيضًا ما ذهب إليه ابن منظور فى لسان العرب بقوله: إن يهود «قومٌ» بمعنى جنس أو عرق أما «اليهود» فهم من يؤمنون باليهودية، ومن خلال هذا واعتمادًا على السيرة النبوية لابن هشام أثبتنا أن معظم الأنصار كانوا من اليهود. ومنهجنا فى معظم البحوث التاريخية التى نشرناها هو استخدام الدليل الأنثروبولوچى أو استخدام منطق أحداث لاحقة أو حتى معاصرة لنا لإثبات حقائق تاريخية مضى عليها زمن طويل، فهل حدث ـ بعد أحداث السيرة النبوية ـ تحالف بين المسلمين

واليهود ؟ وهل عمل اليهود بعد ذلك وحتى تاريخنا الحديث هذا على نشر الإسلام بشكل غير مباشر؟ الإجابة واضحة وصريحة هى نعم، وهذه أمثلة تؤكد ذلك، وتؤكد بالتالى تحليلاتنا لأحداث السيرة النبوية. وكل هذا لا يعنى أبدًا أن من ادعوا أنهم يهود لهم الحق فى فلسطين، ولا يعنى أبدًا الالتفات والتنبّه وعدم مراعاة مصالح أوطان المسلمين، وهذا ما سنوضحه فى هذه السياقات أيضًا.

١- تحالف يهود إسپانيا ـ كما هو ثابت تاريخيًا ـ مع المسلمين وسهّلوا لهم مهمة فتح الأندلس ورحّبوا بدخولهم؛ لأنهم كانوا يتعرضون للتنصير الإجبارى، وكانوا مجبرين على الخدمة فى الجيش؛ لذا مدوا يد العون ليهود المغرب وللمسلمين الفاتحين [محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام فى الأندلس، جـ١، ص ص ٣١-٣٣، طبعة مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية للكتاب]. لقد كان اليهود يُعاونون المسلمين فى كل فتوحهم فى إسپانيا [ص٥٠]، ونعم اليهود والنصارى بالتسامح الدينى الكامل [ص٦٥]، بل واقترب الفكر الدينى لبعض المفكرين اليهود من الفكر العقدى الإسلامى، ولعل المثال الواضح على هذا هو ابن ميمون [ص٢٠٦]، والمراجع فى هذا الموضوع أكثر من أن تدخل تحت حصر، لكننا تعمدنا الرجوع للموسوعة الفخمة التى كتبها محمد عبدالله عنان عن دول الإسلام فى الأندلس؛ لأنه رجع فيها للمصادر الأصلية باللغات المختلفة والمحفوظات ووثائق نادرة، ويكاد يكون كرّس حياته لهذا الكتاب الفخم.

ها هى حالة تآلف فيها اليهود مع المسلمين وأعانوهم على فتح بلاد شاسعة، بل وأعانوهم بشكل مباشر على نشر الإسلام الذى وجدوا أنه أقرب إليهم عقديًا، كما وجدوا فى الحكم الإسلامى رحابة وتسامحًا يفوقان الحد. لايختلف الوضع كثيرًا جدًا عن ترحيب يهود يثرب بعرقيهم العربى والإسرائيلى بقدوم النبىﷺ إلى مدينتهم، فقد كانوا يترقبون أيضًا من قدومه علوّ شأن لهم فى هذه الدنيا (مصالح اقتصادية) إلى جانب قربهم العقائدى مما يدعو إليه.

٢- وعند طرد المسلمين من الأندلس طُرد معهم اليهود ولم يُسمح بالبقاء فى الأندلس إلا للمسلمين الذين قبلوا التحوّل إلى المسيحية، أما اليهود فلم يسمح لأحد

منهم بالبقاء حتى لو أبدى استعداده للمسيحية. لم تكن السلطات فى الأندلس تصدّق تحولهم إلى المسيحية، فلم يسمح لهم إطلاقًا بالبقاء، فخرجوا مع المسلمين المطرودين، ولجئوا إلى الشمال الإفريقى والدولة العثمانية عامة، واشتركوا مع المسلمين فى حركة الجهاد البحرى أو ما تسميه المراجع الأوروبية حركة القرصنة فى البحر المتوسط، نحن هنا إزاء تحالف إسلامى يهودى ضد أوروبا المسيحية.

٣- كانت الحروب الصليبية بمثابة مكنسة كبيرة كنست يهود أوروبا إلى العالم الإسلامى، وقد تعرَّض اليهود أثناء الحروب الصليبية لنكبات أشد مما واجهها المسلمون فيما عدا الطائفة التى عرفت بالطائفة السَّامرية [انظر التفاصيل فى كتاب رحلة بنيامين التطيلى ترجمه عن العبرية عزرا حداد. حققه ودرسه د. عبد الرحمن عبدالله الشيخ، أبو ظبى، المجمع الثقافى].

٤- اليهود الذين خرجوا من الأندلس واتجهوا للدولة العثمانية، عمد كثيرون منهم إلى التحوّل إلى الإسلام وعُرفوا بيهود الدونمة (أى المتحولون) وبقى كثيرون منهم أيضًا على دينهم. وخدموا فى الجهاز الإدارى العثمانى، وفى البحرية العثمانية، وبذلوا جهودًا هائلة لإفساد العلاقة بين العثمانيين وأوروبا، وأذكوا نار الحرب بينهما [انظر التفاصيل فى كتاب «العثمانيون فى أوروبا» تأليف بول كولز ترجمة ودراسة د. عبد الرحمن عبدالله الشيخ. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب].

٥- اليهود الذين تحوّلوا إلى المسيحية فى أوروبا حملوا معهم - حتى بعد تحولهم - فكرة الإله الواحد (يهوه) لم يتخلوا عنها، وبالتالى كانوا هم أساس الحركة المناهضة للتثليث فى أوروبا والتى انتشرت بعد ذلك انتشارًا كبيرًا فأنتجت نوعًا من المسيحية أقرب للإسلام عقائديًا.

٦- المسيحية الصهيونية أو بتعبير آخر المسيحية التى تركّز على العهد القديم (التوراة وملحقاتها) أصبحت من الناحية العقائدية قريبة جدًا من الإسلام، إلاّ أن مشكلتها هى إيمانها الراسخ بإعادة بناء الهيكل وإحياء عظام بنى إسرائيل [جورج بوش: رؤيا حزقيال. ترجمة د. عبد الرحمن عبدالله الشيخ، القاهرة، دار المريخ].

٧- يعتقد المسيحيون الأصوليون (أو القائلون بالمسيحية الصهيونية) أنّ اليهود فى إسرائيل سيتحولون إلى المسيحية قبيل عودة المسيح، ومن هنا كان التلاحم العقائدى

بينهم وبين اليهود، فى الوقت الذى يسخر فيه اليهود من عملية التحول هذه، واعتقاد المسيحيين الأصوليين هذا قائم على تفسيرات رؤيوية (تفسيرات لأسفار الرؤى الملحقة بالتوراة والأناجيل). المهم أن هذا التفاعل العقائدى لاينتج عنه من الناحية العقائدية سوى الإسلام، فالإسلام - عقائديًا - هو مزاج من اليهودية والمسيحية، مع تصويب لبعض مفرداتهما. المشكلة إذن هي مشكلة «صالح دنيوية وحقوق شعوب، وهذه مسألة تحلها المواجهات العسكرية أو المفاوضات أو كلتاهما. العالم كله إذن فى طريقه للإسلام. ذلك الدين العالمى الشامل الذى يؤمن بإله واحد هو «رب العالمين مالك يوم الدين». العالم كله في طريقه لديني الحنيف ثم يأتى من يدعونى لتركه متناسيًا أن ما حاق بالمسلمين - الآن - من تخلف إنما هو ناتج عن سوء فهم المسلمين للإسلام. أيأتى - فى هذا الظرف الذى نعيشه بالذات - من يفكك الإسلام ويحطمه ؟. أليس هذا إساءة تقدير للموقف. لقد قال عتبة بن ربيعة لأبى جهل عندما أساء هذا الأخير تقدير الموقف قبل غزوة بدر «يا معصفر استه» وفى رواية أخرى «يا مُزعفر استه». لكن أثمة مجال الآن وفيما بعد الآن لتحالف إسلامى يهودى؟ الإجابة هى بالتأكيد نعم. فكيف هذا ومتى ؟ سيكون هذا تحالفًا مع عرب ضد عرب ومع مسلمين ضد مسلمين، لتجفيف بلاد انتقامًا لما حدث فى فترة تاريخية طال عليها العهد، تنفيذًا لتوجيهات توراتية وتلمودية واضحة. وإن أصر الأصوليون المسيحيون على تحويلهم إلى المسيحية فى مطلع أى ألفية، فتحالفهم مع المسلمين وارد. قد لا تكون المحالفات العسكرية قائمة، وإنما سيكون السلاح هو الفكرة والرشوة، والمشروعات المشتركة، وعزل البلاد التى يريدون تجفيفها، وتقليل دورها. لكن دول المشرق العربى غدت واعية، وأظن أن مسيحيى أوروپا أصبحوا - على نحو ما - أكثر وعيًا من مسيحيى الولايات المتحدة باستخدام سلاح الفكر والمال. لا يستبعد حتى حلف فلسطينى يهودى يُغطَّى بغطاء علمانى. لكن المؤكد أن الفلسطينيين على وعى كامل بأن السلام والتعاون الاقتصادى أمر قائم وواجب ومطلوب، لكن الوعى بالأهداف البعيدة أيضًا من الأمور المطلوبة. ولعل كتاباتنا فى العقائد المحرّكة تكون لبنة فى طريق هذا الوعى.

***

الفصل الثالث

ما هى العملية الفكرية والإيمانية
التى تجعل اليهودى يتحوّل إلى الإسلام؟
ولماذا ظلّ تحول اليهود
الجماعى إلى الإسلام مستمرًا
حتى مطلع القرن السابع عشر؟

- لماذا التعمية على الأصول اليهودية لمن أسلموا ؟
- ما هى العملية الفكرية والإيمانية وراء التحول الجماعى اليهودى إلى الإسلام حتى القرن السابع عشر الميلادى
- إحصاءات بنيامين
- الفروق العقدية كما حدّدها شموائيل بن يهوذا
- رسالة إسرائيل الأورشليمى
- محاولة لفهم ما حدث سابقًا ولاحقًا

كل اليهود من غير بنى إسرائيل فى المدينة المنوّرة وما حولها قد تحوّلوا إلى الإسلام، بل وسعوا إليه سعيًا، باستثناء قلة قليلة منها كعب بن الأشرف الطائى الذى أسَفَّ فى عداوته للنبى ﷺ والتحريض ضدّه، فكان جزاؤه القتل.

أمّا اليهود الذين ادّعوا أنهم من نسل بنى إسرائيل والذين يطلق عليهم فى المراجع العربية اسم (يهود) دون ألف ولام فقد أسلمت طائفة منهم فى عهد النبى ﷺ أمّا الباقون فكان تحوّلهم إلى الإسلام بطيئًا فى بداية الأمر، ثم راحوا - بالتدريج - يدخلون الإسلام بأعداد كبيرة حتى ذابوا فى المجتمع الإسلامى الكبير، ونظرًا لبعض المواجهات الحادّة بينهم وبين نبى الإسلام بعد هجرته ﷺ (مواجهات بنى قينقاع وبنى النضير وخيبر.. إلخ) فقد عمد اليهود الذين أسلموا بعد ذلك إلى التعمية على أصولهم اليهودية، وإن ظلّت بعض الدلائل تشير إلى هذه الأصول.

ويهمنا كثيرًا أن نَعرف العملية الفكرية والإيمانية التى تجعل اليهودى يتحوَّل إلى الإسلام؟كما يهمنا كثيرًا أن نعرف لماذا توقّف هذا المد - مدُّ تحوّل اليهود إلى الإسلام - بعد القرن السابع عشر؟ ولماذا ظلت البقية الباقية منهم بعد القرن السابع عشر على دينها أو تحولت إلى المسيحية؟ وماهى العملية الفكرية والإيمانية الكامنة وراء تحول اليهود إلى المسيحية بعد القرن السابع عشر؟ وما طبيعة المسيحية التى اعتنقوها أو أوجدوها؟

الحقيقة أنَّ المصادر التراثية العربية (ابن هشام وغيره) لاتُسعفنا بالإجابة عن طبيعة هذه العملية الفكرية والإيمانية لتحول اليهود على عهد النبى ﷺ، كما لاتُسعفُنا المرجع التراثية أيضًا عن أسباب تحوّلهم بعد عصر الرسول ﷺ، مما يجعل الباحث مضطرًا للرجوع لمراجع كتبها اليهود أنفسهم. وبين يدىَّ عند كتابة هذا المبحث ثلاثة مصادر: أولها رحلة بنيامين التطيلى اليهودى (القرن السادس للهجرة) والتى جاب فيها العالم الإسلامى كله، وقابل كل الجاليات اليهودية فيه وأحصاهم عددًا. لنقارن بين إحصاءاته وما جرى بعد ذلك من قلّة عدد اليهود قلّة واضحة ملموسة. أما المصدر

الثانى فهو رسالة كتبها شموائيل-(السموأل) بن يهوذا بعنوان (بذل المجهود فى إفحام اليهود) والذى يحاول فيه إقناع غيره من اليهود بالدخول فى الإسلام، أما المصدر الثالث فهو رسالة للحبر إسرائيل بن شموائيل (السموأل) الأورشليمى وعنوانها (الرسالة السُّبعية الحاوية الضوابط الإرشادية بإبطال الديانة اليهودية) وهى تؤكد لمن بقى من اليهود أنّ عدم الدخول فى الإسلام (عناد قبيح) وتبين لنا العملية الفكرية والإيمانية لهذا التحول.

كانت العقلية اليهودية لاتستسيغ فكرة النَّسخ، فكيف تنسخ التوراة (أو تُعَّدل)، ولم يكونوا أيضًا يستسيغون فكرة الناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم. لكن تطوّرًا حدث هو ما تبينه هذه الصفحات.

وكانت العقلية اليهودية لاتستسيغ إلاّ أن تكون النبوّة فيهم والملك لهم وحدهم فهم المُصْطفَوْنَ ولاسواهم. لكن بظهور المسيح ﷺ ومن بعده محمد ﷺ صار الواقع صارخًا واضحًا وضوح الشمس دالاً على زوال ملكهم. أما الذين تعاملوا مع الواقع فأسلموا لله وآمنوا بنبيه، وظلّ هذا المد إلى القرن السابع عشر الميلادى، وبعدها مالوا للتحول إلى المسيحية التى عدّلوها بشكل أو بآخر لتتواءم مع فكرة الإله الواحد.

ولا تزال فكرة التميُّز والاستعلاء وحب التفرّد، وكونهم (صنفًا) وكل الآخرين صنفًا آخر، وكونهم المفضلين والأصفياء والمتعاهدين ـ وحدهم ـ مع الله، هى أهم أسباب بقاء من بقى منهم على اليهودية، ويعتقد المسيحيون الأصوليون أنَّهم لا بد أن يتحولوا إلى المسيحية قبل رجوع المسيح ﷺ مرة أخرى. وتلك مسألة فى حاجة لبحث مستقل.

لقد جعل الله قلوبهم قاسية، وهم يميلون إلى من يُعاملهم بشدَّة وَيَنْتق فوقهم الجبل. لقد رأو ـ رأى العيان ـ زوال تفوقهم فكانوا يتحولون إلى الإسلام جماعات جماعات، حتى بدأ انهيار آخر إمبراطورية كبرى للمسلمين (الدولة العثمانية) فبدءوا فى التحول ـ الظَّاهرى على الأقل ـ لدين القوى الأوروبية الصَّاعدة ـ أى إلى المسيحية ـ لكن بطريقتهم الخاصَّة.

ومصدرنا الأساسى عن أعداد اليهود فى العالم الإسلامى هو رحلة بنيامين التطيلى اليهودى (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م). [أبو ظبى، المجمع الثقافى، ٢٠٠٢].

بدأ بنيامين التطيلي رحلته التى نحن بصددها فى حدود سنة ١١٦٥م، الموافقة لسنة ٥٦١هـ أو قرابة سنة ٤٩٢٦ من بدء الخليقة حسب التقويم العبرى. وهذا يعنى أنه حين بدأ رحلته خارجًا من سَرقسطة (سراكوزه) لم تكن سرقسطة تحت الحكم الإسلامى، فقد كان قد مضى ـ وقت خروجه منها ـ خمسون عامًا على سقوطها فى أيدى القوى المسيحية. وإذا كان بنيامين يهدف فى الأساس إلى زيارة العالم الإسلامى زيارة تعرف ومعرفة ـ كما ذكر المترجم الأستاذ عَزْرا حدّاد فى مقدمته ـ باعتبار العالم الإسلامى ـ وهذا صحيح ـ كان هو الملجأ والملاذ ليهود شبه جزيرة أيبيريا الذين كانوا يشهدون أيامًا سوداء فى كل منطقة ينتهى فيها الحكم الإسلامى، وباعتبار العالم الإسلامى هو الملجأ والملاذ ليهود سائر أوروپا فى العصور الوسطى، الذين كان الأوروپيون يعاملونهم معاملة دونها بكثير معاملة الأنعام، وينظرون إليهم نظرة ملؤها الكراهية والاحتقار.

لقد كان اليهود من بين العناصر التى رحبت بالفتح الإسلامى للأندلس، بل ومدُّوا له يد العون؛ لذا فقد ظلَّ مسيحيو الأندلس يُعادونهم عداء مريرًا، بل إن هناك من الدراسات ما يؤكّد أنّ السلطات المسيحية بعد سقوط غرناطة ـ وطوال قرن ونيف ـ كانت لا تتهاون فى إخراج اليهود بالذات ولم تكن تقبل منهم حتى التحوّل إلى النصرانية، أما على المستوى الشعبى فقد كان شعب إسپانيا غير راض عن طرد المسلمين؛ لأنهم كانوا يمثلون طاقة عاملة لها شأنها، بل كانت الأسر النصرانية تُخبئ المسلمين مما جعل السلطات المسيحية مضطرة لجلب جنود من أوروپا من خارج إسپانيا للمعاونة فى التفتيش على المسلمين وطردهم. نعلم أن هذه الفترة خارج نطاق الفترة الزمنية التى قام فيها بنيامين برحلته، لكن منهجنا فى كتابة التاريخ أو بالأحرى فهمه لا يكتفى بالرجوع للوثائق والمصادر الروائية، وإنما بالإضافة إلى ذلك يستعين بالأحداث التاريخية التى وقعت بعد الفترة التى نؤرّخ لها، ويستعين باللغة المتداولة الآن، والوقائع الجارية الآن، والمعانى المبثوثة الآن لتفسير وقائع مضت، فحوادث التاريخ سيل مستمر، وتقسيمها إلى قديم ووسيط وحديث من فعل البشر لا من فعْل طبيعة الأحداث.. وكان هذا التقسيم لأسباب عملية لا لأسباب علمية خالصةَ أو لأسباب فلسفية محضة. لكن لا بد على أى حال من وضع بعض المحاذير على هذا المنهج حتى لا تختلط الأمور.

لذا فإننا نجتزئ بعض الصفحات من مبحث يتناول موقف أهل شبه جزيرة أيبيريا من كلٍّ المسلمين واليهود بعد سقوط غرناطة، ولا ننفى أن المشاعر ذاتها كانت موجودة فى أوقات سبقت:

«لا يتناول هذا البحث أفكارًا. . . عن موقف الإسپان من المسلمين عقب سقوط غرناطة وطوال القرن السادس عشر، وحتى أخرجوا من ديارهم نهائيًّا فى مطلع القرن السابع عشر. وتثبت هذه الدراسة من خلال وثائق منشورة أن عامة الناس وأصحاب الأراضى والمصانع خاصة لم يؤيدوا إخراج المسلمين لما فى ذلك من أضرار اقتصادية ستحيق بالبلاد، وهذا ما أثبته التاريخ بعد ذلك. لم يكن إخراج المسلمين عقب سقوط غرناطة ـ إذًا ـ مطلبا شعبيًّا وإنما مطلب كنسى عارضه العامة، وعارضه حكام الولايات. . . فقد كان عداء الإسپان لغير المسيحيين منصبًّا فى الأساس على اليهود لأسباب دينية وعرقية واقتصادية. الذين أجبروا على الخروج ولم يُقبل منهم حتى التحول إلى المسيحية هم اليهود وليس المسلمين الذين تُرك لهم فى البداية حرية الاختيار بين الإقامة والرحيل، ثم ما لبث الكنسيون أن فرضوا رأيهم فأصبح الخيار محصورًا بين الرحيل أو قبول التعميد، وفى مطلع القرن السابع عشر أجبروا جميعًا على الرحيل».

ويلاحظ أن مترجم رحلة بنيامين (عزرا حدَّاد) أوضح فى تعليقاته أنَّ العرف جرى أن يحصى الباحثون والمؤرخون اليهود عددهم بالبيت أو بالأسرة لا بعدد الأفراد فلا يحصى فى هذا الحال إلاَّ رب الأسرة فقط، وإذا علمنا أن زيادة الإنجاب هى توجُّه يهودى كما كان فى وقت من الأوقات توجهًا إسلاميًّا، مع فارق غير كبير فى العوامل الكامنة خلف هذا التوجه، ففى حالة المسلمين تُروى أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ فى الحث على التناكح لأنه يؤدى إلى التناسل، مما يجعل النبى ﷺ يُباهى بالمسلمين الأمم يوم القيامة، وبصرف النظر عن إساءة التفسير فقد ظل هذا بالإضافة لطبيعة الاقتصاد الزراعى قبل الميكنة عاملاً موجهًا، أما فى حالة اليهود فقد كان إحساسهم بقلة عددهم وأنهم شعب مختار دافعًا لهم للتناكح والتناسل، لكنه لم يؤت النتيجة المرجوّة ربما بسبب التزاوج الداخلى أى داخل الجماعة العرقية الواحدة، لكثرة الخلافات العقائدية بين اليهود، مما يجعل كل جماعة لا تعترف بالزواج الشرعى أو

التلمودى من كثير من الجماعات أو الأعراق اليهودية الأخرى، مما جعل أحد الباحثين اليهود يتوقع انشقاقًا عرقيًا أو قيام مجتمعين منفصلين داخل كيان إسرائيل بسبب نظم الزواج، وثمة ملحوظة أخرى هى أنه ربما كانت هذه الأرقام التى ذكرها بنيامين غير حقيقية أو أنها مكوَّدة أو مشفرة بحيث لا يفهمها إلا اليهود، ذلك أن كتابه هذا لايمكن أن يدخل فى أدب الرحلات بمعناه المتعارف عليه، فالرجلُ كما سبق القَول لايرى فى المناطق التى زارها إلا اليهود، ولم يُسجّل تقريبًا إلا أعدادهم وما ذكره من أشخاصهم لم يترجم لهم، وإنما ذكر أسماءهم ومهنهم ومناصبهم فى سلك الكهنوت اليهودى على الأكثر، وكأن لسان حاله يقول : من أراد مزيدًا من المعلومات فعليه الاتصال بفلان فى بلدة كذا. . إنَّ كتابه هذا بمثابة دليل تعارف بين يهود العالم، إذا حان وقت الهجرة والرَّحيل.

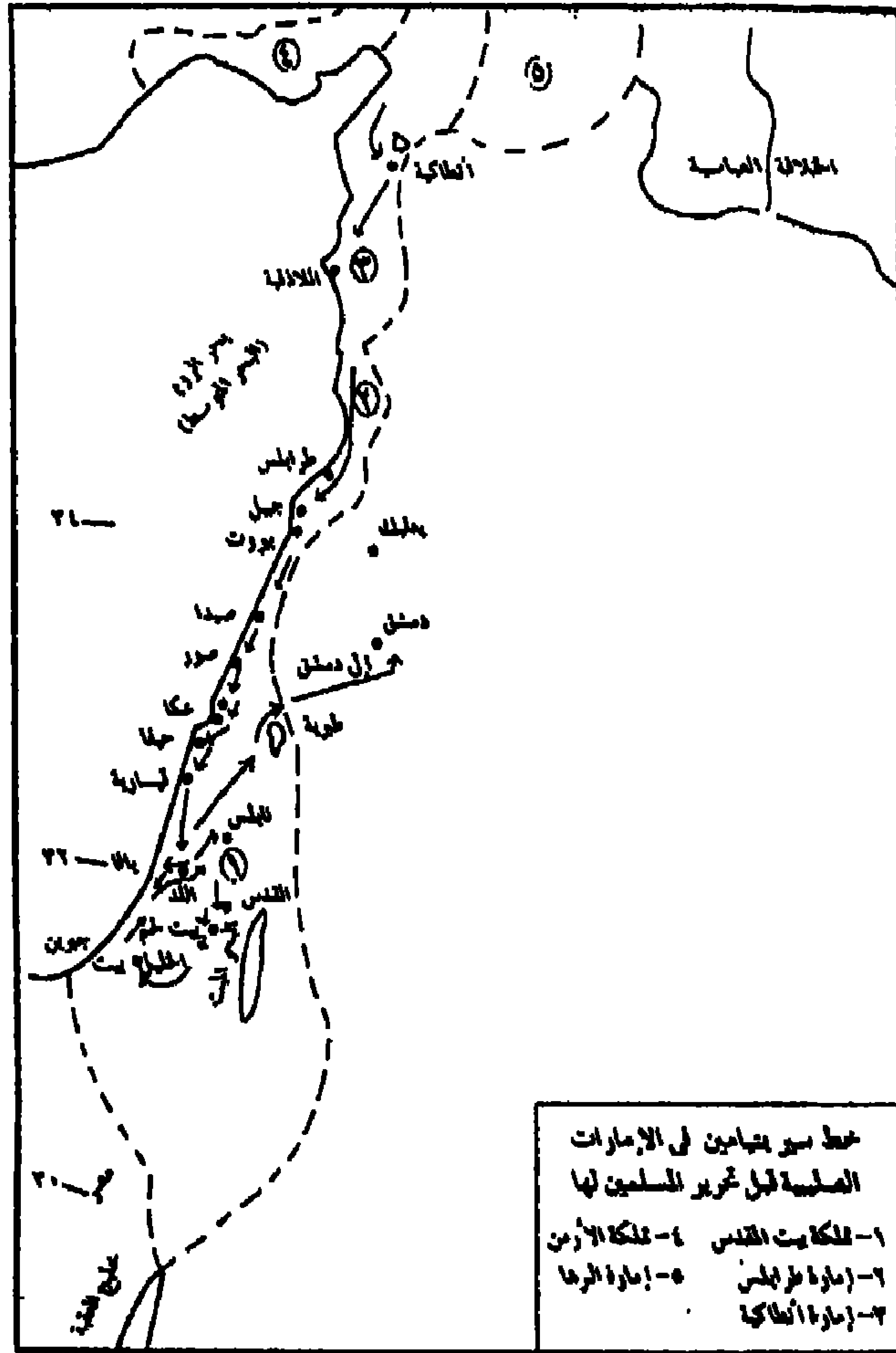
***

حركة بنيامين فى مناطق الوجود الصليبى بالشام

لا نكاد نجد يهودًا فى مناطق الوجود الصليبى فى الشام فى أثناء رحلة بنيامين اللهم إلاَّ الطائفة السَّامرية فى طرابلس، وهؤلاء لم يكن اليهود يعترفون بهم كيهود، وإنما ينظرون إليهم كطائفة تكاد تكون على دين مستقل هو الدين السامرى، فالتوراة غير التوراة، والتلمود لا يقيم له السامريون وزنًا، وبنيامين لاينظر إليهم بود، ومترجم الكتاب فى مُلحقه لا يتعاطف معهم، فليس بمستبعد أن يكون الصليبيون قد وضعوا ذلك فى الاعتبار؛ لذا وجدنا أكبر تجمع يهودى فى البلاد التى كان فيها وجود صليبى هو التجمع السامرى فى نابلس. ويحدثنا عبد اللطيف البغدادى الذى زار مصر فى حكم صلاح الدين الأيوبى، أنّ السامريين يعتقدون أن نابلس وليس القدس هى موضع المعبد المقدس، وربما أيضًا كان لهذا أثره فى عدم اضطهاد الصليبيين لهم فى عصر كانت الأفكار الدينية يمكن توجيهها ببساطة لخدمة أغراض سياسية، ثم إننا علمنا من المصادر (ذكرنا ذلك آنفًا) أن الحملات الصليبية كانت تقتل اليهود فى المدن والقرى الأوروبية التى كانت تمر بها فكيف بقى هذا العدد القليل من اليهود فى ظل الحكم الصليبى؟ ثم كيف تحرك بنيامين بحرية فى هذه المناطق؟ أيمكن أن يكون بنيامين قد اجتاز هذه المنطقة متنكرًا كمسيحى؟ربما أو حتى كمسلم ؟ ربما أيضًا خاصة وأن

الباحثون إلى أن العلاقات التجارية بين الصليبيين والمسلمين، بل والعلاقات الاجتماعية لم تنقطع بين فترات الحروب، وتناولها بعض الباحثين (د. عاشور مثلاً) كصفحة متكاملة من (العلاقات) فيها الجوانب الحربية والاقتصادية والاجتماعية. فلم يكن محظوراً فى ظل ظروف معينة أن يتجول المسلم فى مناطق الحكم الصليبى.

وما كان بنيامين ليستطيع أن يكتب كل آرائه، أو يبث آلامه من معاملة الصليبيين فى رحلته هذه لأسباب لا تخفى، لكن تعليقات عزرا حداد أكملت هذا النقص، أما نحن فلجأنا إلى لغة الأرقام نستفتيها ونخلُص منها بالنتائج وهذا واضح فى الصفحات التاليات:



مسلسل	اسم المدينة أو القرية	عدد اليهود
١	أنطاكية	١٠
٢	الليكة (اللاذقية)	٢٠٠
٣	جبلة	-
٤	جبيل	١٥٠
٥	بيروت	٥٠
٦	صيدا	٢٠
٧	صرفندة	-
٨	صور الجديدة	٤٠٠
٩	عكا	٢٠٠
١٠	حيفا	-
١١	كفر ناحوم	--
١٢	قيسارية	٢٠٠
١٣	قاقون (كيلا)	-
١٤	اللّد	١
١٥	سبسطية (السامرة القديمة)	--
١٦	نابلس.	١٠٠٠
١٧	جبل جلبوع	--
١٨	وادى أيلون	--
١٩	جبل المورية	--
٢٠	بيت المقدس	٢٠٠
٢١	بيت لحم	١
٢٢	الخليل	--
٢٣	بيت جبرين	٣
٢٤	قلعة الحصن	٣٠٠

٢٥	سنت صموئيل (سيلون)	--
٢٦	بيسان	--
٢٧	بيت النبى	٢
٢٨	الرملة	٣٠٠
٢٩	يافا	١
٣٠	إيلين	--
٣١	أشدود	--
٣٢	عسقلان	٢٠٠
٣٣	زيدين (زرين)	١
٣٤	صفورية	--
٣٥	طبرية	١٠٠
٣٦	تبنين	--
٣٧	جوش	٢٠
٣٨	ميرون	--
٣٩	علمه	--
٤٠	قادس	--
٤١	بلنياس	--
	المجموع	٣٣٦٩

من هذا الجدول يتضح ما يلى :

* أن عدد اليهود فى المدن والقرى التى زارها بنيامين فيما يعرف اليوم بلواء الإسكندرونة والسواحل السورية ولبنان وفلسطين بمعناها الجغرافى الواسع كانت قرابة ٣٣٥٩ يهوديًا فى ٤١ مدينة وقرية ، ولأن بنيامين كان يتحرّى التجمعات اليهودية فيمكننا القول : إنهم فى المناطق الآنف ذكرها جميعًا (فلسطين وسواحل المتوسط) لم يكونوا ليزيدوا عن ذلك كثيرًا .

وإذا علمنا أن عدد اليهود فى التجمعات السكنية التى زارها فى الدولة البيزنطية كان ٧٨٥٠ يهوديًا فى ٣١ تجمعًا (قرية أو مدينة) ، اتضح بجلاء أن نسبة الوجود اليهودى

فى الدولة البيزنطية كان أعلى بكثير من نسبة وجودهم فى فلسطين وسواحل البحر المتوسط الشرقية فى ظل الحكم الصليبى، فلكى تكون النسبة واحدة كان من المفترض أن يكون عدد اليهود فى التجمعات التى زارها بنيامين فى فلسطين وسواحل البحر المتوسط الشرقية هو ٧٨٥٠ يهوديًا على الأقل.

* إن عدد اليهود فى فلسطين التاريخية كان ضئيلاً جدًا فى ظل الحكم الصليبى لا يتعدى الألفين، فى ٣٥ تجمعًا سكنيًا (إذا حذفنا التجمعات السكنية التى مر عليها بنيامين فى مناطق ما يعرف الآن باسم لبنان والساحل السورى ولواء الإسكندرونة التركى).

* وإذا أضفنا لهذا أنَّ هناك ألفًا من أهل نابلس رفض بنيامين أن يعتبرهم يهودًا وهم من طائفة الكوتيين (السامريين) الذين يتبعون أسفار موسى، ولا يؤمنون بغيرها أى يرفضون التلمود وغيره من كتابات الرابيين (الحاخامات) والمفسرين وهم لا يتزوجون من غير بنات نحلتهم ولا يختلطون مع اليهود الآخرين... ويقول بنيامين مؤكدًا: إنهم غرباء عن بنى إسرائيل.. وهم يبتعدون عن كل ما يُدَنّسهم أى يبالغون فى الطهارة.. وإذا قصدوا الصلاة خلعوا ثيابهم واغتسلوا بالماء واستبدلوا بها ثيابًا غيرها.. وهذا جارى عاداتهم يوميًا. نقول: إذا حذفنا الألف سامرى آخذين فى اعتبارنا ما يقوله بنيامين لأصبح عدد اليهود على طول مناطق الساحل الشرقى للبحر المتوسط بما فيها فلسطين لا يزيد عن الألف يهودى فى ظل الحكم الصليبى. هذا عجيب!! أين ذهب اليهود؟ نؤجل هذا السؤال مؤقتًا لحين الحديث عن طائفة السامريين (الكوتيين) الذين رفض بنيامين اعتبارهم يهودًا؟ والذين تلاشوا بعد ذلك حتى إن عزرا حداد مترجم هذا الكتاب قال فى الملحق الذى أعده عنهم ما يفيد أنهم أصبحوا كالبقايا الأثرية ولم يَعد لهم بعد ذلك وجود. فواضح أيضًا أن عزرا حداد ـ مثل بنيامين من قبله ـ لا يحبهم.

إن هؤلاء السامريين فى نابلس لم يتعرضوا لاضطهاد شديد من المسيحيين؛ لأن اليهود لم يكونوا يعترفون بهم كنسل إسرائيل أو كيهود. أيكونون قد أثبتوا أنهم لم يكونوا فى فلسطين يوم (صَلب) المسيح، كما فعل اليهود القرَّاءون الموجودون فى محيط مسيحى لينجوا من الاضطهاد؟ ربما خاصة وأنهم يعتقدون أن المسيح (المنتظر)

سيكون من نسل يُوسف ﷺ ليس من نسل داود ﷺ كما يعتقد سائر اليهود، وبالتالى فقد كانوا مستقرين فى مصر ولا علاقة لهم (بصلب) المسيح ﷺ ؟ ربما، لكن يبقى السؤال الكبير : أين هم ؟ لماذا ـ دون سواهم من اليهود ـ انقرضوا ؟ هنا نستعين بالدليل المنطقى والأنثروبولوچى.

فالسامريون (الكوتيون) كانوا يبالغون فى الطهارة. إنهم ـ قبل الصلاة ـ كانوا يتجردون من لباسهم تمامًا ليلبسوا لباسًا جديدًا خاصًا بالصّلاة، وكانوا يستحمون ولا يكتفون بالوضوء. ونحن نعلم إلى عهد قريب (فى القرن العشرين) أنَّ عددًا كبيرًا من المسلمين فى شمال اليمن أو جنوب شبه الجزيرة العربية كانوا يفعلون شيئًا كهذا. فأنت ترى المسلم من هذا النوع وقد غسل نصفه الأسفل جيدًا وتوضأ، ثم خلع سرواله (لباسه) وحمله بيده ودخل المسجد وسرواله (لباسه) فى يده، ثم هو يطرح سرواله (لباسه) أمامه فى المسجد ويبدأ فى الصلاة، حتى إذا ما انتهى من صلاته لبس سرواله (لباسه) مرة أخرى فى المسجد، وفى حالة الصلاة الجامعة فى المسجد تجد الصور كالتالى : المسلمون يقفون صفوفًا وأمام كل منهم لباسه (سرواله)، فهم لا يصلون فى سراويلهم خشية أن يكون قد أصابها ما جعلها غير طاهرة.. وبعد انتهاء الصلاة والتسليم ترى روّاد المسجد كلهم وقد انهمك الواحد منهم فى رفع ثوبه وارتداء سرواله، وكلٌّ حريص يستدير للحائط مرة ولأحد الأعمدة مرة أخرى حتى لا يرى أحدٌ عَورته... وفى الجيل الماضى كنا نرى بعض الفلاحين فى مصر إذا شرع أحدهم فى الصلاة فى الحقل خلع سرواله.. فإذا رأيته وقف على حين غفلة وخلع سرواله، فلا تظُنّن السُّوء.. إنه سيصلّى.

هذه الظواهر التى وجدت فى وقت لاحق وظلَّ بعضها إلى عهد قريب جدًا، ألا يمكن أن تكون دليلاً على أنَّ الكوتيين (السامريين) قد تحولوا إلى الإسلام تدريجيًا وانتشروا فى العالم الإسلامى، فى اليمن ومصر وفى غيرهما، وإلا كيف نُفسر هنا التشدد الشديد فى مراعاة الطهارة عند الصلاة فى دين يسمح بالصلاة بمجرد التيمم إذا عزَّ الماء ؟ وبالاستجمار بحجر أو سواه لتطهير قُبُله ودبُره بعد قضاء الحاجة إذا عزَّ الماء ! ولم نسمع أن النبى ﷺ أو صحابته كانوا يصفون سراويلهم أمامهم فى المسجد. أليست هذه البقايا ممارسات قديمة للمتحولين إلى الإسلام؟ أهذا القول أفضل أم

القول بأن السامريين (الكوتيين) قد انقرضوا لعدم إيمانهم بالتلمود وكتب الحاخامات الأخرى مكتفين بأسفار موسى[1]؟ إن تأمل ملامح الحاضر يُعد دليلاً تاريخيّا لا يقل فى أهميته عن الوثيقة والأثر، وعلى هذا سنضمِّن هذه الدراسة وثيقتين تشيران إلى حركة بين اليهود أنفسهم للتحول إلى الإسلام فى القرنين السادس والسابع الهجريين (١٢، ١٣الميلادى) لأسباب تاريخية سنوضحها.

لقد شهدت مرحلة إخراج المسلمين من الأندلس، وتوغل الإسلام - فى المقابل - فى آسيا الصغرى وشرق أوروبا، ومرحلة الاحتكاك الحضارى العنيف بين الشرق والغرب ممثلاً فى الحروب الصليبية - شهدت تأثيرًا وتأثرًا بين الأديان الثلاثة، بل وأدّت إلى ظهور عقائد مركبة من أكثر من دين، فقد أسَّس درزى الداعية الإسماعيلى الفاطمى ومبعوث الحاكم بأمر الله العقيدة الحاكمية أو الدرزية التى هى مزاج من الإسلام والمسيحية بالإضافة لجانب غَيبى سرّى، فهم فيما تقول دائرة المعارف الإسلامية (مادة دروز) مسلمون مع المسلمين، ومسيحيون مع المسيحيين، وما زال المثل الشعبى الشامى قائمًا شاملاً فى محتواه المضامين التاريخية (مثل الدرزى[2]، مع الحيط القائم). . ولم يتعرض الدروز لاضطهاد الصليبيين فى أثناء فترة الحروب الصليبية، وربما كانت ظروف العصر بالإضافة لأسباب أخرى هى التى أدت لظهور هذه التركيبة الدينية. . أعنى أنه كان عصر صراع دينى لا يرحم بين أتباع الدين الواحد (المذاهب المختلفة فى أوروبا المسيحية وإلى حد ما فى الشرق الإسلامى).

ويبدو أنّ بنيامين قد بالغ كثيرًا فى ذكر عيوب الدروز فذكر أنهم «فى خصام مستمر مع أهل صيدا، وأنهم لا دين يُعرف لهم. . وهم إباحيون. . ومن عقائدهم السقيمة أن الروح الزكية إذا فارقت الجسم عند الوفاة حلّت فى جسم طفل آدمى يُولد فى تلك اللحظة، أمّا الروح الشريرة فتحل فى جسم كلب أو حمار. . وعلاقتهم طيبة باليهود» وقد علّق المترجم اليهودى عزرا حدّاد على ذلك بأن ذكر أنّ دروز اليوم براء من ذلك ففيهم كلّ مزايا العرب، ونحن نردد بدورنا ما قاله حدّاد. ويشير بنيامين إلى قلعة جبلة

---

(١) قرأت فى أحد أعداد جريدة الأهرام (يوليو ٢٠٠٠م)، أن هناك طائفة سامرية صغيرة جدًا لا تزال توجد فى إسرائيل (المؤلف).

(٢) ينطقونها بتشديد الدال وكسرها.

التى تقيم بظاهرها طائفة الحشيشيين (الحشاشين)، ويعلق حداد على ذلك بأنهم الطائفة الإسماعيلية المعروفة، ويصفهم بنيامين بأنهم زنادقة لا يؤمنون بدين محمد ﷺ ويتبعون تعاليم شيخهم (حمدان قرمط)، وهم فى نزاع مستمر مع النصارى من الإفرنج وأمير طرابلس الشام.

* نعود لحديث الأرقام فإنه إذا كان بنيامين قد وجد فى القدس مائتى يهودى فقد قلّ عددهم بعد رحيله بوقت غير طويل، فعزرا حداد ينقل عن رحّالة يهودى آخر هو فتاحية زار القدس بعد بنيامين بعشر سنوات فلم يجد فيها إلا يهوديًا واحدًا يُدعى إبراهيم الصباغ، كان - فيما يقول فتاحية - يؤدى للملك ضريبة فادحة ليسمح له بالبقاء، أما فيلكس فابرى Felix Fabri الحاج المسيحى الذى زار القدس بعد أن استعادها صلاح الدين الأيوبى فى سنة ١١٨٧م فوجد فيها ٥٠٠ يهودى وزهاء ألف مسيحى. لقد عاد اليهود إذن فى ركاب المسلمين فيما يقول عزرا حداد. ليس غريبًا إذن أن ينظر مسيحيو هذه الفترة وحتى القرن السابع عشر للميلاد - على الأقل - للمسلمين واليهود على أنهم حلفاء، فهل التحالف الأوروبى اليهودى اليوم نوع من تصفية الحسابات التاريخية؟ وهل هو حقًا تحالف سيدوم؟

بنيامين فى الدولة الإسلامية (العباسية)

اتجه بنيامين بعد ذلك إلى دمشق فدخل بذلك بلادًا يحكمها نور الدين زنكى مع ولاء شكلى للخليفة العباسى فى بغداد، وكان نور الدين هو القوة الأساسية فى الشام فى الفترة من ٥٤١ إلى سنة ٥٦٩هـ/ ١١٣٥-١١٦٣م، وكان الخليفة العباسى الذى زار بنيامين البلاد فى عهده هو المستنجد العباسى ٥٥٥-٥٦٦هـ/ ١١٦٠-١١٧٠م، وربما يكون قد عاصر شطرًا من حكم الخليفة التالى له وهو المستضىء ٥٦٦-٥٧٥هـ/ ١١٧٠-١١٨٠م، وإن كان هذا غير مؤكد، فحديثه فى الغالب عن المستنجد، وكان كلا الخليفتين مهيض الجناح لا تأثير لهما فى مجريات الأمور كما سنوضح فيما بعد. ويهمنا هنا تزايد أعداد اليهود بشكل رهيب مقارنة بأعدادهم فى سواحل الشام التى كانت تحت حكم الصليبيين وفى مملكة بيت المقدس. ولغة الأرقام هنا تساعدنا على استخلاص النتائج.

مسلسل	المدينة	عدد اليهود	ملاحظات
١	دمشق	٣٠٠٠	من اليهود التلموديين فقط .
		+	
		٢٠٠	من القرائين ولا يعتبرهم بنيامين يهودا .
		+	
		٤٠٠	من السامريين ولا يعتبرهم بنيامين يهودا .
٢	جلعد	٦٠	
٣	صرخد	--	
٤	بعلبك	--	
٥	تدمر	٢٠٠٠	
٦	القريتين	١ ,	
٧	حمص	٢٠	
٨	حماه	--	
٩	شيزر	--	
١٠	لطمين	--	
١١	حلب	١٥٠٠	
١٢	بالس	١٠	
١٣	قلعة جعبر	١٠٠٠	
١٤	الرقة	٧٠٠	
١٥	حران	٢٠	
١٦	رأس العين	٢٠٠	
١٧	نصيبين	١٠٠٠	
١٨	جزيرة ابن عمر	٤٠٠٠	
١٩	الموصل	٧٠٠	
٢٠	الرحبة	١٠٠٠	

٢١	قرقيساء	٥٠٠	
٢٢	الأنبار	١٠٠٠	
٢٣	حربى	١٥٠٠٠	
٢٤	عكبرى	١٠٠٠٠	
٢٥	بغداد	٤٠٠٠٠	
٢٦	جاهيجان	٥٠٠٠	
٢٧	خرائب بابل،	--	
٢٨	الحلّة	١٠٠٠٠	
٢٩	برس نمرود	--	
٣٠	نفاحة	٢٠٠	
٣١	مرقد حزقيال	؟	
٣٢	الفوسنان	٣٠٠	
٣٣	عين شفائه	--	
٣٤	كفر الكرم	--	
٣٥	الكوفة	٧٠٠٠	
٣٦	سورا	--	
٣٧	شفياثيب		
٣٨	مدن وصحارى شبه الجزيرة العربية	٣٠٠٠٠٠ +	
٣٩	مدن وصحارى شبه الجزيرة العربية	١٠٠٠٠٠ +	
٤٠	مدن وصحارى شبه الجزيرة العربية	٥٠٠٠٠ +	
٤١	مدن وصحارى شبه الجزيرة العربية	٣٠٠٠	

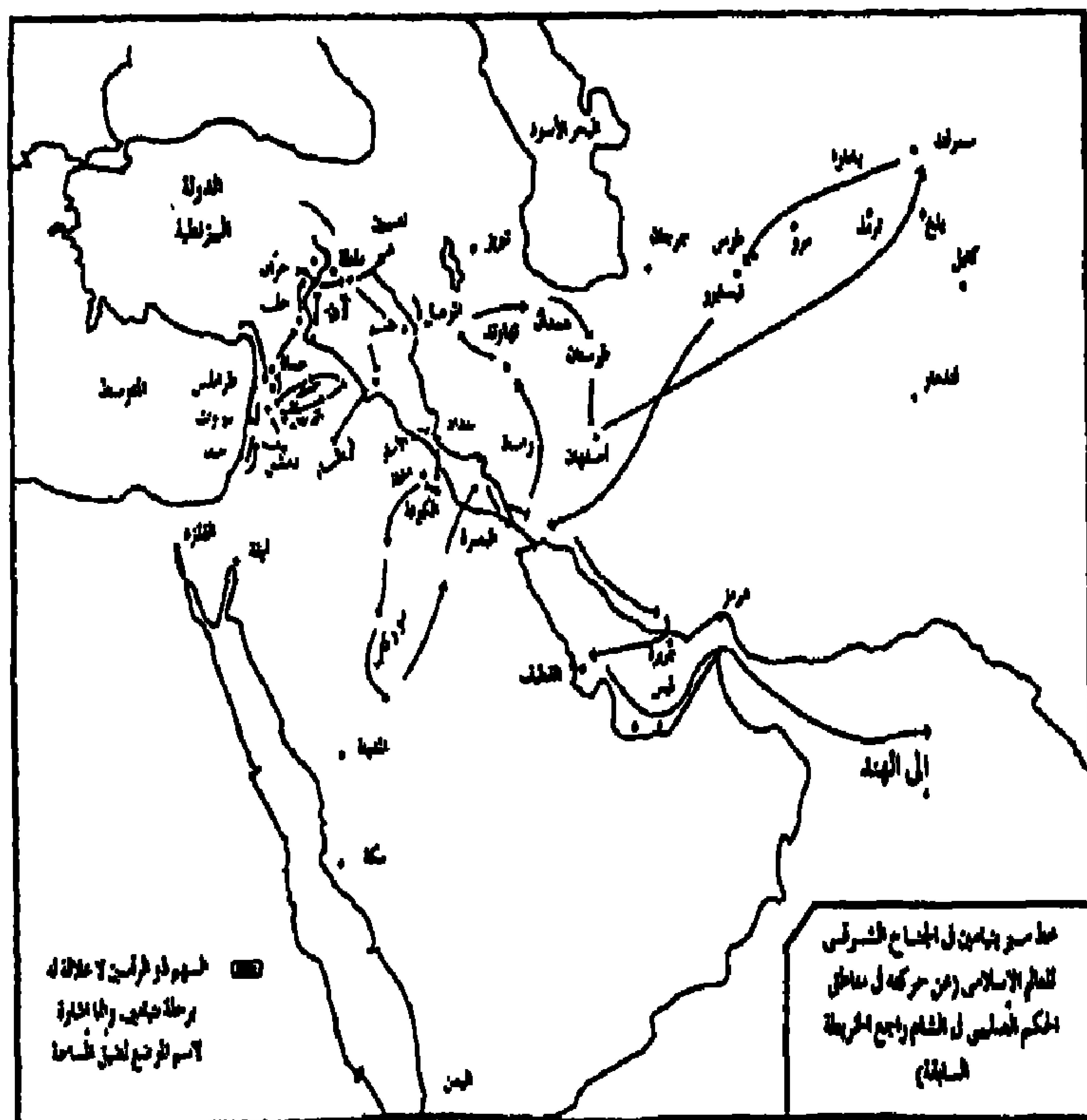
٤٢	واسط	١٠٠٠٠	
٤٣	البصرة	١٠٠٠٠	
٤٤	نهر سمره	١٥٠٠	
٤٥	خوزستان (شرق شط العرب)	٧٠٠٠	
٤٦	رودبار	٢٠٠٠٠	
٤٧	نهاوند	--	
٤٨	مواطن الحشاشين	٤٠٠٠	
٤٩	العمادية	٢٥٠٠٠	
٥٠	همذان	٥٠٠٠٠	
٥١	طبرستان	٤٠٠٠	
٥٢	أصبهان	١٥٠٠٠	
٥٣	شيراز	١٠٠٠٠	
٥٤	خيوه	٨٠٠٠	
٥٥	سمرقند	٥٠٠٠٠	
٥٦	نيسابور	٥٠٠٠(؟)	
٥٧	جزيرة قيس	٥٠٠	
٥٨	القطيف	٥٠٠٠	
	الإجمـــــالى	٧٨٢,٨١١	

قرابة ثلاثة أرباع المليون يهودى فى ظل الحكم العباسى والدول الإسلامية التابعة له اسميًا، وإذا أخذنا بملاحظة عزرا حداد التى مؤداها أن المؤرخين والكتاب اليهود جرى العرف لديهم على الإحصاء بعدد أرباب البيوت لا بعدد الأشخاص لكان هذا الرقم أكثر بكثير. يا إلهى لكأنما يهود العالم كله قد تجمعوا فى ديار المسلمين طلبًا للأمان، وإذا وضعنا فى الاعتبار أن هذا الرقم المهول لا يشمل يهود اليمن ومصر؛ لأن بنيامين تعرض لهم فى موضع آخر وهو فى طريق عودته لأوروبا، اتضح لنا كم هو كبير هذا

الرقم، ولايمكن تفسير ذلك إلا بالظروف التاريخية وهو ما سنتعرض له ولغيره فى نقاط كالتالى :

ـ كأنما كانت الحروب الصليبية مكنسة كبيرة كنس بها الصليبيون يهود العالم المعروف وقتئذ من الغرب ليلقوهم في الشرق. ولا تفسير لهذا العدد الكبير من اليهود فى الشام والعراق والدويلات التابعة ـ اسمًا ـ للخلافة العباسية سوى ذلك.

ـ فى الفترة من ٣٣٤هـ إلى ٤٤٧هـ/ ٩٤٦-١٠٥٥م، كان سلاطين بنى بويه الشيعة المغالون هم الحكام الحقيقيين فى كل العراق، بلاد الخليفة العباسى السنى، وكان الخلفاء ألعوبة فى أيديهم، ومع أنهم شيعة رفضوا إقامة خلافة فاطمية فى بغداد خوفًا من أن يستأثر الفاطميون بالحكم دونهم، وأبقوا على الخلافة العباسية. فى ظل هذه الظروف هل يُسمح للخليفة بأن يتحرك بحرية أو يكون له بطانة أو حاشية من المسلمين؟ هذا بالطبع خطر على السلاطين البويهيين، لكن لا مانع من أن تكون له بطانة أو صحبة بيهود أو مسيحيين يُدارسهم، ويقارن معهم الأديان. . فهذا لا خطر



منه على بنى بويه . وقد وجدنا شيئًا كهذا مع اختلاف الظروف والبواعث فى الدولة الفاطمية فى مصر التى وجد خلفاؤها أنهم فى محيط سنى، فجمعوا حولهم اليهود والمسيحيين واستعانوا بهم كثيراً مما كان له نتائج مهمة جدّاً سنتحدث عنها فى حينه .

ـ رغم استيلاء السلاجقة الأتراك على ملك بنى بويه فى العراق، واستيلائهم قبل ذلك على الولايات الغربية للدولة الغزنوية، ودخولهم بغداد فى سنة ٤٤٧هـ، إلا أن أحد الأمراء وهو الحارث أرسلان البساسيرى انتهز ضعف الخليفة العباسى وانشغال طغرل بك أول ملوك السلاجقة بفتح بعض بلاد بغداد فدخل بغداد فى سنة ٤٥٠هـ، وأقام الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمى، أى أنه أعلن تبعيته للخلافة الفاطمية، وهكذا أصبح الخليفة العباسى فى قبضة الشيعة، وسار البساسيرى فى بغداد سيرة الفاطميين فى مصر بالتحبب إلى الناس وتقديم الطعام والأموال، لكن الخليفة العباسى استنجد بطغرل بك الذى قدم بغداد وقتل البساسيرى، وبذلك أصبح الخليفة العباسى فى قبضة السلاجقة يتصرفون معه كما يشاءون .

ـ والآن وقد أصبح الخلفاء العباسيون تحت سيطرة السلاجقة فقد سيطر نوابهم العسكريون على الحكم فى العراق، وأرسلوا حملاتهم إلى الشام لاستعادة ملك بنى العباس (أو بالأحرى مد سلطان السلاجقة) فى المناطق التى سيطر عليها الفاطميون، فأصبحت الرملة وبيت المقدس ثم بعد ذلك دمشق فى قبضتهم، وكان الخلفاء فى هذه الأثناء يشرفون على بناء القصور والاستماع إلى الغناء ومجالسة العلماء، وقد تزاوج السلاطين السلاجقة من بنات الخلفاء وحدث العكس أيضًا فتحسنت العلاقة، لكن هذا لا يمنع أن السلاجقة كانوا يراقبون شعبية الخليفة العباسى واتصالاته، خوفًا من ازدياد جماهيريته .

وانقسم ملك السلاجقة إلى أتابكيات (إمارات صغيرة) منها فى الشام عدة أتابكيات . وفى ظل هذه الظروف كانت زيارة بنيامين إلى الشام والعراق .

ـ نحن إذن لا نستنكر ما قاله بنيامين عن الخليفة العباسى المستنجد بالله أبى المظفر يوسف بن المقتفى لأمر الله العباسى، من أنه كان يعيش عيشة هنية فى قصر فخم واسع الأرجاء ذى حديقة غناء بها موضع لصيد الطير وبرك لصيد الأسماك؛ وإن له حاشية تضم بعض اليهود علموه اللغة العبرية قراءة وكتابة .

لقد كانت علاقة الخلفاء بالسلاطين السلاجقة فى هذا الوقت ـ كما سبق أن ذكرنا ـ قد تحسنت كثيراً نسبًا وصهراً وأغرقهم السلاجقة فى الفراغ والملذات، ووقروهم وشرفوهم ورفعوهم شريطة ألا يكون لهم سلطان سياسى.

وحكاية أن المسلمين لا يشاهدون الخليفة إلا مرة فى العام مسألة معقولة، فهى تدبير احترازى اتخذه السلاجقة لإبعاده عن الجماهير، وليست مسألة لها علاقة بالتوقير أو الاحترام كما توهم بنيامين. إنه نوع من العزل السياسى المهذب.

لكن ليس هناك خطورة سياسية كما سبق القول من اندماج الخليفة بغير المسلمين؛ لذا نرى رأس الجالوت أى رئيس الجالية اليهودية عندما يقابل الخليفة تحفه الحاشية والفرسان ويجلس قبالته مباشرة. ورأس الجالوت هذا يدبر أمور ٤٠٠٠٠ يهودى فى بغداد وحدها.

ـ وما ذكره بنيامين عن يهود فى شبه جزيرة العرب يثير حساسية شديدة؛ لذلك أراح الأستاذ المترجم عَزْرا حداد نفسه بالتشكك فى زيارة بنيامين لشبه الجزيرة العربية، والواقع أن الظروف التاريخية للحروب الصليبية تجعلنا لا نستبعد ذلك مع بعض الإيضاحات: أولها: إن هؤلاء اليهود الذين توغلوا فى البادية هربًا من الحروب الصليبية قد يكونون قد تحولوا إلى الإسلام فعلاً أو تظاهروا بذلك، ثم ـ وهذا الطبيعى ـ أسلم أبناؤهم حقًا بمرور الأيام، خاصة أن بنى ركاب الذين ذكرهم بنيامين كانوا ذوى طبيعة بدوية خالصة، وأنهم كانوا يخرجون مع القبائل العربية للغزو والكسب فى الأماكن البعيدة.. لقد ذابوا إذن مع العرب الآخرين، فالظروف الاجتماعية المتشابهة، خاصة إذا كانت بقوة الظروف البدوية غالبًا ما تؤدى إلى توحيد العقائد، وقد أشار الرحالة فاريتما (الحاج يونس) إلى وجود بدو يهود فى جبال قريبة من المدينة المنورة، ووصفهم وصفًا بشعًا، لكن الحقيقة أنَّ ما ذكره ينطبق على بعض القبائل ذات الطابع الانعزالى أى التى لا تحب الاختلاط بالآخرين، وقد تصف بعض القبائل القبائل التى تكرهها أو تغار منها بأنها يهود.. على أية حال فيبدو أن الصحراء قد صهرت هؤلاء اليهود وجعلتهم من المسلمين، خاصة أن الخلاف فى العقائد الأساسية ليس كبيراً فيما عدا حكاية الشعب المختار.

ـ التحالف بين الحشاشين الإسماعيلية واليهود الذى أورده بنيامين عند حديثه عن أرض الملاحدة، أمر مقبول تمامًا، ولأن بنيامين رجل غريب وافد فهو ـ فيما يبدو ـ لم يكن يدرك التبادل الثقافى والعقائدى بين الإسماعيلية واليهود. . وهو ما سنشير إليه فى موضع آخر.

***

خط سير بنيامين إلى جنوب اليمن ثم مصر:

١- خولان	--
٢- عدن	عدد غفير ولم يحدد، والمترجم يعلق بأنه خلط بين عدن وموقع آخر بعيد.
٣- أسوان	--
٤- حلوان	٣٠٠
٥- الزويلة	--
٦- قوص	٣٠٠٠٠ وعلق المترجم بما يفيد أن هذا خطأ من الناسخ.
٧- مصر (العاصمة)	٢٠٠٠
٨- بلبيس	٣٠٠٠
٩- عين شمس	--
١٠-أبو تيج	٢٠٠
١١- بنها	٦٠
١٢- سمناط (سمنود)	٢٠٠
١٣- الدميرة(قرب دمياط)	٧٠٠
١٤- المحلة	٥٠٠
١٥- الإسكندرية	٣٠٠٠
١٦- دمياط	٢٠٠
١٧- سنباط	--
١٨- إيلة	--
١٩- حصن الخطاطين	--

كانت حركة بنيامين فى مصر مريبة نحواً ما، فقد زار بعض المدن أكثر من مرة، كما أن خط سيره فيها معقد أو مركب كما هو واضح من الخريطة. لقد خرج من أسوان إلى

قوص ولما وصل إلى شمال مصر عاد مرة أخرى إلى قوص، ثم إنه لما وصل إلى الإسكندرية عاد فتوجه إلى دمياط، ووصل إلى خليج العقبة فطور سيناء، فدمياط فقوص مرة أخرى، فالإسكندرية فدمياط، وهو قد اتخذ طريقه إلى غرب إفريقيا (إمبراطورية غانة الوسيطة وهى غير دولة غانا حاليًا، فالإمبراطورية الوسيطة كانت إلى الغرب من مملكة مالى الوسيطة ولم تكن دولة ساحلية - انظر الخريطة). أهذه حركة سائح ؟ أم تراه كان ينقل رسائل بين يهود البلاد أو يوزع عليهم تعليمات ؟ .

- وقد لاحظ بعض الباحثين المصريين (سلسلة تاريخ المصريين: أهل الذمة فى العصر الفاطمى) أن عدد اليهود فى مصر فى مطلع الدولة الأيوبية وأواخر الدولة الفاطمية قد تناقص كثيرًا، وذلك اعتمادًا على الأرقام التى أوردها بنيامين التطيلى فى رحلته هذه والتى صنفناها بطريقة جدولية فيما سبق.

وهى ملاحظة جديرة بالتأمل وفى حاجة إلى تفسير.

- أيمكن أن يكون السبب هو أن الرحالة والمؤرخين اليهود قد تعودوا أن يحصوا عدد اليهود وفقًا للأسر أو أرباب البيوت وليس وفقًا لعدد النفوس وهو ما لا يأخذ به الباحثون والرحالة المسلمون عندما يذكرون أرقامًا عن عدد السكان؟ الواقع أن هذا لا يصلح تفسيرًا للظاهرة، فالنسبة ستظل ثابتة إذا قورنت بعدد اليهود فى الشام والعراق. فهو عندما ذكر أعداد اليهود فى الشام والعراق وغيرهما اتبع الطريقة نفسها فى الإحصاء.

هل يمكن أن يكون اليهود قد تعرّضوا لاضطهاد شديد فى مصر فى أثناء الدولة الفاطمية فهاجروا منها هجرات جماعية ؟ والحقيقة أن المراجع التى تناولت التاريخ الفاطمى أو الأيوبى لم تشر إلى مثل هذه الهجرة الجماعية. أما فيما يتعلق باضطهاد اليهود والمسيحيين أثناء الحكم الفاطمى، فهو بالتأكيد حديث خرافة. فقد شغل اليهود والقبط أرقى المناصب، وكان منهم زوجات الخلفاء الفاطميين وأمهاتهم. . أما ما يقال عن هدم الكنائس وما إلى ذلك، فلا يستطيع فهمه إلا من فهم طبيعة المذهب الإسماعيلى الشيعى (الفاطمى)، فقد كانت بعض الكنائس يُؤمر بهدمها ثم بعد فترة يُؤمر بإعادة بنائها. . يبدو أنها الكنائس الآيلة للسقوط هى تلك التى يُؤمر بهدمها. وكانت هناك أوامر بتحول يهود أو مسيحيين قَسرًا إلى الإسلام، ثم أوامر بالسماح لهم

الإسكندرية
دمياط
البحر المتوسط
المحلة
بنها
بلبيس
عاد من غانة
حلوان
ذهب إلى غانة
لا ندري كيف؟
الفيوم
آيلة
خليج أيلة
طور سيناء
أبو تيج
قوص
قادماً من عدن لا ندري كيف؟
أسوان

خط سير بنيامين في مصر ويلاحظ أنه جابها من الشمال للجنوب ومن الجنوب للشمال أكثر من مرة بحثاً عن التجمعات اليهودية

بالعودة لدينهم . . وكل هذا لا يمكن فهمه إلا من خلال مبدأ (اكتم ذهبك ومذهبك وذهابك) وإلا من خلال أن الفاطميين الشيعة كانوا يحكمون غالبية من السنة؟ ولم تكن مثل هذه الأوامر الشكلية تحقق غرضها، وإنما كانت إرضاءً ظاهريًا لبعض متعصبي السنة. وكيف يفقد الفاطميون مودة اليهود والنصارى وهم يحكمون شعبًا من السنة تقبل ببساطة شديدة إلغاء كل مظاهر التشيع ممثلة فى إضافة (حى على خير العمل) فى الأذان وغير ذلك بمجرد قيام الدولة الأيوبية؟ ولم ينتحب لإلغاء الدعاء للخليفة الفاطمى فى خطب صلاة الجمعة ؟ . . . إلخ. وكيف يفقد الفاطميون مودة اليهود والنصارى والمناصب الكبيرة فيهم، الطبيب منهم، وأمين الخزانة منهم، وقيم الأموال منهم . . . أنصدق كلمات يرويها مؤرخون لم يتعمقوا فى الأمور والعوامل الكامنة وراءها ونكذب ما نراه رأى العين؟ وما زالت الكنائس التاريخية قائمة أمامنا فى غالبها شاهدًا على ذلك!

لنستبعد ـ إذن ـ مسألة الاضطهاد الدينى هذه كسبب لقلة عدد اليهود فى مصر فى أواخر عهد الدولة الفاطمية وبداية الدولة الأيوبية! والحقيقة أن العصر الفاطمى شهد ـ فيما يبدو ـ نوعًا من المفاوضات أو المساومات لإيجاد دين وسط بين اليهودية والإسلام من ناحية، وبين المسيحية والإسلام من ناحية أخرى، أو بتعبير آخر التوصل عبر مفاوضات ومناقشات ومراعاة للمصالح لإيجاد صيغة دينية وسطية مقبولة للطرفين (المسيحى الإسلامى أو اليهودى الإسلامى) فعلى سبيل المثال بماذا نفسر الظواهر الآتية :

* قائمة المحرمات التى حرمها الحاكم بأمر الله الفاطمى فى الطعام كانت تشمل الأسماك التى لا قشور لها وهو محرم بالفعل فى العهد القديم ـ سفر التثنية، ألا يمكن أن يكون هذا طلبًا أو شرطًا وضعه يعقوب بن كلس الوزير اليهودى ذو الشأن الكبير لكى يتحول إلى الإسلام؟ ولم يجد الحاكم غضاضة فى قبول هذا الطلب من ابن كلس أو من حاشيته من اليهود للوصول إلى قائمة محرمات مشتركة فيما يتعلق بالأطعمة تكون محرمة من الطرفين، وبذلك يتحول اليهود إلى الإسلام دون أن يفقدوا شريعتهم.

* عندما أصدر الحاكم بأمر الله الفاطمى أمره بألا يعمل أحد بالنهار وأن العمل لا يكون إلا ليلاً، لم يسأل أحد من الباحثين الذين كتبوا عنه نفسه : لماذا أمر الحاكم بهذا

الأمر ؟ قال المدافعون عنه : إن ذلك لأن القاهرة كانت حارة نهاراً، وإن الجو ليلاً كان جميلاً، وما أحلى العمل على ضوء الفوانيس ! وقال المهاجمون له : إنه مجنون .

والواقع أنه ليس مجنونًا، كما أن إبطال العمل نهاراً معناه أيضًا اضطراب أمر الصلاة نهاراً، ولا بد أن الناس سيناموون بالنهار ليتمكنوا من السهر ليلاً. لا بد من سبب آخر : إنه شرط بين الحاكم أو المسلمين الإسماعيلية من ناحية، واليهود من ناحية أخرى، لمرعاة حرمة يوم السبت، الذى هو اليوم الذى(استراح) فيه الرّب بعد خلق السماوات والأرض، وله - أى لهذا اليوم - حُرمة كبيرة عند اليهود، لم يتم التهاون فيها جزئيّا إلا فى أوقات لاحقة، لكن لماذا بقية الأيام أيضًا؟ إذًا ماذا كنتم تظنون؟ أيخص الفاطميون السبت وحده وبذلك تستنتج العامة أنهم تركوا الإسلام وتحولوا إلى اليهودية؟ . وكيف يدوم السلطان ؟ لا بد إذن أنَّ حواراً على هذا النحو تم بين اليهود من ناحية والسلطان والدعاة من ناحية أخرى :

ابن كلس (واليهود) : لكن للسبت عندنا حرمة كبيرة .

الدعاة الإسماعيلية : نحترم السبت وتحترمون الجمعة .

ابن كلس (واليهود) : نحن لا نعمل يوم السبت .

الدعاة الإسماعيلية : يُحرم الإمام العمل يوم السبت . لكن كيف؟

ابن كلس (واليهود) : الجو فى القاهرة حار، ليكن ذلك هو السبب فى ألا يعمل الناس نهاراً، والليل سكون نحن أدرى كيف نقضيه .

الدعاة الإسماعيلية : عظيم! لكن لماذا السبت بالذات؟ أليست الحرارة فى نهار السبت كالحرارة فى الأيام الأخرى ؟! .

ابن كلس (واليهود) : لماذا لا يعمّم مولانا الإمام ذلك بالنسبة لكل الأيام .

الدعاة الإسماعيلية : بارك الله فيكم . . هذا هو الحل، وبذلك نراعى حرمة السبت، وتشهدون صلاة الجمعة، وسيجزل لكم مولانا الإمام العطاء .

ابن كلس (واليهود) : أدام الله عمر الإمام، سرَّ الله سليل النبى! .

وبمفاوضات على هذا النَّسق تم تسوية المسائل الخلافية الظاهرية، وهى المهم، أما المسائل العقائدية، فالاعتقاد فى الله واحد، وحكاية (عزير ابن الله) هذه لم تكن هى

عقيدة غالب اليهود، أو كانت عقيدة الجهلة منهم ثم تخلصوا منها. ومحرّمات الزواج تكاد تكون واحدة، والتمسك بالطهارة تكاد تكون واحدة.

ونحن نميل دائمًا لاستخدام الدليل الأنثروبولوچى فى البحوث التاريخية أى تأمل الوضع الحاضر للخلوص منه ـ دون تعنت ـ بأدلة لإثبات وقائع تاريخية. أليس عدد كبير من الفلاحين ـ بل وبعض سكان المدن ـ كانوا إلى عهد قريب ـ وربما إلى الآن ـ يأنفون من أكل لحم السمك الثعبان والقراميط بل والجمبرى (الربيان)؟ إنهم مسلمون الآن، لكنَّ هذا تراث توارثوه من أجداد يهود أسلموا بناء على اتفاقات فى عهد الدولة الفاطمية، أما حُرمة السبت فقد تلاشت بالتدريج بحكم ضرورات الحياة حتى عند عدد كبير من اليهود المعاصرين.

ثم أليس (الفطير المشلتت) أو (الفطير) عمومًا ما زال مرتبطًا فى بعض بيوت الريف التقليدية بالأعياد والمناسبات السعيدة ؟! أليس هذا تقليدًا يهوديًا بالنسبة لبعض الأعياد حيث يُستعاض عن الخبز (ذى الخميرة) بالفطير (الذى لم يختمر عجينه)؟! إنها بقايا اتفاقات الصيغة الوسطية بين الدِّينين اليهودى والإسلامى.

لقد كان الفاطميون حريصين على إيجاد مسلمين جدد يعتمدون عليهم بدلاً من الأغلبية السنية المعادية لهم، وبالفعل نجحت سياستهم نجاحًا مذهلاً حتى إننا لا نستطيع أن نقول : إن الإسلام لم يصبح دين الأغلبية العظمى من سكان مصر إلا فى عهدهم.

وعلى النحو نفسه جرى الأمر بالنسبة للمسيحيين لكن هذا ليس موضوعنا الآن.

كانت هناك إذن حركة تحول جماهيرية بين اليهود المصريين إلى الإسلام وفقًا لهذه الصيغة الوسطية، وهذا هو التفسير الوحيد للملاحظة التى أوردها بعض الباحثين المصريين المعاصرين من أن الأرقام التى أوردها بنيامين عن عدد اليهود فى مصر أقل بكثير مما أورده المؤرخون الذين تحدثوا عن اليهود فى بداية الدولة الفاطمية.

أما لماذا لم تكن حركة التحول اليهودية هذه إلى الإسلام مشهورة معروفة؟ فالسبب بسيط وهو أنه كان مما يُقلِّل كثيرًا من قيمة الشخص ـ على المستوى الشعبى ـ أن يُعرف أن (أصله يهودى) بما تنطوى عليه هذه العبارة من مفاهيم كامنة فى الفكر الشعبى وإن كان هذا بطبيعة الحال أمرًا لا مبرر له.

ولأن بعض المشتغلين بالتاريخ قد لا يفهمون كثيراً مسألة الدليل الأنثروبولوچى هذه، فإننا نسوق لهم وثيقتين، يتضح منهما بشكل جلى محاولة المواءمة بين الدينين للخلوص بصيغة وسطية لا تمنع التحول إلى الإسلام. الوثيقة الأولى لشموائيل بن يهوذا، والصيغة العربية للاسم شموائيل هو سموأل، ويتضح لنا من السياق أنه كان من الدعاة الإسماعيلية فهو يُحدِّثنا عن «الإمام» وظلّ الله فى الأرض... إلخ.

وكتابه هو (بذل المجهود فى إفحام اليهود) واسمه كاملاً هو السموأل بن يهوذا يحيى بن عباس المغربى الأندلسى الطبيب والفيلسوف. قدم أبوه إلى الشرق الإسلامى وتضلع السموأل فى الرياضيات والطب والأديان. وطاف مع أبيه بلاد المشرق واستقر فى بغداد فترة ثم رحل إلى أذربيجان حيث أقام فى مراغة، وفيها أسلم، وكان قبل إسلامه قد بلغ درجة عالية فى الكهنوت اليهودى. وله كتاب آخر غير الكتاب الذى نحن بصدده وهو (الديانة اليهودية).

وكان السَّموأل من بيت دين، فقد كان أبوه فيما يقول هو الرَّاب يهوذا بن أيوب من مدينة فاس التى بأقصى المغرب والرَّاب لقب ليس باسم، وتفسيره الحَبر، وكان عالماً بالتَّوراة وشاعراً ينظم الشعر بالعبرية، وكان اسمه المدعُو به بين أبناء العربية هو أبو البقاء بن يحيى بن عباس ذلك أنَّ كثيراً من اليهود بالمغرب والأندلس كان لهم اسمان، واحد عبرى وآخر عربى، وإن كان الاسم العربى غالبًا ما يكون قريبًا من الاسم العبرى لأنه مشتق منه. وتزوَّج والد السموأل من أمّ السموأل ببغداد وأصلها من البصرة وكانت بارعة فى علوم التوراة وبارعة بالكتابة بالخط العبرى وهى بنت إسحق بن إبراهيم البصرى اللاوى أعنى سَبط لاوى.

يقول السموأل «وكان إسحق هذا ذا علوم يدرسُها ببغداد، وكانت أمه نفيسة بنت أبى نصر الداودى المصرى، وهذا الداودى من رؤسائهم المشهورين وذريته إلى الآن بمصر، وكان اسم أمى على اسم أم شموائيل (السموأل) النبى عليه السلام.

وللسموأل كتب أخرى منها : الطب، والجبر والمقابلة وكان خبيراً بالجواهر والأحجار الكريمة. وتوفى بمراغة من أعمال أذربيچان سنة ٥٧٠هـ.

وفيما يلى نص طويل من هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله إلا الله عدة للقاء الله

أما بعد، الحمد لله على ما ألهم به من الهداية، وعصم عنه من الغواية. والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله الطاهرين.

فإن سبيل من فضل من العباد بالفطانة والرشاد، أن يجد فى البحث عن أحوال المعاد، والتأمل لما أخذه عن الآباء والأجداد، بين الامتحان والانتقاد، فإن رآه فضيلة سما لإدراكها، وإن ألفاه رذيلة نجا من أشراكها، لتضحى حقائبه بطانًا من الزاد، فإن هاتف الموت لبالمرصاد، ولن تحمد العقبى لمضيع فى تحصين شرعه، موزع مواقيته على ما ينقاد إليه بطبعه. ولن يظفر بضالة الحق إلا ناشدوها، ولن يهدج الأباطيل على أنفسهم إلا معتدوها.

والغرض الأقصى من إنشاء هذه الكلمة : الرد على أهل اللجاج والعناد، وأن يظهر ما يعور كلمتهم من الفساد، على أن الأئمة ـ ضوعف ثوابهم ـ قد انتدبوا لذلك وسلكوا فى مناظرتهم اليهود أنواع المسالك، إلا أن أكثر ما نوظروا به لا يكادون يفهمونه أو لا يلتزمونه. وقد جعل الله إلى إفحامهم طريقًا مما يتداولونه فى أيديهم : من نص تنزيلهم، وإعمالهم كتاب الله عند تبديلهم، ليكون حجة عليهم موجودة فى أيديهم. وهذا أول ما أبتدئ به من إلزامهم.

النسخ من نص كتابهم وما تقتضيه أصولهم

أقول لهم : هل كان قبل التوراة شرع أم لا؟ فإن جحدوا كذّبوا بما نطق به الجزء الثانى من السفر الأول من التوراة. إذ شرع الله على نوح ـ عليه السلام ـ القصاص فى القتل، ذلك قوله تعالى : «**سافك دم الإنسان فليحكم بسفك دمه؛ لأن الله تعالى خلق آدم بصورة شريفة**».

وما يشهد به الجزء الثالث من السفر الأول من التوراة. إذ شرع على إبراهيم ختان المولود فى اليوم الثامن من ميلاده. وهذا وأمثاله شرائع؛ لأن الشرع لا يخرج عن كونه

أمرًا ونهيًا من الله لعباده، سواء نزل على لسان رسول، أو كتب فى أسفار، أو ألواح أو غير ذلك. فإذا أقروا بأنه قد كان شرع. قلنا لهم : ما تقولون فى التوراة ؟ هل أتت بزيادة على تلك الشرائع أم لا ؟ فإن قالوا: لا. فقد صارت عبثًا. إذ لا زيادة فيها على ما تقدم، ولم تغن شيئًا، فلا يجوز أن تكون صادرة عن الله. فيلزمكم أن التوراة ليست من عند الله تعالى. وذلك كفر على مذهبكم.

وإن كانت التوراة أتت بزيادة، فهل فى تلك الزيادة تحرم ما كان مباحًا أم لا ؟ فإن أنكروا ذلك بطل قولهم من وجهين :

أحدهما : أن التوراة حرمت الأعمال الصناعية فى يوم السبت بعد أن كان مباحًا، وهذا بعينه هو النسخ.

والثانى : أنه لا معنى لزيادة فى الشرع إلا تحريم ما تقدمت إباحته، أو إباحة ما تقدم تحريمه.

فإن قالوا : إن الحكيم لايحظر، أى لا يحرم شيئًا ثم يبيحه؛ لأن ذلك إن جاز مثله كان كمن أمر بشىء وضده.

فالجواب : أن من أمر بشىء وضده فى زمانين مختلفين غير متناقض فى أوامره، وإنما يكون كذلك لو كان الأمران فى وقت واحد.

فإن قالوا : إن التوراة حظرت أمورًا كانت مباحة من قبل، ولم تأت بإباحة محظور، والنسخ المكروه هو إباحة المحظور؛ لأن من أبيح له شىء فامتنع عنه وحظره على نفسه فليس بمخالف، وإنما المخالف من منع من شىء فأتاه باستباحته المحظور.

فالجواب : أن من أحل ما حظره الشرع فى طبقة المحرم لما أحله الشرع. إذ كل منهما قد خالف المشروع. ولم يقرأ الكلمة على معاهدها. فإذا جاز أن يأتى شرع التوراة بتحريم ما كان إبراهيم عليه السلام ومن تقدمه عن استباحته، فجائز أن تأتى شريعة أخرى بتحليل ما كان فى التوراة محظورًا.

وأيضًا : فلا تخلو المحظورات من أن يكون تحريمها مفترضًا فى كل الأزمنة؛ لأن الله سبحانه يكره ذلك المحظور لعينه. وإما أن لا يكرهه الله لعينه، بل نهى عنه فى بعض الأزمنة، فإن كان الله نهى عن عمل الصناعات فى يوم السبت لعين السبت،

فينبغى أن يكون هذا التحريم على إبراهيم ونوح وآدم أيضًا ؛ لأن عين السبت كانت أيضًا موجودة فى زمانهم وهى على التحريم. وإذا كان ذلك غير محرم على إبراهيم ومن تقدمه فليس النهى عنه لعينه، أعنى فى جميع أوقات وجود عينه، وإذا لزمكم أن تحريم الصناعة فى يوم السبت ليس تحريمًا فى جميع أوقات السبت، فليس يمتنع أن ينسخ هذا التحريم فى زمن آخر، وإذا ظهر قائم بمعجزات الرسالة وأعلام النبوة فى زمن آخر بعد فترة طويلة فجائز أن يأتى بنسخ كثير من أحكام الشريعة، سواء حظر إباحاتها أو أباح محظوراتها. وكيف يجوز أن تحاج بالبينة باعتراض فيما ورد به من أمر ونهى، سواء وافق العقول البشرية أو باينها، ولا سيما أن الخصوم قد طالما تعبدوا بفرائض مباينة للعقول، كطهارة أنجاسهم برمادة البقرة التى كان الإمام الهارونى يحرقها قبيل أوان الحج، ونجاسة ظاهرهم بذلك الرماد بعينه. على أن الذى يروم تنزيله منزلة هذا أقرب كثيرًا إلى العقل فإن الأفعال والأوامر الإلهية منزهة عن الوقوف عند مقتضى العقول البشرية.

وإذا كانت التعبدات الشرعية غير عائدة بنفع لله عز وجل، ولا دافعة عنه ضررًا لتنزيهه سبحانه وتعالى عن الانتفاع والتأذى بشىء، فما الذى يحيل أو يمنع كونه تعالى يأمر أمة بشريعة، ثم ينهى أمة أخرى عنها، أو يحرم محظورًا على قوم ويحله لأولادهم ثم يحظره ثانيًا على من يجىء بعدهم؟ وكيف يجوز للمتعبد أنْ يعارض الرسول فى تحليله ما كان حرامًا على قوم، ويستدل بذلك على كذبه بعد أن جاء بالبينة، وأوعب العقلاء تصديقه وتحكيمه، أليس هذا تحكمًا وضلالاً، وعدولاً عن الحق ؟.

إفحام اليهود والنصارى بالحجج العقلية وإلزامهم الإسلام

لا يسع عاقلاً أن يكذب نبيًا ذا دعوة شائعة، وكلمة قائمة، ويصدق غيره؛ لأنه لم ير أحدهما، ولا شاهد معجزاته. فإذا خص أحدهما بالتصديق، والآخر بالتكذيب، فقد تعين عليه الملام والإزراء عقلاً. ولنضرب لذلك مثلاً :

إذا سألنا يهوديًا عن موسى عليه السلام، وهل رآه وعاين معجزاته فهو بالضرورة يقر بأنه لم يشاهد شيئًا من ذلك عيانًا.

فنقول له : بماذا عرفت نبوة موسى وصدقه ؟ فإن قال : إن التواتر قد حقق ذلك، وشهادات الأمم بصحته دليل ثابت فى العقل، كما قد ثبت عقلاً وجود بلاد وأنهار لم نشاهدها وإنما تحققنا وجودها بتواتر الأنباء والأخبار .

قلنا : إن هذا التواتر موجود لمحمد ﷺ وعيسى عليه السلام، كما هو موجود لموسى عليه السلام، فيلزمك التصديق بهما .

وإن قال اليهودى : إن شهادة أبى عندى بنبوة موسى هى شبه تصديق بنبوته .

قلنا له : ولمَ كان أبوك عندك صادقًا فى ذلك معصومًا عن الكذب ؟ وأنت ترى الكفار أيضًا يعلمهم آباؤهم ما هو كفر عندك إما تعصبًا من أحدهم لدينه، وكراهية لمباينة طائفته، ومفارقة قومه وعشيرته، وإما لأن أباه وأشياخه نقلوه إليه فتلقنه منهم، معتقدًا فيه الهداية والنجاة . فإذا كنت يا هذا ترى جميع المذاهب التى تكفر بها قد أخذها أبناؤها عن آبائهم كأخذ مذهبك عن أبيك، وكنت عالمًا أن ما هم عليه ضلال وجهل . فيلزمك أن تبحث عما أخذته عن أبيك من أن تكون هذه حالتك .

فإن قال : إن الذى أخذته عن أبى أصح مما أخذه الناس عن آبائهم . لزمه أن يقيم البرهان على نبوة موسى من غير تقليد لأبيه؛ لأنه قد ادعى صحة ذلك بغير تقليد . وإن زعم أن العلة فى صحة ما نقله عن أبيه أنه رجح أباه عن آباء الناس أصدق والمعرفة كما يدعى اليهود فى حق آبائهم، لزمه أن يأتى بالدليل على أن أباه أعقل من سائر آباء الناس، وأفضل . فإن هو ادعى ذلك فقد كذب فيه؛ لأن من ادعى مثل هذا يجب أن يستدل على فضائله بآثاره، وقول اليهود باطل، فإنهم ليس لهم من الآثار فى العالم ما ليس لغيرهم مثله، بل هم على الحقيقة، لا ذكر لهم بين الأمم الذين استخرجوا العلوم الدقيقة ودونوها لمن يأتى بعدهم، وجميع ما نسب إليهم من العلوم وما استفادوه من علوم غيرهم لا يضاهى بعض الفنون الحكمية التى استخرجها حكماء اليونان، والعلوم التى استنبطها النبط، وأما تصانيف المسلمين فمستحيل لكثرتها أن يقف أحد من الناس على جميع ما صنفوه فى أحد الفنون العلمية لسعته وكثرته . وإذا كان هذا موقعهم من الأمم فقد بطل قولهم إن آباءهم أعقل الناس وأفضلهم وأحكمهم . ولهم أسوة بسائر آباء الناس المماثلين لهم من ولد سام بن نوح عليهما السلام .

فإذا أقروا بتأسِّى آبائهم بآباء غيرهم، وقد علموا أن آباء غيرهم قد لقنوهم الكفر، لزمهم أن شهادة الآباء لا يجوز أن تكون حجة فى صحة الدين. فلا يبقى لهم حجة في نبوة موسى إلا بشهادة التواتر، وهذا التواتر موجود لعيسى ومحمد، كوجوده لموسى.

وإذا كانوا قد آمنوا بموسى لشهادة التواتر بنبوته، فقد لزمهم التصديق بنبوة المسيح والمصطفى عليهما الصلاة والسلام.

وجه آخر من إثبات النسخ وأصوله

نقول لهم: فهل أنتم اليوم على ملة موسى عليه السلام؟.

فإن قالوا: نعم. قلنا لهم: أليس فى التوراة «أن من مس عظمًا، أو وطئ قبرًا، أو حضر ميتًا عند موته، فإنه يصير من النجاسة فى حال لا طهارة له منها، إلا برمادة البقرة التى كان الإمام الهاروني يحرقها» فلا يمكنهم مخالفة ذلك؛ لأنه نص ما يتداولونه.

فنقول لهم: فكيف جعلتم أن من لمس العظم والقبر والميت فهو طاهر يصلح للصلاة وحمل المصحف، والذى فى كتابكم خلافه؟.

فإن قالوا: لأنا عدمنا أسباب الطهارة، وهى رمادة البقرة، والإمام المطهر المستغفر.

قلنا: فهل ترون هذا الأمر مع عجزكم عنه مما تستغنون عنه فى الطهارة أم لا؟.

فإن قالوا: نعم. قد نستغنى عنه. فقد أقروا بالنسخ لتلك الفريضة لحال اقتضاها هذا الزمان.

وإن قالوا: لا نستغنى فى الطهارة عن ذلك الطهور، فقد أقروا بأنهم الأنجاس أبدًا، ما داموا لا يقدرون على سبب الطهارة.

فنقول لهم: فإذا كنتم أنجاسًا على رأيكم وأصولكم، فما بالكم تعتزلون الحائض بعد انقطاع الحيض وارتفاعه سبعة أيام، اعتزالاً تفرطون فيه إلى حد أن أحدكم لو لمس ثوبه ثوب المرأة الحائض لا ستنجستموه مع ثوبه؟

فإن قالوا : لأن ذلك من أحكام التوراة .

قلنا : أليس فى التوراة أن ذلك يراد به الطهارة ؟ فإذا كانت الطهارة قد فاتتكم فإن النجاسة التى أنتم فيها على معتقدكم لا ترتفع بالغسل كنجاسة الحيض ، فهى كذلك أشد من نجاسة الحيض ، لما أنكم ترون أن الحائض طاهرة إذا كانت من غير ملتكم ، ولا تستنجسون لامسها ، ولا الثوب الذى تلمسه ، وتخصيص الأمر ، أعنى نجاسة الحائض لطائفتكم مما ليس فى التوراة ، فهذا كله منكم نسخ أو تبديل .

فإن قالوا : إن هذا وإن كان النص غير ناطق به فقد جاء فى الفقه .

قلنا لهم : فما تقولون فى فقهائكم . هل الذى اختلفوا فيه من مسائل الخلاف والمذهب ـ على كثرتها لديكم ـ كان ثمرة اجتهاد واستدلال منقول بعينه؟ فهم يقولون : إنّ جميع ما فى كتب فقهنا نقله الفقهاء عن الأخبار عن الثقات من السلف ، عن يوشع ابن نون عن موسى الكليم عليهما السلام عن الله تعالى . فيلزمكم فى هذه المسألة الواحدة التى اختلف فيها اثنان من فقهائكم أن يكون كل واحد منهما ينقل مذهبه فيها نقلاً مستنداً إلى الله عز وجل . وفى ذلك من الشناعة اللازمة أن يجعلوا الله قد أمر فى تلك المسألة بشىء وخلافه وهو النسخ الذى يدفعونه بعينه .

فإن قالوا : إن الخلاف غير مستبعد؛ لأن الأولين كانوا بعد اختلافهم فى المذهب فى المسألة يرجعون بها إلى أصل واحد هو المقطوع به . قلنا : إن الرجوع بعد الاختلاف إلى الاتفاق على مذهب واحد إما لأن أحدهم رجع عما نقل أو طعن فى نقله فيلزمه السقوط عن العدالة ، ولا يجوز لكم أن تعاودوا الالتفات إلى نقله ، وإما أن يكون الفقهاء اجتمعوا على نسخ أحد المذهبين أو تكون رواية أحدهما ناسخة لرواية الآخر ، وما من الفقهاء إلا قد ألغى مذهبه فى مسائل كثيرة ، وهذا جنون ممن لا يقر بالنسخ[1] ، ولا يرى كلام أصحاب الخلاف اجتهاداً ونظراً ، بل نقلاً محضاً .

---

(١) ليس كل ما تقدم نسخًا وإنما هو تدرج فى التشريع طبعًا لما تقتضيه حاجة الإنسان وتطوره إلى أن اكتمل التشريع الإلهى حال اكتمال العقل البشرى ، والنضج الإنسانى بظهور محمد رسول الله ﷺ ونزول القرآن الكريم ، الذى اشتمل على كل التشريعات التى سبقته بعد أن هذبها وجعلها صالحة لكل زمان وعصر .

إلزامهم النسخ بوجه آخر

نقول لهم : ما تقولون في صلواتكم وصومكم، هل هى التى فارقكم عليها موسى عليه السلام؟ .

فإن قالوا : نعم. قلنا : فهل كان موسى وأمته يقولون في صلاتهم كما تقولون : اللهم اضرب بطوق عظيم لعنقنا، واقبضنا جميعًا من أربعة أقطار الأرض إلى قدسك، سبحانك يا جامع تشتيت قوم بنى إسرائيل.

أم هل كانوا على عهد موسى عليه السلام يقولون كما تقولون في كل يوم :

رد حكامنا كالأولين، ومسراتنا كالابتداء، وابن أورشليم قرية قدسك في أيامنا وأعزنا ببنائها. سبحانك يا بانى أورشليم.

أما هذه فصول شاهدة بأنكم لفقتموها بعد زوال الدولة؟

وأما صوم إحراق بيت المقدس وصوم حصاره وصوم كداليا الذى جعلتموه فرضًا، هل كان موسى يصومها وأمر بها هو أو خليفته يوشع بن نون ؟ أو صوم صلب هامان، هل هذه الأمور مفترضة بالتوراة، أو زيدت لأسباب اقتضت زيادتها في هذه الأعصار؟

فإن قالوا : وكيف يلزمنا النسخ بهذه الآية. قلنا : لأن التوراة بهذه الآية نطقت، وهى : لا تزيدوا على الأمر الذى أنا موصيكم به شيئًا، وإذا زدتم أشياء من الفرائض فقد نسختم تلك الآية.

إثبات النسخ على وجه آخر

نقول لهم : أليس عندكم أنّ الله اختار من بنى إسرائيل الأبكار ليكونوا خواص في الخدمة للأقداس. فيقولون : بلى. فنقول لهم : أليس عندكم أيضًا أن موسى لما نزل من الجبل ومعه الألواح ووجد القوم عاكفين على العجل، وقف بطرف العسكر ونادى : « من كان لله تعالى فليحضرنى» فانضم إليه بنو لاوى ولم ينضم إليه البكور، على أن مناداته وإن كان لفظها يقتضى العموم لم يكن أشار بها إلا إلى البكور، إذ هم

خاصة الله يومئذ، دون أولاد لاوى. فلما خذله البكور ونصره أولاد لاوى قال الله لموسى (واأقاح اثّ هلويم ثاحث كل نحور بنى إسرائيل).

تفسيره: وقد أخذت اللاوين عوضًا عن كل بكر فى بنى إسرائيل، وفى عقيب نزول هذه الآية، أليس أن الله عزل الأبكار عن ولاية الاختصاص وأخذ أولاد لاوى عوضًا عنهم؟ فهم لا يقدرون على إنكار ذلك. وهذا يلزمهم منه القول بالبدء أو النسخ.

إلزامهم نبوة المسيح (عليه السلام)

نقول لهم: أليس فى التوراة التى فى أيديكم: لا يزول الملك من آل يهود أو الراسم من بين ظهرانيهم إلى أن يأتى المسيح، فلا يقدرون على جحده؟.

فنقول لهم: أما علمتم أنكم أصحاب دولة وملك إلى ظهور المسيح ثم انقضى ملككم؟. فإن لم يكن لكم ملك فقد لزمكم من التوراة أن المسيح قد أرسل.

وأيضًا: فإنا نقول لهم: أليس منذ بعث المسيح عيسى عليه السلام استولت ملوك الروم على اليهود وبيت المقدس، وانقضت دولتهم، وتفرق شملهم، فلا يقدرون على جحد ذلك إلا بالبهتان، ويلزمهم على أصلهم الذى فى التوراة: أن عيسى بن مريم هو المسيح الذى ينتظرونه.

إلزامهم نبوته ونبوة المصطفى عليهما الصلاة والسلام

نقول لهم: ما تقولون فى عيسى بن مريم؟

فيقولون: ولد يوسف النجار سفاحًا. كان قد عرف اسم الله الأعظم. فاستخدم كثيرًا من الأشياء[1].

(١) وكيف تمكن من معرفة اسم الله وهو ابن السفاح كما يزعمون؟.

فنقول لهم : أليس عندكم فى أصح نقلكم : أن موسى عليه السلام قد أطلعه الله تعالى على الرسم المركب من اثنين وأربعين حرفًا، وبه شق البحر، وعمل المعجزات؟ فلا يقدرون على إنكار ذلك.

فنقول لهم : فإذا كان موسى قد عمل المعجزات بأسماء الله تعالى. فلم صدقتم نبوته وكذبتم نبوة عيسى ؟

فيقولون : لأن الله تعالى علم موسى الأسماء، وعيسى لم يتعلمها من الوحى، ولكنه تعلمها من حيطان بيت المقدس.

فنقول لهم : فإذا كان الأمر الذى يتوصل به إلى عمل المعجزات قد يصل إليه من لا يختصه الله به، ولا يريد تعليمه إياه فبأى شىء جاز تصديق موسى، فيقولون : لأنه أخذها عن ربه ؟

فنقول : وبأى شىء عرفتم أنه أخذها عن ربه ؟ فيقولون : بما تواتر من أخبار أسلافنا؟.

وأيضًا فإنا نلجئهم إلى نقل أسلافهم، ونقول لهم : بماذا عرفتم نبوة موسى ؟ فإن قالوا : بما عمله من معجزات. قلنا لهم : وهل فيكم من رأى المعجزات؟. أليس هذا لعمرى طريقًا إلى تصديق النبوة؟ لأن هذا كان يلزمكم منه أن تكون معجزات الأنبياء عليهم السلام باقية من بعدهم، ليراها كل جيل بعد جيل، فيؤمنوا به وليس ذلك بواجب؛ لأنه إذا اشتهر النبى فى عصر، وصحت نبوته فى ذلك العصر بالمعجزات التى ظهرت منه لأهل عصره، ووصل خبره لأهل عصر آخر، وجب عليهم تصديق نبوته واتباعه؛ لأن المتواترات والمشهورات مما يجب قبولها فى العقل. وموسى عليه السلام ومحمد وعيسى صلوات الله عليهم فى هذا الأمر متساوون.

ونقول : تواتر الشهادات بنبوة موسى أضعف من تواتر الشهادات بنبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام؛ لأن شهادة المسلمين والنصارى بنبوة موسى ليست إلا بسبب أن كتابيهما يشهدان له بذلك، فتصديقهم بنبوة موسى فرع عن تصديقهم بكتابيهما. وأما معجزات القرآن فإنها باقية، وإذا كانت باقية فتلك فضيلة زائدة لا تحتاج إلى كونها سبب الإيمان. فأما من أعطى ذوق الفصاحة فإن إيمانه بإعجاز

القرآن إيمان من شاهد المعجزات، لا من اعتمد على الخبر، إلا أن هذه درجة لم يرشح لها أحد.

فإن قالوا : إن نبينا يشهد له جميع الأمم، فإن التواتر به أقوى، فكيف تقولون إنه أضعف ؟ قلنا : كل اجتماع شهادات الأمم صحيح لديكم ؟ فإن قالوا : نعم. قلنا. فإن الأمم الذين قبلتم شهادتهم مجتمعون على تكفيركم وتضليلكم. فيلزمكم ذلك؛ لأن شهادتهم عندكم مقبولة.

فإن قالوا: لا نقبل شهادة أحد. لم يبق لهم تواتر إلا من طائفتهم، وهى أقل الطوائف عدداً. فيصير تواترهم وشرعهم لذلك أضعف الشرائع. ويلزمهم مما تقدم أن كل من أظهر معجزات شهد بها التواتر مصدق فى مقالته ويلزمهم من ذلك : التصديق بنبوة المسيح والمصطفى عليهما الصلاة والسلام.

• فصل فيما يحكونه عن عيسى عليه السلام

هم يزعمون أنه كان من العلماء، وأنه كان يطبب المرضى بالأدوية، ويوهمهم أن الانتفاع المُنال حصل لهم بدعائه. وأنه أبرأ جماعة من المرضى من أسقامهم فى يوم السبت فأنكرت عليه اليهود ذلك. فقال لهم : أخبرونى عن الشاة من الغنم : إن وقعت فى البئر يوم السبت، أما تنزلون إليها وتحلون السبت لتخليصها ؟ قالوا : بلى. قال : فلماذا أحللتم السبت لتخليص الغنم، ولا تحلونه لتخليص الإنسان الذى هو أكبر حرمة من الغنم ؟ فأفحمهم ولم يؤمنوا.

وأيضًا، فإنهم يحكون عنه : إنه كان مع جماعة من تلاميذه فى جبل، ولم يحضرهم الطعام. فأذن لهم فى تناول الحشيش فى يوم السبت. فقال لهم أرأيتم لو أن أحدكم كان وحيداً مع قوم على غير ملته، وأمروه بقطع النبات فى يوم السبت وإلقائه لدوابهم ألستم تجيزون له قطع النبات ؟ قالوا : بلى. قال فإن هؤلاء القوم أمرتهم بقطع النبات ليأكلوه لينقذوا به أنفسهم، لا للطعن فى أمر السبت كل ذلك ملاطفة منه لعقولهم التى لا ينطبع فيها النسخ.

لئن كان كل ما يحكونه من ذلك صحيحًا، فلعله كان فى ابتداء أمر المسيح عليه السلام.

ذكر الآيات والعلامات

فى التوراة آيات وعلامات تدل على نبوة سيدنا محمد ﷺ، إنهم لا يقدرون على أن يجحدوا هذه الآية من الجزء الثانى من السفر الخامس من التوراة : نبيًا أقيم لهم من وسط إخوتهم مثلك به فليؤمنوا . وإنما أشار بهذا إلى أنهم يؤمنون بمحمد ﷺ .

فإن قالوا : إنه قال : من وسط إخوتهم، وليس فى عادة كتابنا أنه يعنى بقوله «إخوتهم» إلا بنى إسرائيل .

قلنا : بلى، قد جاء فى التوراة «إخوتهم» لبنى العيص . وذلك فى الجزء الأول من السفر الخامس وهو قوله : أنتم عابرون فى تخوم إخوتكم بنى العيص المقيمين فى سعير، إياكم أن تطمعوا فى شىء من أرضهم .

فإذا كان بنو العيص إخوة لبنى إسرائيل ؛ لأن العيص وإسرائيل ولدا إسحاق، فكذلك بنو إسماعيل إخوة لجميع ولد إبراهيم .

وإن قالوا : إن هذا القول إنما أشير به إلى شموائيل النبى عليه السلام ؛ لأنه قال «من وسط إخوتهم مثلك» وشموائيل كان مثل موسى لأنه من أولاد لاوى، يعنون من السبط الذى كان منه موسى عليه السلام .

قلنا لهم : فإن كنتم صادقين فأى حاجة بكم إلى أن يوصيكم بشموائيل، وأنتم تقولون : إن شموائيل لم يأت بزيادة ولا نسخ؟ أشفق من أن لا تقبلوه : لأنه إنما أرسل ليقوى أيديكم على أهل فلسطين، وليردكم إلى شرع التوراة . وبين صفته؟ فأنتم أسبق الناس إلى الإيمان به، لأنه إنما يخاف تكذيبكم لمن ينسخ مذهبكم، ويغير أوضاع ديانتكم، فالوصية بالإيمان به مما لا يستغنى مثلكم عنه . ولذلك لم يكن بموسى حاجة إلى أن يوصيكم بالإيمان بنبوة أرميا وأشعيا وغيرهما من الأنبياء .

وهذا دليل على أن التوراة أمرتهم فى هذا الفصل بالإيمان بالمصطفى ﷺ وأتباعه .

الإشارة إلى اسمه ﷺ فى التوراة

قال الله تعالى فى الجزء الثالث من السفر الأول من التوراة، مخاطبًا إبراهيم الخليل عليه السلام: «وأما فى إسماعيل فقد قبلت دعاءك، قد باركت فيه وأثمره وأكثره جدّا جدّا» فهذه الكلمة «بمادماد» إذا عددنا حساب حروفها بالجمل وجدناه اثنين وتسعين، وذلك عدد حروف «محمد» ﷺ. فإنه أيضًا اثنان وتسعون. وإنما جعل ذلك فى هذا الموضع ملغزاً. لأنه لو صرح به لبدلته اليهود وأسقطته من التوراة. كما عملوا فى غير ذلك.

فإن قالوا: إنما يوجد فى التوراة عدة كلمات مما يكون حساب حروفه متساويًا لعدد حساب حرف اسم زيد، وعمرو، وخالد، فيكونون أنبياء؟

فالجواب: أن الأمر كما يقولون لو كان لهذه الآية أسوة بغيرها من كلمات التوراة، لكنا نقيم البراهين والأدلة على أنه لا أسوة لهذه الكلمة بغيرها فى سائر التوراة. وذلك أنه ليس فى التوراة من الآيات ما حاز به إسماعيل الشرف كهذه الآية. لأنها وعد من الله تعالى لإبراهيم بما يكون من شرف إسماعيل. وليس فى التوراة آية أخرى مشتملة على شرف لقبيلة زيد وعمرو وخالد وبكر، كما أنه ليس فى هذه الآية كلمة تساوى «بمادماد» التى معناها «جدّا جدّا» وذلك أنها كلمة المبالغة من الله سبحانه وتعالى، فلا أسوة لها من كلمات الآية المذكورة، وإذا كانت هذه الآية أعظم الآيات مبالغة فى حق إسماعيل وأولاده. وكانت تلك الكلمة أعظم مبالغة من باقى كلمات تلك الآية، فلا عجب أن تتضمن الإشارة إلى أجل أولاد إسماعيل شرفًا، وأعظمهم قدراً ﷺ.

وإذ قد بينا أنه ليس لهذه الكلمة أسوة بغيرها من كلمات هذه الآية، ولا لهذه الآية أسوة بغيرها من آيات التوراة فقد بطل اعتراضهم.

ذكر الموضع الذى أشير فيه إلى نبوة الكليم، والمسيح، والمصطفى عليهم الصلاة والسلام

قال الله تعالى «من سيناء تجلى، وأشرق نوره من سيعير، واطلع من جبال فاران، ومعه ربوات المقدسين».

وهم يعلمون أن جبل سيعير هو جبل الشراة الذى فيه «بنو العيص» الذين آمنوا بالمسيح عيسى ﷺ. بل فى هذا الجبل كان مقام المسيح ﷺ. وهم يعلمون أن سيناء هو جبل الطور. لكنهم لا يعلمون أن جبل فاران هو جبل مكة. وفى الإشارة إلى هذه الأماكن الثلاثة التى كانت مقام نبوة هؤلاء الأنبياء للعقلاء أن يبحثوا عن تأويله المؤدى إلى الأمر باتباع مقالتهم.

فأما الدليل الواضح من التوراة على أن جبل فاران هو جبل مكة : فهو أن إسماعيل لما فارق أباه الخليل عليهما السلام سكن إسماعيل فى برية فاران، ونطقت التوراة بذلك فى قوله : وأقام فى برية فاران وأنكحته أمه امرأة من أرض مصر. فقد ثبت من التوراة أن جبل فاران مسكن لآل إسماعيل. وإذا كانت التوراة قد أشارت فى الآية التى تقدم ذكرها إلى نبوة تنزل على جبل فاران لزم أن تلك النبوة على آل إسماعيل، لأنهم سكان فاران. وقد علم الناس قاطبة أن المشار إليه بالنبوة من ولد إسماعيل هو محمد ﷺ، وأنه بعث من مكة التى كان فيها مقام إبراهيم وإسماعيل. فدل ذلك على أن جبال فاران هى جبال مكة، وأن التوراة أشارت فى هذه المواضع إلى نبوة المصطفى ﷺ وبشرت به، إلا أن اليهود ـ لجهلهم وضلالهم ـ لا يجوزون الجمع بين هاتين العبارتين من الآيتين بل يسلمون بالمقدمتين ويجحدون النتيجة، لفرط جهلهم. وقد شهدت عليهم التوراة بالإفلاس من الفطنة والرأى وذلك قوله تعالى : إنهم لشعب عادم الرأى، وليس فيهم فطانة.

• فصل فى إبطال ما يدعون من محبة الله تعالى إياهم

هم يزعمون أن الله سبحانه تعالى يحبهم دون جميع الناس، ويحب طائفتهم وسلالتهم، وأن الأنبياء والصالحين لا يختارهم الله تعالى إلا منهم، ونحن نناظرهم على ذلك :

فنقول لهم : ما قولكم فى أيوب النبى ﷺ ؟ أتقرون بنبوته؟

فيقولون : نعم.

فنقول لهم : ما تقولون فى جمهور بنى إسرائيل؟ أعنى التسعة أسباط والنصف الذين أغواهم برعام بن نباط الذى خرج على ولد سليمان بن داود ، ووضع لهم الكبشين من الذهب وعكف على عبادتهما جماعة من بنى إسرائيل وأهل جميع ولاية دار ملكهم الملقب يومئذ شورمون ، إلى أن جرت الحرب بينهم وبين السبطين والنصف الذين كانوا مؤمنين مع ولد سليمان ببيت المقدس ، وقتل معهم فى معركة واحدة خمسمائة ألف إنسان . فما تقولون فى أولئك القتلى بأسرهم؟ وفى التسعة أسباط ونصف ، هل كان الله يحبهم لأنهم إسرائيليون ؟

فيقولون : لا ، لأنهم كفار .

فنقول لهم : أليس عندكم فى التوراة ، أنه لا فرق بين الدخيل فى دينكم وبين الصريح النسب منكم ؟ فيقولون : بلى ، لأن التوراة ناطقة بهذا : إن الأجنبى والصريح النسب سواء بينكم عند الله .

ويوجد أيضًا : شريعة واحدة وحكم واحد يكون لكم وللغريب الساكن فيما بينكم .

وبهذا اضطررنا إلى الإقرار بأن الله لا يحب الضالين منهم ويحب المؤمنين من غير طائفتهم ، ويتخذ أولياءه وأنبياءه من غير سلالتهم ، فقد نفوا ما ادعوه من اختصاص محبة الله سبحانه وتعالى لطائفتهم من بين المخلوقين .

• فصل فى ذكر طرف من كفرهم وتبديلهم

إن سبيل ذوى التحصيل أن يجتنبوا الرذائل ، وينفروا مما قبح فى العقول السليمة ، ورجح زيفه عند الأفهام المستقيمة . ولهذه الطائفة من الفنون الضلالية والاختلال ما تنبو عن مثله العقول ، ويخالفه المشروع والمعقول .

فمن ذلك : أنهم من ذهاب دولتهم وتفرق شملهم وعملهم بالغضب الممدود عليهم ، يقولون كل يوم فى صلواتهم : إنهم أبناء الله وأحباؤه ، وذلك قولهم كل يوم فى الصلاة : الدهر أحببتنا يا إلهنا .

وأيضًا : ارددنا يا أبانا إلى شريعتك .

وأيضًا : يا أبانا يا ملكنا يا إلهنا .

وأيضًا : أنت اللهم أبونا منقذنا .

وأيضًا : جميع الذين اقتفوا أثر نبيك واعدًا جماعتك كلهم عبروا البحر واحد منهم لم يبق .

ويمثلون أنفسهم بعناقيد العنب ، وسائر الأمم بالشوك المحيط بأعالى حيطان الكرم . وهذا من قلة عقولهم ونظرهم ، فإن المعتنى بمصالح الكرم إنما يجعل على حيطانه الشوك حفظًا وحياطة للكرم . ولسنا نرى لليهود من بقية الأمم إلا الضرر والذل والصغار ، وذلك مبطل لقولهم . وينتظرون فإنما يأتيهم من نسل داود : إذا حرك شفتيه بالدعاء مات جميع الأمم ولا يبقى إلا اليهود وأن هذا المنتظر بزعمهم هو المسيح الذى وعدوا به . وقد كان الأنبياء عليهم السلام ضربوا لهم أمثالاً أشاروا بها إلى جلالة دين المسيح عليه السلام وخضوع الجبارين لأهل ملته وإتيانه بالنسخ العظيم .

فمن ذلك قول أشعيا فى نبوته : إن الذئب والكبش يرعيان جميعًا ويربضان معًا ، وإن البقرة والدب يرعيان جميعًا ، وإن الأسد يأكل التبن كالبقرة .

فلم يفهموا من تلك الأمثال إلا صورها الحسيَّة دون معانيها العقلية ، فتأولوها على الإيمان بالمسيح عند مبعثه ، وأقاموا ينتظرون الأسد يأكل التبن ، ونصح لهم حينئذ العلائم بمبعث المسيح .

ويعتقدون أيضًا أن هذا المنتظر متى جاءهم يجمعهم بأسرهم إلى القدس ، وتصير لهم الدولة ويخلو العالم من سواهم ، فيحجم الموت عن جنابهم المدة الطويلة . وسبيلهم أن يعولوا على متابعة الأسود فى غاباتهم ، وطرح التبن بين أيديها ، ليعلموا وقت أكلها إياه .

وأيضًا إنهم فى العشر الأول من الشهر الأول من كل سنة ، يقولون فى صلواتهم : يا إلهنا وإله آبائنا املك على جميع أهل الأرض ليقول كل ذى نسمة الله إله إسرائيل قد ملك ومملكته فى الكل متسلطنة .

ويقولون فى هذه الصلوات أيضًا : وسيكون لله الملك وفى ذلك اليوم يكون الله واحدًا. ويعنون بذلك أنه لا يظهر أن الملك لله إلا إذا صارت الدولة إلى اليهود الذين هم أمته وصفوته. فأما ما دامت الدولة لغير اليهود فإن الله خامل الذكر عند الأمم، وأنه مطعون فى ملكه، مشكوك فى قدرته. فهذا معنى قولهم: اللهم املك على جميع أهل الأرض ومعنى قولهم : وسيكون الملك لله.

وممّا ينخرط فى هذا المسلك قولهم: لم تقل الأمم أين إلههم؟

وقولهم : انتبه، لم تنام يا رب ؟استيقظ من رقدتك ؟

وهؤلاء إنما نطقوا بهذه الهذيانات والكفريات من شدة الضجر من الذل والعبودية والصغار، وانتظار فرج لا يزداد منهم إلا بعدًا، فأوقعهم ذلك فى الطيش والضجر، وأخرجهم إلى نوع من الزندقة والهذيان الذى لا تستحسنه إلا عقولهم الركيكة. فتجرءوا على الله بهذه المناجاة القبيحة. كأنهم ينخون الله بذلك لينخى لهم ويحمى لنفسه، لأنهم إذا ناجوا ربهم بذلك فكأنهم يخبرونه بأنه قد اختار الخمول لنفسه وينخونه للنباهة واشتهار الصيت، فترى أحدهم إذا تلا هذه الكلمات فى الصلاة يقشعر جلده، ولا يشك فى أن كلماته تقع عند الله بموقع عظيم، وأنه يؤثر فى ربه، ويحركه بذلك ويهزه وينخيه. وهؤلاء على الحقيقة ينبغى أن يرحم جهلهم وضعف عقولهم.

وأيضًا، فإن عندهم فى توراتهم : إن موسى صعد الجبل مع مشايخ أمته فأبصروا الله جهرة، وتحت رجليه كرسى منظره كمنظر البلّور، ذلك قوله :

ويزعمون أن اللوحين مكتوبان بإصبع الله، ذلك قولهم (بأصباع الوهيم) ويطول الكتاب إن عددنا ما عندهم من كفريات التجسيم، على أن أحبارهم قد تهذبوا كثيراً عن معتقد آبائهم بما استفادوه من عندهم، بما يدفع عنهم إنكار المسلمين عليهم، وما تقتضيه الألفاظ التى فسروها ونقلوها، وصاروا متى سئلوا عما عندهم من هذه الفضائح استتروا بالجحد والبهتان، خوفًا من فظيع ما يلزمهم من الشناعة.

ومن ذلك : أنهم ينسبون الله تعالى إلى الندم على ما يفعل.

فمن ذلك قولهم فى التوراة التى فى أيديهم : وندم الله على خلق البشر فى الأرض وشق عليه.

وقد أفرط المترجم فى تعصبة وتحريفه للألفاظ عن موجب اللغة وفسر(ويناجم أدوناى وناب أدوناى تميمريه) يعنى: غار الله فى رأيه.

وهذا التأويل أيضًا وإن كان غير موافق اللغة فهو أيضًا كفر، مناقض لما يدفعونه من البدء والنسخ.

وأما الدليل على تفسيره (وبتعصيب ال لبوه) وشق عليه. فهو ما جاء فى مخاطبة حواء (بتعصيب تيلدى بانيم)

تفسيره: بمشقة تلدين الأولاد.

فقد تبين أن « العصيب» عندهم فى اللسان العبرانى: هو المشقة. وهذه الآية عندهم فى قوم نوح، زعموا أن الله تعالى لما رأى فساد قوم نوح، وأن شرهم وكفرهم قد عظم ندم على خلق البشر وشق عليه. ولا يعلم البُله أن من يقول بهذه المقالة يلزمه أن الله كان قبل أن يخلق البشر لم يكن عالمًا مما سيكون من قوم نوح وغير ذلك من النقص، تعالى الله عما يكفرون.

وعندهم: أن الله تعالى قال لشموائيل النبى ﷺ (ات أول لميلخ على يسرائيل)

تفسيره: ندمت إذ وليت شاءول على إسرائيل.

وفى موضع آخر من سفر شموائيل (وأدوناى يخام كى همليح اث شاءول على يسرائيل).

تفسيره: والله ندم على تمليكه شاءول على إسرائيل.

وأيضًا فإن عندهم فى كتابهم أن نوحًا النبى عليه السلام لما خرج من السفينة بدأ ببناء مذبح لله تعالى وقرب عليه قرابين. ويتلو ذلك: فاستنشق الله تعالى رائحة القتار. فقال الله تعالى، فى ذاته: لن أعاود لعنة الأرض بسبب الناس لأن خاطر البشرى مطبوع على الردة. ولن أعاود إهلاك جميع الحيوان كما صنعت.

ولسنا نرى أن هذه الكفريات كانت فى التوراة المنزلة على موسى ﷺ، ولا نقول أيضًا: إن اليهود قصدوا تغييرها وإفسادها بل الحق أولى أن يتبع ونحن نذكر الآن حقيقة سبب تبديل التوراة... إلخ.

وهكذا يستمر شمـوائيل (السموأل) المتحول إلى الإسلام بلهجتـه عالية النّبرة هذه. لكن لدينا وثيقة أخرى ليهودى آخر أسلم وراح يبـرر لغيره من اليهود سبب إسلامه؛ إذ يبدو أنهم أنبـوه على ذلك، وكان هذا اليهودى المتـحول هو الحبر إسرائيل بـن شموائيل (السموأل) الأورشليـمى خفيف الظل حقّـا، ووثيقته كمـا هو واضح من لهجتهـا تشير إلى اتجاه للتحول إلى الإسـلام، كان قبله، كما كان قائمًـا فى زمانه..وإليكم هذه الوثيقة التى تعود إلى القرن الثالث عشر للميلاد:

***

الرسالة السُّبَيعية الحاوية الضوابط الإرشادية بإبطال الديانة اليهودية

للحبر إسرائيل بن شموائيل الأورشليمى

الحمد لله الذى اختص لذاته العلية بقوله السامى «لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون» وجعل الناس أحزابًا وفرقًا، وقد تراهم بجهل وعلم كافة إليه يسألون وأرسل إليهم رسلاً وأنبياء جمة، وأحصى معناهم بمحمد خاتم المرسلين. وأمرنا بالصلاة والسلام عليهم، وعلى آلهم وأصحابهم أجمعين. أما بعد فهذه الرسالة المسماة بالسُّبيعية، الحاوية لسبعين من القضايا التنبيهية قد تتعلق بجواب يفيد المعرفة، واستدلالاً لزوميّا للأحكام التوراتية بالشرائع القرآنية، على سؤال يرد من أحبار اليهود البواقى من الملّة الإسرائيلية إلى رجل مهتد إلى الديانة المحمدية.

صورة السؤال: ألا يا حبيبى: ما الذى ألجأك إلى أن تترك دين آبائك وأجدادك وتوراتهم وشريعتـهم، وتنتـقل إلى دين الكوثيم دين الإسلام، الذى كنت تبغـضـه وتشنؤه، كما نحن الآن جماعة اليهود ونكره الدخول فيه؟

صورة الجواب:

ألا يا بنى إسرائيل يا أقربائى وبنى جنسى: إنى أعلمكم أن الذى ألجأنى إلى أن أترك ما عندكم وأدخل فى دين الإسلام هو مركب من سبع قضايا:

أولها: أنى فحصت الفحص البليغ وتركت الغرض والعناد القبيح فوجدت كلام الأنبياء عليهم السلام وإشارتهم عن هذا النبى العظيم محمد الذى اتبعته هى منطبقة

عليه من كل الجهات، ثم هذه النبوءات التى رأيتها فى كتب الأنبياء وسمعتها . فعلى ظنى أنه ليس عليها مَرد مطلقًا ولا ناقص بوجه الحق، وهى من سيدنا موسى وأشعيا وداود وزكريا وغيرهم، ثم مفردات هذه الشهادة مفندة فى محلات كثيرة من كتب المباحثات والمجادلات فى هذا المعنى مأخوذة من التوراة عينها .

فمن جملة ما ذكرت التوراة فى سفر التكوين المسمى بالعبرانى «باراشيب» بأن لسيدنا إسحاق جد الأنبياء بركة واحدة، وذكرت لسيدنا إسماعيل جملة بركات، وعليكم يا أحبائى بمراجعتها .

وثانيها : أنه قبل مطالعتى لهذه البراهين كان دائمًا يخطر لفكرى ـ كما الآن يخطر لفكركم ـ وكنت أقول لذاتى بأن توراتنا وزَبُورنا ونبوات أنبيائنا لم يوجد فيها أدنى إشارة إلى نبى المسلمين .

ولكن بعد مدة مديدة من الزمان راجعتُ ذاتى وقلتُ فى عقلى : وَيه . . وَيه . كيف نبى مثل هذا الذى تبعته ألوف وكرّات ومليونات وشعوبه وأمته أكثر بكرات من شعوب موسى وتبشيره للناس وإنذاره بترك الكفر والحث على الإيمان بالله ومجاهدته وغيرته الشهيرة، أيُهمل ويُترك وينسى من الذكر عند أنبياء بنى إسرائيل ؟ فهذا القول بهذا الشكل الذى يعلمنا فيه أحبارنا والحاخامات هو مضاد لكل عقل سليم، بحيث إن أنبياء بنى إسرائيل أنبؤوا عن أشياء كثيرة وكلية وجزئية، والإشارة عن هذا النبى (محمد) هى من الأشياء الكلية اللازمة، فكيف يتركونها وينسونها وَيه . . وَيه . . أنا لا يقبل عقلى كلام الحاخامات الباطل وتأويلهم .

فالتزمت عندما امتلأ فكرى من هذا الميزان أن أفتش وأفحص بزيادة عما كُنت أفحص من قبل فوجدتُ كما قدمتُ . وقلت إن معانى كثيرة وإشارات غزيرة موجودة فى التوراة تشير إلى هذا النبى العظيم محمد، وهذه هى التى كانت من جملة الأسباب التى أحوجتنى أن أترك الشريعة التوراتية وأتبع الشريعة القرآنية المُهندمة بغاية الهندام، والمنتظم إليها أخص ما يوجد فى الشرائع السابقة .

وثالثها : اعلموا يا أقربائى وبنى جنسى، أنى أخبركم أن الذى حملنى بعد ذلك أن أتبع هذا النبى الجليل محمدًا : من كونى نظرت أن جماعة اليهود على بكرة أبيها فى كل مصر ومكان عائشون بغير شريعة التوراة ولا عاملون بأحكامها اللازمة كونهم لا

يستطيعون العمل بها، لا، بل ممتنع، وقد تصرمت عنهم بالطبع وتلاشت وهى باقية بالورق فقط، ويظهر من ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد استخدمها إلى أزمنة معلومة محدودة غير راضٍ بخلودها. لا، بل إنه راضٍ بانقضائها وتبديلها.

والبرهان على ذلك هو من المشاهدات والمتواترات والتجريبات والحدسيات والأوليات. إذ إننا نرى أن أعمدة وأركان هذه الشريعة الموسوية التى كانت مُسنَدة عليها وفيها قوامها واستيلاؤها قد انهدمت بالكُلية وعدمت، مثل إبادة الملك والرياسة، وعدم وجود الأنبياء وإبطال الكهنوت وخراب الهيكل السليمانى وهدم المذبح واندثار الذبائح ومَحق الأسباط وما يتعلق بهم؛ لأن هذه الأعمدة والأركان قد ربط بها الله سبحانه وتعالى جميع ما يلزم من القضايا الدينية المشروعة فى التوراة حتى الأحكام المدنية، لكى - إذا عدمت هذه اللوازم الركنية بطلت - (كما هو مشاهد الآن)- نستدل من انعدامها على بطلان الديانة جميعها، بحيث تعلق الدين بها، والبرهان على ذلك واضح جدًا وأجلى من ضياء الشمس بضحاها ومشاهد تحت حواسنا بفناها. إذ إن الله سبحانه قد نزع الملك منكم والاستيلاء الذى به كنتم تجرون الأحكام الدينية والمدنية وأبطل وجود الأنبياء من سلسلتكم على الإطلاق التى كانت تسوسكم وتنصحكم وتعلمكم وتنبئكم على ما كان وما يكون، وتصنع المعجزات لكى تثبت لكم أن الذى كانت تخاطبكم به هو وحى من عند الله. وهذه الكثرة من الأنبياء قد كانت موجودة خاصة عند أمتكم بالحصر، وليست عند من سواها، وآباء الكهنة ورؤساء الكهنة والكهنوت الذى كان لا يتم الخلاص لليهود ولا الغفران إلا بهم وعلى أيديهم، وحتى لا يجوز العمل الذى كانوا يعملونه فى الاستغفارات والتخلص من السيئات إلا بواسطتهم، وهدم المذبح والهيكل - الذى عمّرهُ سليمان - اللذين كانا لا تتم أعمال القرابين إلا بهما. ومحق الله سبحانه وتعالى وهدم معرفة الأسباط ورتبهم ووظائفهم المتعلقة بالخدمات الدينية والأحكام الحرسية والملكية.

ورابعها: وهى الأغرب من كل ما ذكرناه أن «أشداى أصباؤت أهية شراهية» حين وضع شريعة التوراة وفرضها قد جعل على الأمة اليهودية شرائع ووصايا يجمع عددها ستمائة وثلاث عشرة وصية، وهذه الوصاية الحاوية على هذا العدد قد ربطها وحكم حُكمًا صارمًا على من لم يعملها بستمائة وثلاث عشرة لعنة؛ لأنه يُقال فى سفر التثنية

الاشتراع فى الإصحاح السابع والعشرين والثامن والعشرين : «ملعونا يكون من لا يعملها واحدة واحدة» ثم إن هذا الإله سبحانه وتعالى الذى من جملة أسمائه بالعبرانى «الألوهيم» «الأدوناى» قد وضع على من يخالف هذه الوصايا ولا يعمل بها واسطة للتخلص من تلك اللعنة المترتبة على المخالف : تطهيرات وتكفيرات وغفرانات وذبائح وقرابين بأعداد من الحيوانات والطيور المعلومات، وحصر هذا الألوهيم الياهو فى هذه المذكورات أن تصنع وتقرب ضمن الهيكل والمذبح ورسم أيضًا بأن من يقدم قربانًا خارج الهيكل يقتل . وأمر بأن تكون القرابين مقدمة له تعالى على (أيادى الأحبار ورؤساء كهنتهم، وكان كل من يتعدى ويخالف وصية من هذه الوصايا وتلزمه لعنة من هذه اللعنات يخلص منها بواسطة الكهنة ورؤساء الكهنة والهيكل والمذبح وباقى المذكورات ـ كما سبق القول ـ وأما الآن يا أقربائى وبنى جنسى، قد رأيت أن عامة اليهود الباقية من بنى إسرائيل عندما يخالفون وصية من هذه الوصايا وتلزمهم لعنة من هذه اللعنات المشروحة من سيدنا موسى فى التوراة ليس لهم وجهة للتخلص منها مطلقًا . وهم حزانى من كونهم لا يمكنهم العمل بكامل الوصايا المشروحة، ومتحققون أنهم تحت مخالفتهم، وثقيل عليهم حمل اللعنات الموضوعة عليهم، ويمتنع أيضًا فرارهم بالتطهيرات والتخلص من قصاصها ما دموا تحت نيرها؛ لأن الباب مسدود بواسطة ما أنا عازم على شرحه . . . ويه . . ويه! يا أسفاه . . يا حسرتاه؛ لأن الهيكل الذى عمّرهُ سليمان الذى هو مثال القبَّة الموسوية مع المذبح اللذين لا تكون هذه القرابين إلا بهما قد خربا وانهدما، والذبائح والقرابين مع الكهنة ورؤساء الكهنة الذين كانوا يعملونها فى الهيكل والمذبح للفداء والتطهير مع باقى ما ذكرناه من النبوة والملك والأسباط ومتعلقاتهم قد اضمحلوا وتلاشوا وما بقى لهم أثر بالكلية، فمن انعدام ما ذكرناه إفرادًا وإجماعًا، وبطلانه ما عاد يمكن للباقى من الشعب الإسرائيلى التخفف من الخطايا ومن المرتب عليهم من القصاصات. لا، بل وممتنع عليكم يا أحبائى التقرب إلى الله، بحيث التزمتم تبعة لعنات شريعتكم التوراتية مع عدم مكنتكم أيضًا من التطهيرات المربوطة عليها، وهذا القول ليس هو قولى ولا يجوز عندى أن ألعن، بل هى لعنات شريعتكم وتوراتكم . . . .

وخامسها : يا أحبائى، ليس خافيكم أن فى الزمان الماضى قد جاء سيدنا عيسى فاستكبرتم . . . وقد وعد سيدنا عيسى بمجىء محمد وأشار إليه بإشارات كثيرة. إنه قد

سماه «الفارقليط» وهى كلمة يونانية، وترجمتها للعربى «الداعى»، وبسبب هذه الإشارات أسلم عبدالله بن سلام، وكعب الأحبار وغيرهما كثير.

وسادسها: وإذ رأى الأحبار والحاخامات الكثير من جماعتهم اليهود الموجودين فى تلك الأعصار تابعين لدين هذين الرجلين النبيين العظيمين، وما بقى عندهم إلا القليل من الناس كما هو مشاهد، فقد شرعوا فى عمل تحريفات وتأويلات وتفسيرات مخالفة لمضامين الشهادة الواردة فى التوراة بحقهما. واخترعوا آراء مستحدثة، حتى قد رأوا أن يُبقوا الباقين فى دينهم إلى الآن. ومع ذلك لما كنت أتردد عندكم كنت أرى أن بعضًا منكم مذبذبون ومنقسمة آراؤهم فى الكثير مما ذكرته، وهم من الناس العقلاء، وبعض منهم عارفون الحق ولكنهم مربوطون فى وظائفهم الدينية والأموال والأولاد والعيال، وبعضهم مُغفّلون غير مبالين من دخولهم تحت هذه اللعنات المذكورة التى يلتزم الدخول تحت نيرها جمهورهم بلا محالة بحيث لا يمكنهم عمل الوصايا المربوطة على من لم يعمل هذه اللعنات، مع عدم إمكان عمل الوسائط بالقرابين التى كانت تخلّص الناس منها.

ثم ومن أقوى هذه الآراء المستحدثة قد اخترعوا لهم رأيًا أبتر ليس له سند من التوراة مطلقًا، لا عن موسى ولا من موسى وهو التقميص.

أعنى أن الإنسان اليهودى عندما يموت وهو غير مكمل الوصايا المشروحة، ومدين إلى الكثير منها ووقع تحت هذه اللعنات فليزمه الرجوع للدنيا ثانى مرّة أو ثالث مرة أو إلى أكثر من ذلك إلى أن يُكمل كل الوصايا ويتخلص من جرثومة هذه اللعنات رويدًا رويدًا، ثم لما فحصت ودققت واتصلت إلى معرفة هذه القواعد الدينية ورأيت أنها حديثة ولا سند لها من التوراة قلت لنفسى: وَيْه! وَيْه! ما الذى يحملك على القعود فى هذه الشريعة....

وسابعها: أنى قلت لنفسى: يا ترى ما الذى يمنعنى من اتباع الحق؟

فقلت: لا مانع.

ثم قلت: وما هو الفرق الحاصل فيما بين ديانتى وبين الديانة المحمدية؟ فأجبت ذاتى وقلت: إن الفروقات اللازمة والضرورية فى هذا المعنى غير المتقدم شرحهنّ سبعة:

الفرق الأول: هو ترك فرائض المأكولات التى حرمها الحاخامات وأثقالها.

الثانى: التخلص من هذه اللعنات ونكباتها.

الثالث: أن أطرح التجديف الذى كنت أتكلمه بحق عيسى وأمه وغيرهما من حوارييه والتهجم على تعليماته.

الرابع: أن أقر أن عيسى نبى ورسول من عند الله برسالة معلنة بأفرادها.

الخامس: أن أقلع البغضة المزروعة فى قلبى بحق الأمم من الناس - وهى معى عن آبائى وأجدادى - وبحق محمد المصطفى بنوع أبلغ الحاوى أكثر المحامد وصفاتها.

السادس: الاعتراف بنبوة محمد ﷺ.

السابع: أعترف بأنه جاء بشريعة عدلية وفضيلة كاملة حاوية معنى جوهريات ما جاء فى الشرائع السابقة..

هذا هو الذى يزيدُ علىّ ويلزمنى؛ إذ إن إيمانى بواحدانية الله هو هو، وختانى بطهورى هو هو، وبُعدى عن المرأة فى أوقات معلومة هو هو، وتطهيراتى وإسقاط غسلى هى هى، وكثير من الأحكام التوراتية، كأوجه الزواج المربوط بالقرابات عدا وجهين زائدين هى هى، واعترافى بموسى ونوح وإبراهيم وباقى الأنبياء هو هو. والشرائع العدلية كالعين بالعين والسن بالسن هى هى. وقد رأيتُ كل ما يلزم ويتعلق اتباعه لذلك هو هو.. ومن بعد وقوفكم على جوابى هذا أرجو أن تعذرونى وإن كان يغيب عنكم شىء اطلبوا إلى الله تعالى أن يرشدكم ويأتيكم بالبيان.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

***

ف: 6026 ت:29/1/2009

دار أبو سليمان
للطباعة والتجليد
ت: ٠١٢/٤٢٤٤٣٠٨ - ٠١٢/١٢٧٢١٢٤

هذا الكتاب

كانت أغلبية المسلمين الأوائل قد تحوّلت إلى الإسلام بعد أن كانت على اليهودية أو النصرانية، ولم يكن تحوّل هذه الأغلبية من الوثنية الخالصة إلى الإسلام .

فقد كان يهوديٌ هو الذى بشّر أهل المدينة بقدوم النبى ﷺ، وكان العرب الذين هادوا هم الذين قدموا إلى مكة المكرمة لاستدعاء النبى ﷺ، وأسلمت بلاد اليمن التى اختلطت فيها اليهودية بالمسيحية دون أن يرسل لها النبى ﷺ غزوات حقيقية، ولم يحقق الإسلام نجاحًا حقيقيًا كبيرًا فى رحاب الوثنيين من أهل مكة طوال ثلاث عشرة سنة، وإنما بدأ نجاحه الحقيقى بتفاعله مع المسيحيين بعد الهجرة إلى الحبشة، وتفاعله مع اليهود بهجرة النبى ﷺ إلى المدينة حيث اليهود وحيث العرب الذين هادوا، فحقق الإسلام انتصاره الباهر باعتباره دينًا وسطًا بين الدينين السابقين عليه.

هذه الحقائق التى قد تبدو جديدة، وثّقها المؤلف توثيقًا كاملاً من خلال المصادر المتداولة التى لم يُحسن البعض قراءتها وفهمها.

وبإعمال المؤلف منهجه الاجتماعى الأنثروبولوچى خرج بحقائق غير مُتداولة عن انتشار الإسلام وعن الأصول الدينية لبعض الصحابة الأوائل، وعن تفاعلات - وليس صراعات - بين الأديان السماوية الثلاثة.

نعتقد أن هذا الكتاب إضافة حقيقية للمكتبة العربية.

